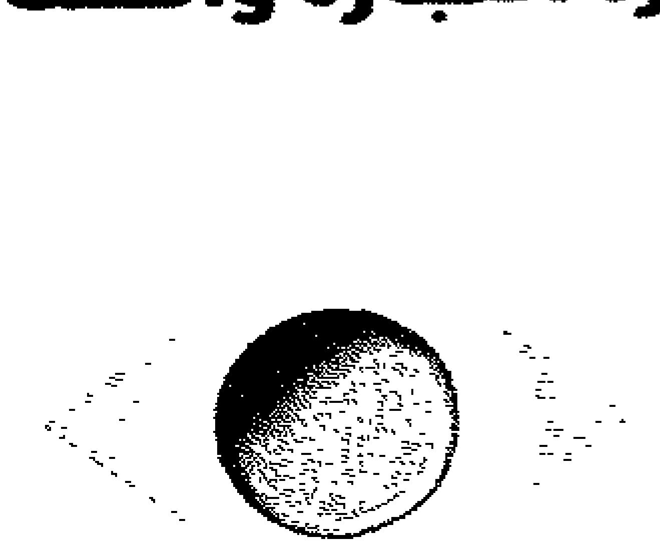




جمال بدوى

وزارة التجارة والصناعة



إشتري وإنت مِطّمن

19588



إهداء ٢٠٠٧
دار أخبار اليوم
القاهرة

كتاب اليوم

رئيس مجلس الإدارة

محمد عهدى فضلى

رئيس التحرير

نوال مصطفى

مصر القديمة فى عيون حديثة

جمال بدوى

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

العدد رقم ٤٩٨
سبتمبر ٢٠٠٧

يصدر أول كل شهر
عن
دار أخبار اليوم

٦ شارع الصحافة
القاهرة
ت: ٥٨٠٦٢٣٥
تليفاكس: ٥٧٨٤٤٤٤

الغلاف:
عمرو فهمى

الإخراج الفنى:
عبد القادر على

تخفيض ١٠٪
من قيمة الاشتراك
لطلبة المدارس
والجامعات المصرية

أسعار البيع
خارج مصر

سوريا ١٥٠ ل.س - لبنان ٥٠٠٠ ل.ل - الأردن ٢ دينار الكويت ١ دينار - السعودية ١٢ ريال - البحرين ١,٢ دينار قطر ١٢ ريال - الإمارات ١٢ درهم - سلطنة عمان ١,٢ ريال - تونس ٣ دينار - المغرب ٣٥ درهم - اليمن ٥٠ ريال - فلسطين ٢,٥ دولار - لندن ٢,٥ ج ك - أمريكا ٥ دولار - أستراليا ٥ دولار استرالى - سويسرا ٥ فرنك سويسرى.

العنوان على الإنترنت
www.akhbarelyom.org.eg/ketab

البريد الاليكترونى
ketabelyom@akhbarelyom.org

قبل أن تقـــــرأ..

حضارة سبعة آلاف عام.. تاريخ أكبر أمة.. وأقدم حضارة عرفتها الأرض.. على مر التاريخ.. تاريخ لم يتأثر ولم يندثر بمرور الزمان.. تاريخ كان نبراساً لأمم من بعد ذلك إلى الآن.. نشاهد.. ونحلل.. ونتعلم.. لنعرف كم كانت مصر رائدة وعريقة.. صاحبة ملامح حضارية خلابة.. مليئة بالعظمة والشموخ والرقى والعلوم والآداب والفنون.

وكم كانت سعادتى وأنا أتصفح هذا الكتاب صفحة تلو الأخرى.. أزداد نهماً للقراءة ومعرفة ما لا أعرفه عن حضارة بلادى القديمة تلك الحضارة التى تدهش العالم ويقف أمامها مبهوراً.. يكاد يصفق من الدهشة مع كل معلومة وحكاية ودرس مستفاد.

أما سر إعجابى واختيارى لهذا الكتاب ليكون أحد إصدارات سلسلتنا العريقة «كتاب اليوم» فهو شعور داخلى عميق جاءنى بعد ان انتهيت من قراءته.. ان هذا الكتاب كتب ليعيش سنوات وقروناً، ليس فقط لأنه يتحدث عن حضارة عاشت مع الزمان.. فكم من الكتب التى تحدثت عن الحضارة المصرية وماتت، ولكن لأن كاتبه مفعم ومولع بهذه الحضارة.. عاشق لها.. متشبث بكل ما فيها من علم وفن فى وقت ندرت فيه هذه النوعية من الكتاب المخلصين والمتفانين.. إنه الكاتب القدير جمال بدوى عاشق التاريخ..فأنت تشعر فى سطوره

بأنه بلغ درجة الوله بتاريخ مصر.. يراودك احساس داخل صفحات الكتاب وبين سطوره.. بين أحرفه وكلماته.. بأنه معجون بحب هذا الوطن وحضارته تلك الحضارة الخالدة منذ سبعة آلاف عام حتى الآن.

فعندما نراه يتحدث عن الضمير الاجتماعى فى مصر القديمة.. وكيف كان هذا الضمير والخلق المصرى نبراساً للعالم.. وكيف تميزت الحضارة المصرية القديمة بالأخلاق، حتى قال المؤرخون ان الضمير كان العامل الاساسى فى ازدهار الحضارة المصرية وتميزها بل واستمرارها.. ويوضح لنا اخلاقيات الحضارة المصرية الراقية والتعاليم التى تهذب السلوك الانسانى وتجعله ساميا.. مما يجعلنا نضرب كفاً بكف على أحوال هذا الدهر.. وزمن ما بعد الحداثة وأخلاقياته التى نعيشها.

ويبدأ بعدها عشق أستاذنا جمال بدوى فى التوهج عندما يبدأ فى شرح وتحليل تفاصيل وعوامل بناء حضارة مصر القديمة من أصول الانسان المصرى.. ومن أين نشأ ومن أين أتى ليستقر فى وادى النيل الخصيب.. وبناء الأهرام تلك الحقيقة والمعجزة التى تسير عبر الزمن رافعة هامتها شامخة دالة على ماكان لنا.. وكيف كان هذا المشروع عملاً قوميا تقوم من أجله البلاد.. وعقيدة الخلود والدين والبعث والحساب.. واللغة المصرية القديمة هل هى الهيروغليفية أم العربية.. ويفاجئنا ببحث يربط بين اللغتين.. ويوضح كيف استفادت اللغة العامية المصرية من الهيروغليفية فى تعاملنا اليومى.. والمجتمع المصرى وكيف كان يصون حقوق المرأة فى كل الحالات.. فى الزواج والطلاق.. فى المعاملة بين الزوج و

زوجته.. وكيف كان المصرى القديم ـ على حد تعبير الأستاذ جمال بدوى ابن نكتة يعشق المرح والأغانى.

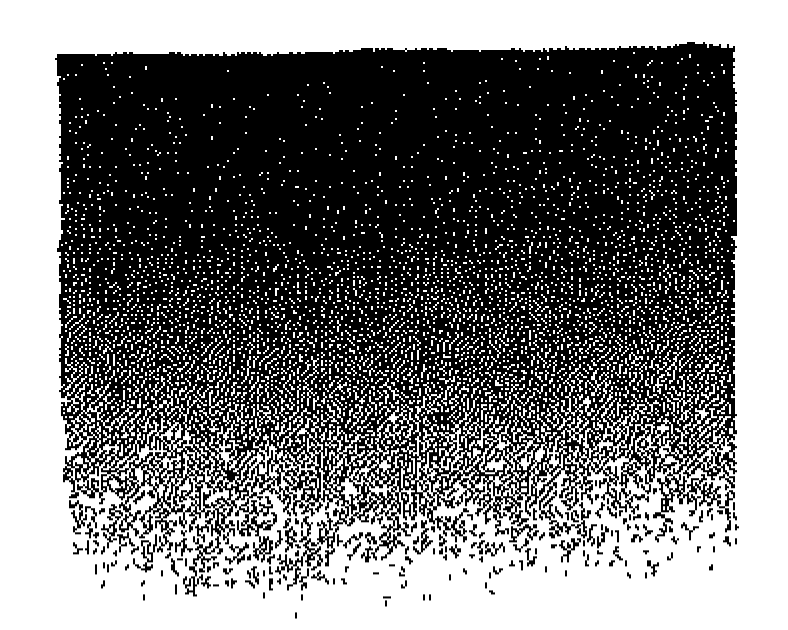
ويشرح لنا بعدها أستاذنا إنتشار الأديان فى مصر من اليهودية والمسيحية والاسلام.. والديانات فى مصر القديمة، وتواجد اليهود فى مصر منذ قديم الأزل والرد على افتراءاتهم على الأنبياء وقولهم أنهم بناة الأهرامات..

وفى الجزء الثالث يتعرض الأستاذ جمال بدوى لشخصيات مصرية أثرت فى التاريخ من ملوك وعلماء ورحالة مثل: رمسيس الثانى وأخناتون وإيمحوتب وحورمحب والاسكندر.. ولعلماء مصريين كان لهم أثرهم فى كشف النقاب ـ أوائل القرن الماضى ـ عن الكثير من درر الحضارة المصرية مثل أحمد كمال.. ورحالة اوروبيين مثل: بوركهارت ونيسبور.. أنه كتاب يحمل ثقافة موسوعية بكل ما تحمل الكلمة من معنى.. تحتفظ به لك ولأولادك وأحفادك فهو واحد من كنوز المعرفة.. ونص يحتاج كل منا أن يقرأه حتى تعود إليه مشاعر الفخر والعزة بوطن فريد.

وفى النهاية أترككم مع صفحات هذا الكتاب «المنجم» فى رحلة شائقة نغوص فيها فى دهاليز تاريخ حضارة شامخة عبر الزمان.. ومع هذه السطور سوف نتأمل كثيراً.. ونفخر.

نوال مصطفى

سبتمبر ٢٠٠٧



الباب الأول

مصر مهد الحضارة

من هنا انبثق الضمير

□ أعظم ظاهرة فى تاريخ الإنسانية هى الأخلاق.

□ فجر الضمير الذى أضاء العالم أجمع.

نحن نعيش انتعاشة تاريخية نراها بوضوح فيما تبثه الاذاعة والتليفزيون من برامج تتناول المراحل المختلفة من تاريخ مصر، ونقرأها فيما تنشره الصحف والمجلات من دراسات وبحوث تنشط الذاكرة المصرية، وفيما تقدمه المطابع من كتب قيمة، ولعل هذه الانتعاشة تعوض النقص فى مناهج التاريخ المدرسى، وما يشاع عن جعل مادة التاريخ اختيارية لا تدخل فى حساب النجاح والرسوب، وإن كان من المؤكد إنها تؤدى إلى رسوب الشخصية المصرية وإصابتها بالعقم، لأن التاريخ ليس مجرد حكايات تروى للتسلية، وإنما هو عنصر فعال فى التربية القومية. وأساس متين فى بناء الشخصية المصرية، وتعميق انتمائها، وهو فضلا عن ذلك قوة ديناميكية تدفعنا إلى التقدم بخطوات ثابتة، وتشجعنا على مواجهة التحديات التى تعمل على تذويب شخصيتنا الذاتية فى خضم العولمة.

نحن لا نبالغ حين نقول اننا نملك أطول تاريخ بين كل الأمم التى ولدت على مسرح العالم القديم، وليس بالقدم وحده يتميز تاريخ مصر، ولكن بالاستمرار أيضا، فلم يعرف تاريخ مصر الانقطاع مثلما حدث لأمم أخرى تعرضت لغزوات وموجات بشرية سحقت ما قبلها، وحلت محلها، ثم دارت عليها عجلة الزمن، فبادت واندثرت، حتى

صار تاريخ هذه البلاد سلسلة من تواريخ الشعوب التى توالت عليها، ولا تجد مثل ذلك فى تاريخ مصر. وقد تجد غزوات عسكرية، وحملات أجنبية. ولكنها لا تلبث أن تولى الأدبار عندما يثور المصريون ضد الغزاة، دون أن تترك هذه الحملات تشوهات على تكوين مصر البشرى والثقافى. وقد تجد غزاة تسللوا إلى أحشاء مصر واستوطنوها زمنا يطول أو يقصر، كما فعل الهكسوس، ولكنهم عاشوا فى مصر غرباء منبوذين إلى أن حان وقت طردهم دون أن يخلفوا فى الدماء المصرية قطرات تحسب لهم، وما يقال عن الهكسوس يقال عن هجرة بنى اسرائيل إلى مصر فى عصر سقط فيه النظام الفرعونى الحاكم تحت سنابك الهكسوس. وتشكلت من العنصرين حلقة جهنمية لاستنزاف مصر، وكما عاش الهكسوس على هامش الحياة المصرية فى الحوض الشرقى والدلتا .. عاش بنو اسرائيل فى نفس (الجيتو) المغلق عند برزخ السويس، حتى حان أوان رحيلهم مع نبى الله موسى.

خصوصية التاريخ المصرى

وجميع الغزوات التى تكالبت على مصر، خرجت دون أن تغير من تكوينها البشرى، أو تؤثر على موروثها الثقافى والدينى، وعندما تمعن النظر فى أشكال المصريين المرسومة على جدران المعابد والمقابر، يخيل إليك انك ترى نفس السحنة عندما تنظر فى المرآة، أو عندما تتفحص وجوه اخوانك وأهلك وجيرانك فى الدلتا أو الصعيد. ومن هاتين الميزتين: القدم والاستمرار اكتسب التاريخ المصرى خصوصيته التى بهرت العالم، وجعلته يقف مشدوها أمام هذه الأمة التى قاومت الفناء، وبقيت حية نابضة رغم الكوارث والمحن التى صادفتها على مدار الزمن.

ونحن نظلم تاريخنا حين نعلمه لأولادنا على أنه يبدأ بالعصر الفرعونى، أى العصر الذى تم فيه توحيد القطرين، ونشأة الكتابة، وظهور الدولة والحكومة، وبناء الأهرامات.. وهو العصر الذى أطلق عليه المؤرخون أسماء متعددة مثل العصر التاريخى، أو التاريخ

المكتوب، أو عصر الأسرات التى بدأت فى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، وبلغ عددها ثلاثين أسرة انتهت مع قدوم الاسكندر الأكبر على رأس حملته العسكرية ذات المضمون الهللينى.

تاريخ المصريين الأقدمين

أما تاريخ مصر الحقيقى فيبدأ قبل ذلك بآلاف السنين، وهو تاريخ المصريين «الأقدمين» الذين أقاموا أول مراكز للحضارة فى الدلتا والصعيد، واكتشفوا الزراعة، وصهروا المعادن، وعرفوا الله بالفطرة قبل أن يكون هناك أنبياء ورسل، ولكن أزمة هؤلاء الرواد الأوائل أنهم لم يتركوا وراءهم أهرامات ضخمة، ولا معابد شامخة، وكل ما خلفوه حفائر من الذهب التى تثير شغف المؤرخين، ولم يسجلوا تاريخهم على الجدران، لأنهم لم يكتشفوا الكتابة، والمؤرخون لا يعترفون إلا بما هو مكتوب ومقروء، ولذلك سقط هذا التاريخ السحيق من ذاكرة المؤرخين، وبقى مجهولا إلى أن ظهر علماء أوروبيون شغلوا أنفسهم بتاريخ الشعوب القديمة، وقادهم البحث إلى هذا الكنز المفقود فى حضارتنا، وكما يقول شيخ الأثريين - سليم بك حسن - فى الجزء الأول من موسوعة (مصر القديمة): «إن علم - ما قبل التاريخ - نشأ فى أوروبا، فكان من البديهى أن تكون كل مصطلحاته وتعبيراته أوروبية محققة، وينحصر عصر ما قبل التاريخ المصرى فى المدة التى بدأ الانسان يظهر فيها فى وادى النيل، إلى بداية الأسرة الأولى حوالى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد، وقد ظلت معلومات العالم أجمع عن تاريخ مصر القديم مجهولة إلى أن نهض بعض علماء أوروبا لوضع أساس علم جديد هو علم (ما قبل التاريخ) وانحصر فى بحث مسألة أصل الانسان، ودراسة بقايا العظام البشرية فى المغارات والكهوف، وتوصلوا إلى حياة الانسان فى العصور الحجرية الثلاثة ثم فى عصر المعادن حتى بلغوا العصر التاريخى، عصر استخدام الكتابة فى التدوين.

ولكن علماء التاريخ لم يعترفوا بهذا العلم، واعتقدوا أن سكان مصر لم يكن لهم عهد طفولة كباقى الأمم، بل وجدوا فى التاريخ

فجأة.. إلى أن جاء العالم الفرنسى (أرسلان) فكان أول من أثبت وجود علم ما قبل التاريخ فى مصر. ودعم أقواله بالبراهين، ومن بعده توالت الحفريات فى بطون المراكز الحضارية القديمة فى البدارى وديرتاسا وجرزة ومرمرة بنى سلامة والمعادى. ومن هذه الحفائر استطاع العلماء كشف جذور الحضارة المصرية، واللبنات الأولى التى وضعها المصريون فى هذا الصرح العاتى.. صرح الحضارة والرقى والمدنية.

المضمون الأخلاقى عند القدماء

اننا نقف مبهورين أمام أهرامات الجيزة وسقارة، وتمثال أبى الهول، ومعابد الكرنك والأقصر والدير البحرى، ولكننا لا نشغل عقولنا فى البحث عن المضمون الروحى لهذه المنشآت الضخمة، ولا يمتد تفكيرنا إلى القيم الدينية والأخلاقية التى اعتنقها الأجداد، وأقاموا عليها أول كيان أخلاقى فى تاريخ البشر. وربما يرجع هذا العزوف إلى المؤثرات الدينية التى ترى فى ذلك عودة إلى الوثنية وعبادة الأصناف، ولكن العلماء الذين تعمقوا فى دراسة المضامين الأخلاقية لدى قدماء المصريين توصلوا إلى نتائج فى غاية الابداع. ومن هؤلاء العلامة «هنرى بريستد» الذى وضع مؤلفه الشهير (فجر الضمير) فى عام ١٩٣٤ بعد أن اكتوى العالم بنار الحرب العالمية الأولى، وقادة البحث فى تاريخ المصريين إلى الدعوة إلى عالم يستمع باحترام إلى الأصوات الباطنة المنبثة فى الضمير الإنسانى الذى كان المصريون أول من اهتدى إليه، ولا أدرى ماذا كان يقول «بريستد» لو عاش إلى زمن الحرب العالمية الثانية ورأى البشر يحرقون بنار السلاح الذرى(!!)

معالم البناء الأخلاقى

وقبل أن أعرض لحديث بريستد عن «فجر الضمير»، من المفيد أن نصحب الرجل وهو يتحسس خطواته الأولى فى عالم الفكر، إلى أن اكتشف معالم البناء الأخلاقى الذى أقامه المصريون القدماء. اذ يقول: لقد حفظت فى طفولتى، مثل اخوانى الصبية،

«الوصايا العشر»، وتعلمت ان أحترمها لأنها منزلة من السماء على «موسى». وان ألتزم باتباعها، وأذكر اننى كلما كذبت، كنت أجد لنفسى مبررا فى انه لا توجد وصية تقول «يجب عليك ألا تكذب». وان الوصايا العشر لا تحرم الكذب إلا فى شهادة الزور أمام المحاكم، فلما اشتد عودى بدأت أشعر فى قرارة نفسى بشىء من القلق، وأخذت أحس بأن قانون الأخلاق الذى لا يحرم الكذب قانون ناقص، وبقيت هذه الفكرة تجول بخلدى زمنا طويلا قبل أن أضع لنفسى السؤال المهم التالى: كيف ظهر فى نفسى الشعور بهذا النقص؟ ومن أين حصلت بنفسى على المقياس الخلقى الذى كشفت به عن هذا النقص فى الوصايا العشر؟ ولقد كان يوما أسود على احترامى الموروث للعقيدة الدينية القائلة «بنزول الوحى» حينما بدأت عندى تلك التجربة النفسية. بل قد ظهرت أمامى تجارب أشد إقلاقا لنفسى وذلك عندما كشفت وأنا مستشرق مبتدىء ان المصريين كان لهم مقياس خلقى أسمى بكثير من الوصايا العشر، وان هذا المقياس ظهر قبل أن تكتب تلك الوصايا بألف سنة.

أعظم ظاهرة فى تقدم الإنسان

أما عن أثر المبادىء الأخلاقية فى تقدم الحياة الإنسانية، يقول بريستد ان أعظم ظاهرة أساسية فى تقدم الانسان هو نشوء المبادىء الخلقية وظهور عنصر «الأخلاق» وهو تحول فى حياة الانسان، يدلنا التاريخ على أنه وليد الأمس فقط، وقد يكون من الخير أن نعيد الاشارة بتلك القيم القديمة التى أصبحت فى زوايا الاهمال لاستخفافنا بها، وبخاصة فى هذا الوقت الذى أصبح فيه الجيل الحديث ينبذ الأخلاق الموروثة ظهريا، ولكى نتمثل صورة حقة لقيمة الأخلاق الفاضلة، وتأثيرها فى الحياة الانسانية يجب أن نجتهد فى الكشف عن الطريقة التى وصل بها الانسان للمرة الأولى إلى إدراك الأخلاق وتقدير قيمتها.

ويتساءل بريستد: اذا كان الانسان قد بدأ حياته متوحشا مجردا من الأخلاق، فكيف أصبح فى وقت ما صاحب وازع خلقى؟

وكيف خضع فى النهاية للوازع الخلقى عندما أحس به وتلقى وحيه؟ وكيف ينهض عالم خال من الأخلاق إلى التمسك بالمثل الاجتماعية؟ ولماذا لا يكون من واجب شباب اليوم، رجالا ونساء، أن ينبذوا المبادىء الأخلاقية الموروثة والتى لا نعرف أى شىء عن أصلها؟

ويجيب بريستد: ان الوثائق القديمة تكشف لن عن فجر الضمير ونشوء أقدم مثل للسلوك، وما نتج عن ذلك من ظهور عصر الأخلاق. ان مجموعة من ورق البردى المصرى ألفت فى العهد الاقطاعى حوالى ٢٠٠٠ق.م تدل محتوياتها على أنها أكثر من انتاج أدبى مزخرف الألفاظ، وهذه المقالات تحوى فى ثناياها آراء اجتماعية تعتبر أقدم بحوث معروفة فى الاجتماع كتبها مؤلفوها الأقدمون لتكون حملة دعاية لأول جهاد مقدس فى سبيل العدالة الاجتماعية، ولذا يعد هؤلاء المؤلفون أول المصلحين الاجتماعيين. ولقد كان أعظم كشف جاوز حد المألوف: هو أننا عرفنا أن كلمة «أمينموبى» المسجلة فى ورقة مصرية بالمتحف البريطانى قد ترجمت إلى العبرية فى الأزمان الغابرة، وانه بذيوعها فى فلسطين صارت مصدرا استقى منه جزء بأكمله من كتاب الأمثال فى التوراة.

أناشيد اخناتون هى الأصل

وهناك إجماع عالمى بين المؤرخين على أن كتاب «الأمثال» فى العهد القديم (التوراة) مقتبس من أناشيد اخناتون التى هى أقدم من التوراة بكثير، ويرى بريستد أن هذا الكشف أضاف أهمية بعيدة المدى إلى الحقيقة القائلة بأن التقدم الحضارى فى الممالك التى تحيط بفلسطين كان أقدم بعدة آلاف من السنين من التقدم العبرى، ولقد أصبح من الواضح الجلى ان التقدم الاجتماعى والخلقى الناضج الذى أحرزه البشر فى وادى النيل - الذى يعد أقدم من التقدم العبرى بثلاثة آلاف سنة - قد ساهم مساهمة فعلية فى تكوين الأدب العبرى الذى نسميه نحن «التوراة». وعلى

ذلك ـ يؤكد بريستد ـ ان إرثنا الخلقى مشتق من ماض انسانى واسع المدى أقدم بدرجة عظيمة من ماضى العبرانيين، وان هذا لم ينحدر إلينا من العبرانيين، بل جاء عن طريقهم، والواقع ان نهوض الانسان إلى المثل الاجتماعى قد حدث قبل أن يبدأ ما يسميه رجال اللاهوت بعصر الوحى بزمن طويل، وان هذا النهوض نتيجة للخبرة الاجتماعية التى نقلت الانسانية من وحشية عصر ما قبل التاريخ، إلى دنيا ذات قيم باطنة تسمو على المادة، وبهذا العمل العظيم وصل الانسان إلى الكشف عن مملكة جديدة لم يرد مجاهلها بعد. لقد انبثق عصر فجر الضمير والأخلاق على العالم دون أن يزج به من العالم الخارجى عن طريق منهاج خفى يسمى الالهام أو الوحى بل كان منشأه حياة الإنسان نفسه، ويرجع ذلك الانبثاق إلى مدة ألفى سنة قبل بداية عصر وحى رجال اللاهوت فأضاء ظلمة الحيرة الاجتماعية، والكفاح الباطنى فى نفس الانسان، ومهما قيل إن نورا سماويا ساقته القدرة الالهية على فلسطين خاصة، فإن ذلك لم يحرم الانسان من التحلى بتاج فخار حياته الذى ناله على الأرض، وأعنى بذلك التاج كشفه للأخلاق، فإنه يعد أعظم كشف حدث فى مجال حياة التطور البشرى.

كم نحن فى مسيس الحاجة إلى استعادة هذه الصفحات المغرقة فى القدم. والتى سجلت انبثاق فجر الضمير من الأرض المصرية ليعم العالم كله بالنور والهداية.

أخلاقيات الحضارة المصرية

□ الغوص فى أعماق الحضارة المصرية القديمة هو مفتاح التقدم.

أتناول فى هذه الدراسة الجانب الروحى والأخلاقى فى حضارتنا القديمة، فلا يكفى أن نتحدث عن عظمة الآثار، ويتملكنا الاعجاب كما يحدث للسياح، ولكن يجب علينا أن نغوص فى أعماق الذات لنكشف عن جذور البناء الأخلاقى الذى أقامه الأجداد جنبا إلى جنب البنايات الشاهقة، وأن نتعرف القيم والمبادىء التى اعتنقها المصرى القديم، فكانت بمثابة الروح للجسد، ودفعته إلى ارتياد آفاق العلوم من طب وفلك وهندسة وزراعة وكيمياء.

فنحن عندما نقف مبهورين أمام جلال الأهرامات والكرنك وكنوز توت عنخ آمون: تشغلنا روعة الآثار عن رؤية الأبعاد الروحية الكامنة داخلها، ويصرفنا الظاهر عن الباطن، وعندما أقام أجدادنا هذه المنشآت الجبارة لم يفعلوا ذلك لاثبات قدرتهم على فعل المعجزات، ولا خطر على بالهم ان يرتادها السياح ويشيدوا بعظمتها، وإنما أقاموها استجابة لنوازع روحية، لا نعرف إلا القليل عنها، للأسف الشديد، لأن الكهنة أحاطوها بسياج من الغموض والكتمان حتى تستعصى على الغير، فإذا نجحنا فى استنطاق هذه الأحجار الصماء فسوف نسمع منها ما يبهر العقل والوجدان، وسوف تروى، معالم البرنامج الروحى الذى آمن به القدماء، وجعلوه

دستورا لحياتهم الدنيوية والأخروية.

مناهج التربية والتعليم

من حقنا، بل من واجبنا، أن نسأل: كيف كانوا يفكرون؟ ومن أين تعلموا أسرار الحكمة؟ ومتى توصلوا إلى منابع العلوم والمعارف؟ وعندما عجز البعض عن كشف أسرار الأهرامات قالوا انها من فعل كائنات أسطورية هبطت من السماء، وهو تفسير سهل وسطحى لم يسبر أغوار المجتمع الذى حقق هذه المعجزات، ولذلك علينا أن ندرس حركة المجتمع المصرى فى حياته اليومية، وندرس علاقات الأفراد فيما بينهم، وفيما بينهم وبين الدولة، والمصادر التى كان التلميذ يستقى منها علومه الأولية التى أن يصير شابا يافعا يتخصص فى علوم الدنيا والدين، لابد أن ندرس نظام التعليم فى مصر القديمة والمناهج التى كان يتعلمها التلميذ وكيف كانت العلاقات بينه وبين المعلم، هل كان التلميذ يحترم الأستاذ أم يحتقره ويضربه اذا لزم الأمر؟ وهل كان المعلم متفرغا لمهنته المقدسة أم كان يتحايل لزيادة دخله وإرغام تلاميذه على الالتحاق بحلقة الدروس الخصوصية؟ هل كانت مهمة المدرسة تلقين العلوم للتلاميذ أم تربيتهم على أسس قوية تكفل تنشئة أجيال قوية تقدس العمل والانتاج والابداع، وتقدم شبابا أصحاء الأبدان والعقول والأخلاق.

لا يمكن تصور مجتمع - تلك ثمرات حضارته - إلا أن يكون مجتمعا متماسك البنيان، متمسكا بالقيم الخلقية والفضائل والمثل العليا التى كانت راسخة فى حياة المصريين، وكان لها أثرها فى تزكية نفوسهم، وترقية أخلاقهم، حتى بدت لنا هذه التقاليد وكأنها تضارع الأهرام فى ثباتها، وما كان ثبات هذه التقاليد إلا بسبب سيطرة الدين، ووقوفه حائلا أمام النزعات الأجنبية التى أغارت على مصر فى عصور العنف.

نعم.. قامت حضارة مصر القديمة على القيم الخلقية التى تمسك بها المصريون فى صدق، وعن اقتناع وايمان، فالدين تغلغل

فى خلايا المصريين حتى أصبح الحافز الأكبر والموجه الأول للسلوك الفردى والاجتماعى. وعاشوا فى إطار خلقى محكم يحض على الخير والفضيلة، وينهى عن الفحشاء والمنكر، وكانت الوصايا الأولى التى يتلقاها الطفل من أبويه تدور حول فكرة الحلال والحرام، والخير والشر، ويتعلم ان أعمال الانسان ستكون فى انتظاره عندما ينتقل إلى العالم الآخر، فيجد المحكمة منعقدة بحضور اثنين وأربعين قاضيا يمثلون أقاليم مصر جميعا، وسيجد الميزان منصوبا ويجد قلبه موضوعا فوق احدى الكفتين، وأعماله على الكفة الأخرى، فإذا حاول الكذب أو التنصل من السيئات التى ارتكبها فسوف تشهد عليه أعضاؤه، ستتكلم اليد التى بطش بها، وينطق اللسان الذى استخدمه فى اغتياب الآخرين، وتشهد الساق التى ذهبت به إلى أماكن الفجور.. فمن خفت موازينه بفعل السيئات فسيلقى به فى الجحيم حيث تنقض عليه وحوش مفترسة تمزق جسده، ثم يلقى به فى الظلمات ليعضه الجوع، ويحرقه الظمأ، وأما من ثقلت موازينه بفعل الخيرات فيكون مصيره جنات النعيم، والاستمتاع بالخلود فى الفردوس.

مستوى خلقى رفيع

ليتنا نطلع على كتب التربية التى كان يدرسها التلاميذ فى المدارس ولسوف يتملكنا العجب من ذلك المستوى الخلقى الرفيع الذى وصل إليه أجدادنا، وسوف تجد هذه الكتب زاخرة، بالوصايا والحكم والمواعظ والأمثال المشحونة بالتجارب والفضائل التى تحث على التسلح بالتقوى والخوف من عقاب الله، وتغرى الشاب بالتحلى بالمثل الخلقية كالبر بالوالدين، واحترام المعلم، والتسامح، والرحمة، والتواضع والعطف على الضعفاء، والاستقامة، والعدل، واحترام الرؤساء، وحفظ السر، والأمانة والاخلاص، والصبر، وحسن اختيار الأصدقاء، والبعد عن المنكرات مثل شرب الخمر، والزنا وشهادة الزور، وأكل مال اليتيم، والنميمة والغيبة والاستعلاء على البسطاء.

من النصوص التى كان يحفظها تلاميذ المدارس فى مصر القديمة نصائح الحكيم «بتاح حتب» وهى مسجلة على لوحة بردى موجودة فى متحف اللوفر بباريس، وهى من أصعب النصوص الفرعونية ومع ذلك ترجمت إلى معظم لغات العالم استمع إلى هذا الحكيم المصرى وهو يحض الشباب على الزواج حتى يحصنوا أنفسهم ضد الشهوات المحرمة:

«اذا كنت شخصا عاقلا ناجحا فأحبب زوجتك التى تعيش فى منزلك بصدق وأمانة، أشبع جوفها، واكس جسدها، وأعلم ان العطور خير علاج أعضاء جسدها، ادخل السرور على قلبها طيلة أيام حياتها فهى حقل يدر الخير لسيده، ثم ينصحه باحترام حرمة البيوت فيقول: واذا أردت أن تطيل صداقتك فى بيت تزوره، سيدا كنت أو أخا أو صديقا، فاحذر من الاقتراب من النساء فى أى مكان تدخله، فهو مكان غير لائق لمثل هذا العمل، وليس من الحكمة أن تفرط فى الملذات فقد انحرف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك، انها لحظة قصيرة كالحلم، والموت جزاء الاستمتاع بها.

وهو يشير بذلك إلى عقوبة الزنا وهى الموت.

● وهو يحث على ضرورة اتباع الحق: «اذا كنت زعيما يحكم الناس، فلا تسع إلا وراء ما اكتملت محاسنه حتى تظل صفاتك الخلقية دون ثغرة فيها، ما أعظم الحق، فإن قيمته خالدة، ولم ينل منها أحد منذ أيام «الإله» أوزيريس، ولكن الذى يعتدى على ما يأمر به يحل به العقاب وانه «أى الحق» مثل الطريق السوى أمام الضال، ولم يحدث أبدا ان «عرف عن» عمل السوء انه أوصل صاحبه سالما إلى مأمنه».

● وهو يحذر من غرور العلم فيقول لتلميذه: لا يداخلنك الغرور بسبب علمك، ولا تنتفخ أوداجك لأنك رجل علم، استشر الجاهل كما تستشير العالم ما من أحد يستطيع الوصول إلى آخر حدود الفن، ولا يوجد الفنان الذى يبلغ الكمال فى إجادته، أى ان الحديث

المتع أشد ندرة من الحجر الأخضر اللون، ومع ذلك فربما تجده لدى الاماء «الجوارى» اللاتى يجلسن إلى الرحى «أى أحقر خدم البيت».

● ومن وصاياه فى أدب المآدب:

«اذا كنت مدعوا إلى مائدة من هو أعظم منك.. فخذ ما عسى أن يعطيه لك عندما يوضع أمامك»، ولا تسدد نظرات كثيرة إليه، لأن إجباره على الالتفات إليك أمر تكرهه النفس، غض من طرفك حتى يحييك، ولا تتكلم حتى يخاطبك اضحك عندما يضحك فإن ذلك يدخل السرور على قلبه، ويستقبل منك كل ما تفعله، ان الانسان لا يعلم ما فى القلب».

● ومن وصايا «بتاح ختب» لمن يتعاملون مع الكبراء:

«اذا كنت شخصا فقيرا تعمل لدى أحد الرجال المعروفين الذين يشملهم رضاء الإله «أى الملك» فلا تحاول معرفة شىء عن ماضيه عندما كان مخمورا لا تجعل قلبك يتعالى عليه بسبب ما تعرفه عن ماضيه، احترمه بنسبة ما صار إليه لأن الثروة لا تأتى من تلقاء ذاتها.. والله هو الذى يخلق الشهرة».

«واذا عظم شأنك بعد أن كنت قليل القدر، وأصبحت غنيا بعد ان كنت فقيرا فى بلدك الذى يعرفك أهله، فلا تنس كيف كان حالك فيما مضى، ولا تغتر بثروتك التى جاءتك كهبة من الله، ولكن لا تحس أنك أقل من أى شخص آخر مثلك أصبح فيما أصبحت فيه».

البيت مهد التربية

كانت الأسرة هى نواة المجتمع، وكان البيت هو مهد التربية الأول والوحيد فى مطلع مراحل النمو الانسانى، ففى البيت يتعلم الطفل المشى والكلام وآداب الأكل واللبس، ويستقى معارفه الأولى، ويقتبس قواعد السلوك، وكان لاستقرار الأسرة وتماسكها وقوة الروابط بين أفراده: أكبر الأثر فى تكوين نفسية الطفل، ومن الواضح ان الصبيان المصريين قد تلقوا حظهم كاملا من الرعاية

والتربية المنزلية، وهذا ما شهد به المؤرخون اليونان الذين كانوا يتوافدون على مصر لتلقى العلوم مثلما نتوجه نحن الآن إلى الجامعات الأوروبية والأمريكية، وقد لاحظوا أن الرابطة الأسرية أقوى منها فى أى مجتمع آخر كما كانت العلاقات الزوجية وطيدة قوية، وكان الأزواج من أحرص الناس على إسعاد زوجاتهم ومعاملتهن بالحسنى، وكان الزوج يحرص دائما على مناداة زوجته بلفظ «يا أختى» وليس «حمت» بمعنى زوجة، وهى تناديه «يا أخى» وكان الآباء يحثون أولادهم على احترام الأم، استمع إلى نصيحة الحكيم «آنى» لولده: «اطع أمك واحترمها» فإن المعبود هو الذى أعطاها لك، ضاعف الخبز الذى يجب أن تعطيه لأمك واحملها كما حملتك، وهى كم من مرة اعتنت بك، ولم تتخل عنك، وعندما وضعتك بعد شهور من حملك أعطتك ثدييها فى فمك لمدة ثلاث سنوات بصبر، ووضعتك فى المدرسة، وبينما كانوا يعلمونك الكتابة، كانت هى تنتظرك أثناء غيابك بالطعام والشراب من منزلها، والآن وأنت فى زهرة العمر، واتخذت لك زوجة، وصار لك بيت اتجه بنظرك إلى الطريقة التى تربيت بها والتى تغذيت عليها، فإن كل هذا من عمل أمك فلا تجعلها تلومك حتى لا ترفع يديها نحو المعبود شاكية، فيستجيب لشكواها.

لقد ارتبط البناء الأخلاقى عند القدماء بالدين، واختلط العنصران، حتى يصعب الفصل بينهما، فالدين يتغلغل فى شرايين المصريين حتى النخاع، وصار الدين هو الموجه الأول لكل شىء فى حياتهم، ولا توجد حضارة عبرت عن الحق والعدالة «ماعت» بقدر ما عبرت الحضارة المصرية، وليس بين الحضارات القديمة أن قامت حضارة على القيم الخلقية مثلما قامت الحضارة المصرية، وأنت تلمس ذلك فى كل ما صدر عنها من أدبيات وتعاليم وحكم وسلوكيات، وكانوا يطبقون هذه التعاليم على أنفسهم بروح راضية، ورغبة طيبة للوصول إلى ارضاء الخالق الذى سيحاسب الانسان على فعله، ولأنه يعلم خائنه الأعين وما تخفى الصدور وكانوا

يشعرون بسعادة بالغة حيث يقلب المرء صفحة حياته فيجدها عامرة بالخير والفضيلة، وكانوا ينقشون هذه الأعمال على جدران القبور حتى تكون شاهدا عليهم وقت الحساب، يقول الوزير « حرخوف» فى نقوش مقبرته:

«لقد كنت انسانا طيبا، أثيرا لدى أبيه، محبوبا من أمه، ومحبوبا من جميع اخوته، وقد أعطيت الخبز للجائع، والملابس للعارى، وعبرت النهر بالذى لا قارب له، وكنت أقول الكلمات الطيبة»، ولم أكرر إلا ما هو مقبول «يعنى لم يكن ثرثارا» ولم أقل أبدا كلمة سيئة لدى رجل فى السلطة ضد أى انسان، ولم يحدث أن تدخلت لحرمان ابن من ميراث أبيه، لأننى كنت أرغب فى أن أجد القبول لدى المعبود الأكبر».

الأدب قبل العلم

وكان أجدادنا يضعون القيم الخلقية فوق التفوق العلمى، وكما نقول نحن اليوم «الأدب مفضل على العلم».. كان «عنخ شاشنقى» يقول: «وإنما يتأتى التعليم بعد رقى الخلق» ومن دفاع المتوفى عن نفسه أمام محكمة الآخرة: أنا لم أكذب، أنا لم أغش، أنا لم أقتل ولم أسرق ولم أسبب نزاعا، ولم أطمع فى أى شىء، ولم أسب أحدا، ولم أغضب، لقد تجنبت لغو الحديث، ولم أكن متكبرا ولم ألعن اسم المعبود، ولم أرتكب خطيئة خلقية، أنا لم أمنع الخبز عن الجائع، ولا الماء عن الظمآن، ولا الملبس عن العارى، ولم أحمل أثر الخطيئة على جسدى.. وعندما ينتهى من حديثه يقول: اننى طاهر «ويكررها خمس مرات» أى طاهر البدن والروح وهكذا تجد النزعة الأخلاقية تسرى فى كل الوصايا الملكية والشعبية التى وصلت إلينا من نصوص مصر القديمة، الأمر الذى يؤكد انها كانت حضارة أخلاقية توارثت هذه القيم جيلا بعد جيل وحافظت عليها وأحاطتها بسياج من العقيدة الراسخة، فعاشت فى أعماق كل مصرى، وبقيت حية، فى كيانه على مر العصور، وبرغم الضعف الذى أصاب النظام السياسى الفرعونى، فإن تراث الأجداد بقى

حيا فى نفوس المصريين، وبقى الكيان الأخلاقى شامخا أمام الجيوش التى جاءت إلى مصر وعاشت زمانا طال أو قصر، وهى تحمل فوق حرابها، أفكارا وتيارات ومعتقدات تخالف عقائد المصريين، وقد تجنبها المصريون وأهملوها ولاذوا بتراثهم المجيد، وليس أدل على ذلك من ألف عام عاشها الاغريق فى مصر ولم ينجحوا فى اجتذاب المصريين إلى عقائدهم، وما يقال عن اليونان يقال عن الرومان وكلهم كانوا أشبه بسحابة صيف طردتها رياح المجد القديم.

مراجع الدراسة

تاريخ التربية والتعليم فى العصر الفرعونى - تأليف الدكتور أحمد بدوى والدكتور جمال مختار - مصرع الفرعونية تأليف الدكتور أحمد فخرى - حضرة مصر القديمة تأليف الدكتور رمضان عبده على.

الأصل البشرى للمصريين الأقدمين

□ من أين أتى المصرى الأول؟ .. سؤال احتار فيه العلماء.

□ هل المصريون ساميون أم حاميون؟.

تتفق جمهرة علماء الشعوب القديمة «الانثربولوجى» على ان مصر لم تكن مهد الانسان الأول، ولكنهم يختلفون حول جنسية وأصول الأقوام الذين هبطوا إليها وعمروها، منهم من يرى ان البداية جاءت من عمق القارة الافريقية مع النيل، ومنهم من يستوردهم من الصحراء الليبية بعد عصر الجفاف فهرعوا إلى الوادى الأخضر، وبعضهم ينسبهم إلى سكان الجزر فى البحر الأبيض، وبعضهم يرى انهم جاءوا من الجزيرة العربية ضمن سلسلة الهجرات السامية التى انساحت فى الهلال الخصيب ثم دخلت مصر عبر سيناء. وهؤلاء يرفضون نسبة المصريين إلى العنصر الحامى الذى جاء ذكره فى سفر التكوين والذى يجعل المصريين من نسل حام بن نوح، وان اسم «مصر» مشتق من «مصرايم» ابن حام ويرون ان تعبير «السامية» ما هو إلا تحريف للتعبير الأصلى وهو «العربى».

ومن المتخصصين فى علم الأجناس المتحمسين لنظرية الأصل السامى - العربى للمصريين: العالم السورى «الدكتور محمد عزة دروزة» صاحب المؤلفات القيمة فى تاريخ الأجناس، وقد عرض مختلف الآراء التى تناولت تاريخ المصريين واتفقت على أن مصر كانت مستقرا لعناصر أسيوية من الجنس الأبيض كانت تهبط

عليها فى عصور ما قبل التاريخ وتمتزج بالعناصر الافريقية التى سبقتها إلى وادى النيل، والتى دخلت مصر عن طريق برزخ السويس حينا، أو عن طريق باب المندب والبحر الأحمر حينا وينقل عن «بريستد» ان جماعات من الليبيين والصومال والبجا كانوا يطرأون على مصر منذ أقدم الأزمنة، وان أقواما ساميين من غرب آسيا انساحوا فى مصر وعمموا فيها لغتهم وصبغوها بصبغتهم، وان لغتهم حافظت على ساميتها «عروبتها» بمرور الزمن بالرغم مما طرأ عليها من تغيير وتحريف باختلاط السكان، وان تاريخ الهجرات السامية ـ العربية الأولى يرجع إلى ما قبل العصور التاريخية، ثم تكررت فى العصور التالية وتمثلت فى الهجرة الكبرى التى صاحبت الفتح الاسلامى.

وينقل «دروزة» مما جاء فى كتاب تاريخ السودان القديم للدكتور كمال حسن: ان المصريين والسودانيين من أصل واحد، وانهم جاءوا إلى وادى النيل من بلاد العرب عن طريق الصومال، وقد نقل هذا المؤلف عن الجغرافى «ديودور الصقلى» ان أصل المصريين القدماء من بلاد العرب الجنوبية نزلوا إلى شواطىء أثيوبيا ثم تقدموا نحو الشمال حتى دخلوا مصر وبسبب ذلك يقول الأثيوبيون «ان مصر مستعمرة من مستعمراتنا» على اعتبار ان سكانها القدماء جاءوا من ناحيتهم وقد نقل كذلك عن «أحمد كمال» العالم الأثرى المشهور أن أصل اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واحد. وان الاختلاف الظاهر بينهما ليس إلا نتيجة اسقاط بعض كلمات فى بلاد العرب، وبقائها فى وادى النيل، أو العكس.

شهادات العلماء

ويستطرد «دروزة» فى جميع الشهادات التى تؤكد الأصل العربى للمصريين القدماء، ومنها شهادة العالم الأثرى أحمد نجيب حيث يقول فى كتابه «الأثر الجليل لسكان وادى النيل»: ومن يتأمل التماثيل القديمة المصرية يعلم يقينا ان هذه الأمة من الجنس الأبيض القاطن فى آسيا، وان كثيرا من أصول لغتهم مشتق من

اللغة العبرانية والآرامية، وان أصل المصريين من الجنس السامى العربى وقد وصلوا إلى هذا الوادى من برزخ السويس وربما وجدوا فيه طائفة من الزنوج.

ولقد قال العلامة الفرنسى الشهير «جوستاف لوبون» فى كتابه عن «الحضارة المصرية» ان كل جذور اللغة المصرية القديمة، ومعظم قاموسها يتركب من عناصر سامية حتى أجروميتها فيما يتصل بتركيب المؤنث والجمع، والكلمات البعيدة عن الأصل السامى ترد إلى الجنس الأسود الذى طرأ على مصر.

وجاء فى كتاب تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى لسفيدج والاسكندرى ان أرجح الآراء أن مؤسسى حضارة مصر الأولى قبل الأسر الملكية قوم لوبيو الأصل، غير ان حضارتهم ليست هى أساس مدينة المصريين الذين تكونت منهم الأسس المختلفة والذين وصلوا بمصر إلى أعظم درجات الرقى، وقد ثبت أن هؤلاء قوم ساميون قدموا إلى مصر من آسيا، والمعلوم يقينا ان أول ملوك مصر «مينا» نشأ فى جنوب مصر، ومما يدل على أن أجداده من الساميين ان أقدم ما وصل إلينا من لغتهم يغلب فيه العنصر السامى على الافريقى، وهم الذين جاءوا بفن التحنيط والكتابة الهيروغليفية.

لغة من أصل واحد

وجاء فى كتاب «الأساس فى الأمم السامية ولغاتها» لعطية الابراشى: ان المدينة الانسانية العامة قد ابتدأت فى وادى النيل، وان سكان هذا الوادى، وان كانوا مزيجا من عناصر مختلفة. فالعنصر السائد فيها والذى أنتج أول مدينة هو العنصر السامى، أى العربى وانه على أى تقسيم قسمت اللغات السامية: فإن الحقيقة الكبرى انها لغات جماعة بشرية كونت جنسا بشريا واحدا، وهو الجنس الذى عرف باسم الجنس السامى، والذى عرفت شعوبه باسم الشعوب السامية، ولغاته باسم اللغات السامية،

والتى تحضرت فى أطراف جزيرة العرب، وفيما وراء هذه الأطراف مع بقاء وحدة التفكير والخيال الجامعة بينها، وقصارى القول ان الجماعة السامية هى الجماعة العربية، ومنها كانت الهجرات الأولى فى شمال الجزيرة ومشارف الشام والعراق.. ثم إلى بلاد الحبشة ومصر.

مزيج القدماء والمهاجرين

ويقول المستشرق الأمريكى اللبنانى الأصل «فليب حتى» ان موجة من المهاجرين الساميين انساحت فى مصر عن طريق أفريقيا الشرقية حوالى سنة ٣٥٠٠ ق.م وكان فيها جماعة من الحاميين فامتزجت بها فتآلف من هذا المزيج سكان مصر القدماء، ووضع «حتى» اللغة المصرية القديمة ضمن اللغات الأشورية والبابلية والآرامية والكنعانية والعبرانية والعربية القديمة والحبشية.

وقال: لو دققنا النظر فيها لوجدنا تشابها جليا بينها يخولنا حق ردها إلى أم واحدة.

ولقد قال جوستاف جيكى أستاذ الأثريات المصرية فى كلية نيوشاتيل فى كتابه «تاريخ المدينة المصرية» ان سكان مصر القدماء جاءوا إليها من جزيرة العرب قبل ستة آلاف سنة. وتحررت منهم الأسر الفرعونية الأولى. كما نبه «جبرائيل هانوتو» فى مقدمة كتابه «تاريخ الجنسية المصرية» عن بروز مميزات العنصر السامى العربى فى سحن وصور ومحنطات ملوك مصر منذ أقدم الأزمنة وبتعبير أدق: ملوك الدولة الأولى والأسلاف الذين انحدروا منهم الذين طرأوا على مصر من شمالها الشرقى «سيناء» ومن جنوبها الشرقى بالاضافة إلى قوله ان الدم المصرى غدا مزيجا من عناصر سامية وزنجية وأوروبية وسكان شواطىء البحر الأبيض المتوسط.

حام وسام فى مصر

وقال «ولس بدج» مؤلف كتاب «سواء السبيل فى سكان وادى

النيل» ان الذى حققه العلماء أن الذين ملكوا مصر، ووضعوا شرائعها منذ البدء جماعات هاجروا إليها من «المشرق» منذ بضعة ألوف من السنين قبل التاريخ المسيحى وليس فى مشرق مصر إلا جزيرة العرب والشرق وسيناء المتصلة بالجزيرة كما لا يخفى.

وقال المؤرخ الشهير «ماسبيرو» ان لعروق المصريين الأقدمين والعرب والفينيقيين والكنعانيين: روابط تشد بعضها بعضا، وليس المصريون سوى ساميين انفصلوا عن مهد الساميين قبل غيرهم.

وتناول العلامة سليم حسن أصل المصريين فقال ان مصر كانت مسكونة منذ عصور ما قبل التاريخ بقوم من الجنس الحامى، الافريقى الأصل وينسب إلى اللوبيين سكان افريقيا الشمالية، والذين يسمون الآن «البربر» وإلى السكان الحاميين فى شرق افريقيا «الصومال» ثم دخلت على هذه الشعب تغييرات عن طريق الهجرة، وكانت أهم العناصر الجديدة من أصل أسيوى لهم مميزات خاصة تختلف اختلافا بينا عن الشعب الأصلى، وان امتزجوا فيهم ويخمن ان هؤلاء المهاجرين الجدد جاءوا من جزيرة العرب ودخلوها عن طريق البحر الأحمر من جهة «قفط» أو عن طريق أعالى النيل، أو عن طريق سيناء.. وقد أدخلوا معهم مدينة أرقى من مدينة الجنس الحامى الأصلى مثل المعادن، وادخلوا كذلك عبادتهم للأموات وديانتهم وكتاباتهم وفنونهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية، ودخلوا البلاد تدريجيا وبدون عنف إلى ان استولوا عليها.

ولايزال الحديث مستمرا عن أصل المصريين القدماء.

فى الأدب الفرعونى

☐ الأدب الفرعونى أقدم الآداب على وجه الأرض.

☐ قصة «سنوهرت».. من الأدب الكلاسيكى الفرعونى.

بعد أن فرغ العلامة الأثرى حسن سليم من كتابة التاريخ الفرعونى فى ستة عشر مجلدا، عكف على كتابة تاريخ الأدب المصرى القديم فى مجلدين، أهدى أولهما إلى روح الرجل العظيم الدكتور أحمد ماهر باشا الذى لقى مصرعه فى البهو الفرعونى بمبنى البرلمان فى عام ١٩٤٥، وهو نفس العام الذى أصدر فيه سليم حسن كتابه، وقال انه يهدى إلى الرجل الذى كتب للوطن صفحة مجيدة بدمه الغالى: صفحة كانت مطوية من تراث الوطن العلمى.

أما إتجاه سليم حسن إلى دراسة الأدب الفرعونى فترجع إلى عام ١٩٢٥ عندما وقع فى يده كتاب نفيس فى الأدب المصرى القديم ألفه العلامة الألمانى «أدولف إرمان» شيخ علماء اللغة المصرية القديم، فوجده منقطع النظير فى بابه، واصطحبه فى سفرته إلى أوروبا، وعكف فى مدينة سويسرية هادئة على ترجمة الكتاب، وبقى مطويا فى مرقده إلى أن يحين وقت نشره، ثم إزداد مؤرخنا إقتناعا بهذا الموضوع عندما قرأ كتاب عالم المصريات الألمانى «ماكس بيبر» رغم انه كان مقتضبا بسيطا تنقصه النماذج الكثيرة التى هى مادة تاريخ الأدب وروحه.

وقد وضع «بيبر» كتابه إستجابة لكثير من الأوروبيين الذين لم

يدرسوا العلوم المصرية القديمة، أو آدابها، ولا يعرفون عن مصر إلا أنها بلد المومياوات وأبوالهول والأهرام وتوت عنخ آمون، فلما ظهر الكتاب بين أيديهم دهشوا، وسأل بعضهم بعضا: أيوجد لمصر القديمة أدب قومى مثل الأدب اليونانى واللاتينى والألمانى؟

أقدم من الأدب الاغريقى

ويزيد سليم حسن فيقول: ولا نستغرب من أجنبى عن مصر أن يسأل هذا السؤال إذا علمنا أن السواد الأعظم من المصريين المتعلمين الذين تحدثت إليهم فى هذا الموضوع: يجهلون أمره، ويعتقدون أن أقدم أدب فى العالم هو الأدب الاغريقى، وعنه أخذت أمم العالم آدابها، وقبله كان تاريخ الأدب صفحة بيضاء.. ولكننا نؤكد لهؤلاء المتعلمين وأشباههم ان لمصر أدبا قوميا قديما، وأنه أقدم من الأدب الاغريقى، وإذا كانت كتابات «هوميروس» هى أول وأرقى ما عرف عن أدب الاغريق، فإن الأدب المصرى معلوم تاريخه من يوم أن نشأ وحبا إلى أن درج ونما ووصل إلى نهايته، وسنجد أنه أدب لا يقتصر على النقوش الدينية وتدوين الحقائق والمقالات العلمية: ولكنه يتعدى ذلك إلى مؤلفات لها قيمتها الأدبية تثبت أن المصرى القديم كان يقدر الأدب، ويتذوق حلاوته، ويسحر ببيانه فيوقت كان الاغريق وغيرهم من الأمم القديمة يهيمون على وجوههم ويتخبطو نفى ظلام الجهل.

خصائص الأدب المصرى

نعم.. كانت مصر السابقة فى هذا المضمار، فلم يظهر الأدب العبرى إلا وليدا بعد أثنى عشر قرنا من ذلك التاريخ، والأدب البابلى كان يترنح، فلم يكن إنتاجه مظهرا خالصا للأدب، ولا قصد به خدمة الأدب حبا فى الأدب، كما كان الشأن فى مصر، فإن الأدب المصرى أريد به أن يحدث فى نفس قارئه وسامعه لذة فنية كالتى يحسها اذا استمع إلى شدو الشادى، أو إذا رأى الصورة الجميلة، وتحسس التمثال البديع.

أما لماذا لم يعرف الأوروبيون الأدب المصرى كما عرف الأدب الاغريقى؟ فتفسير ذلك عند سليم حسن بأن الأوروبيين لم يتصلوا بالمصريين إلا فى عهود ضعفهم بعد أن خرستهم الحروب، وبعد أن خرجوا يلهثون من حياة كفاح طويلة مع أجانب غاصبين، وربما يقصد سليم حسن بذلك أن أول اتصال أوروبى بمصر تمثل فى حملة بونابرت التى دهمت مصر وهى مضعضعة من وطأة الاحتلال العثمانى الذى دام ثلاثة قرون عاشتها مصر فى غياهب الجهالة والجمود والضعف. وانقطعت الحبال بينها وبين تاريخها المجيد الذى ظل مطويا تحت ركام القرون، ولم يفصح عن عظمته إلا بعد فك رموز اللغة الهيروغليفية فى القرن التاسع عشر.

تحفظ المصريين القدماء

ويضيف سليم حسن إلى ذلك ان المصريين الأقدمين ضربوا نطاقا حول عاداتهم وموروث معتقداتهم، لا يجتازونه ولا يسمحون لأحد أن يزحزحه وكأنهم ظنوا بذلك أنهم سيحتفظون دائما بمكانتهم التى كانت لهم عند العالم، وليس معنى ذلك أنهم كانوا جامدين، يسير العالم ولا يسيرون، بل انهم كانوا مع تحفظهم سباقين متيقظين فى وقت ظل كثير من الأمم يغطون فى نوم عميق، وكانت روح المغامرة تحفزهم، والإقدام يملأ نفوسهم، وتلك سياحاتهم، وحروبهم وآثارهم الغنية الخالدة تشهد بتوثبهم، بل إن أعمال التصوير والنحت عندهم تشهد بأن الحياة لديهم كانت دائما فرحة ناطقة جريئة كما كانت عند الاغريق الذين أتوا بعدهم بآلاف السنين.

ولم يعجب اليونانيين ما كان عليه المصريون من تحفظ موروث، فنظروا إلى عاداتهم نظرة رهبة واحتقار لأنها لا تتفق مع دنيا الحضارة عندهم، ووضعوهم كما وضعهم الأوروبيون جميعا مع الصينيين الأقدمين فى كفة واحدة، خلافا لما كن عليه المصريون من نظرة جريئة إلى الحياة، فوجدنا عندهم حياة عقلية وفلسفية دينية عميقة وافتنانا فى الأغانى والقصص، وعناية بالكتابة

الأوروبيـة، وكانوا مـهـتـمـين بتنمـيـة لغـهم، وصـقلهـا لأنهـا غنيـة الاستعارات والتشبيهات، فكانت لغة مترفة مثقفة.

قصة سنوهيت

ومن القـصص التى ذاع صيتهـا، ولقيت رواجا عظيـمـا، قـصة «سنوهيت»، وقد تـرجمهـا الأسـتاذ «جاردنر» وكـتب عنهـا دراسـة باعتـبارها من روائع القصص التى تدل على المهارة الأدبيـة، ورقـة التعبير عن الأحاسيس الإنسانية.

وقد رويت القصة بصيغة المتحدث عن نفسه، وهو «سنوهيت» الذى عـاد من غـزوة ضـد اللوبيين بقيـادة ولى العـهـد «سنوسـرت الأول» وفى أثناد ذلك مـات الملك «أمنمحـات الأول»، ونعـاه الناعى إلى سنوسـرت، فترك الجيش وعاد مسرعا إلى العـاصمة ليطمئن على عرشه الذى آل إليه، ولكن أمـر الوفاة كان قد ذاع بين الأمـراء المرافقين للحملة، وسمع به «سنوهيت» فما كان منه إلا أن فر هاربا إلى سوريا لأسباب غـامضة لم يجد لها تعليلا مقبولا، واستقبله أحد رؤساء القبائل فأحسن إليه، وعثر له على زوجة، فـأصبح رب أسرة، وصارع أحد رؤساء العشائر السورية المعادية مصرعه، وبعد فتـرة طويلة عـاوده الحنين إلى وطنه، وتاقت نفسـه للرجـوع إلى مـصـر ليكون فى خـدمـة مـولاه الملك الذى ظل مـخلصـا له طوال حيـاته، وليلقى ربه ويدفن فى البلد الذى ولد فيه، ولما سـمع الملك بآلامه وأحلامه: عفـا عنه وأعاده إلى منصبه فى الحكومة، وسمح له أن يعود إلى وطنه معـززا مكرمـا ليقضى ما بقى من عمـره تحت سمائه.

من الأدب العالمى

ويضع سليم حسن هذه القصة فى إطار الأدب الكلاسيكى لأنها تجلو لنا مـرحلة من تاريخ الأدب العـالمى، ولأنهـا تفـصح لنا عن الخلق المصـرى القـديم، وتظهـره فى صـورة تجمع بين السـذاجة والمكر ونفاذ البصيـرة، والشعور بالعظمة والبراعة فى النكتة،

ولاشك أن علماء المصريات الذين اتسعت آفاقهم العلمية يجدون متعة ولذة فى التقلبات التى مرت بسنوهيت فى مغامراته، كما أنهم يعجبون بمراحل القصة من وصف للملك المسن، وهرب سنوهيت ومخاوفه من الصحراء، وكرم القبائل البدوية، ومديح سنوسرت الأول بلغة شعرية جميلة، والمبارزة التى تمت بينه وبين الرجل السورى القوى، وإظهار حنين سنوهيت إلى وطنه المحبوب مصر فى صورة صادقة للخلق المصرى الذى يعتز دائما بوطنه، ويملأ الحنين إليه شغاف قلبه، ويأتى بعد ذلك كتاب العفو عن الفرعون ليمثل أسلوب الملوك الارستقراطى، كما يمثل عطف الملوك على المخلص من رعاياهم، وعفوهم عمن تثبت توبته، وإنعامهم عليه بما يعلى قدره، ويثلج صدره، ويبدو ذلك من التأكيد الوارد فى كتاب الفرعون عن شعائر الدفن التى كانت تشغل بال كل مصرى أثناء حياته، أما رد سنوهيت على هذا الكتاب فكان جامعا لمظاهر الفزع العظيم من الملك القوى، وشاهد الخلق المصطنع الذى يقدمه بين يدى الملك ليستل بذلك حفيظته ويضمن رضاه.

أما ختام القصة فوصف مألوف لعهد الشيخوخة الذى قضاه سنوهيت فى نعيم مقيم، ومقام كريم، ليشعرنا بالجانب المادى الذى يميل إليه المصرى ميلا شديدا، والذى كان شعار الحضارة المصرية القديمة. . .

نحن بناة الأهرام

☐ هل تم بناء الأهرام بالسخرة أم بالتطوع؟.

☐ بناء الأهرام .. كان مشروعاً قومياً لمصر كلها.

من هم أولئك الذين بنوا الأهرامات؟
لا أقصد زوسر وخوفو وخفرع ومنقرع.. ولكنى أعنى العباقرة أصحاب العقول الجبارة الذين صمموا هذا البناء الهندسى الفريد، وأقصد الفنانين الذين رسموا اللوحات على الجدران، والمهندسين والنحاتين والنجارين.. وهذا الحشد الهائل من الفلاحين الذين تركوا حقولهم وجاءوا من أقصى البلاد ليرفعوا الأحجار فوق أكتافهم، ويضعوها فى المكان المحدد لها، كيف كانوا يعيشون؟ وماذا كانوا يأكلون؟ وهل كانوا يتقاضون أجرا عن هذا العمل الشاق؟ أم كانوا يعملون بالسخرة وتحت لسع السياط؟

كل هذا كان يشغل بالى كلما نظرت إلى هذه المنشآت الضخمة التى بنيت منذ ستة وأربعين قرنا.. ولاتزال تتحدى الأزمات والدهور، وتقف شامخة شاهدة على عظمة الحضارة المصرية، ولقد حاولت البحث عن إجابة فى موسوعة العالم الكبير سليم حسن، فلم أجد ما يشفى الغليل، فقد صرف جهده فى الحديث عن سلسلة الفراعين العظام منذ زوسر، شأن معظم المؤرخين الذين يحصرون التاريخ فى أعمال الملوك والسلاطين والأباطرة، ويغضون الطرف عن أعمال الشعوب، بل ان بعضهم كان يرى ان فى الحديث عن «العامة» نزولا بمكانة التاريخ إلى درجة متدنية،

ولكن مدارس التاريخ الحديثة ترى ان الأحداث العظمى لم تكتسب عظمتها إلا بفضل العامة، فالجندى هو الذى يقاتل ويضحى بروحه فى المعركة وكذلك جموع الأفراد الذين يطلقون عليهم وصف «العامة» فلولا هؤلاء العامة ما انتصر جيش، ولا قام بناء، ولا حفرت ترعة، ولا زرعت الأرض التى تعمر خزائن الملوك بالمال.

وكان أكثر ما يقلق بالى فى كتابات بعض المؤرخين، ما يقولونه عن علاقة الملوك الفراعنة بأفراد الشعب، وكيف ان هؤلاء الجبابرة كانوا يستغلون العاطفة الدينية عند جماهير المصريين فيسخرونهم فى الأعمال الشاقة تحت زعم ألوهية الفرعون، وان السخرة واجب دينى يتقرب به العابد للمعبود. وقد ظل داء السخرة اللعين قائما حتى بعد زوال ألوهية الحاكم، واستمر حكام مصر فى تسخير المصريين حتى العصر الحديث. وكان أبشع هذه الأعمال ما جرى فى حفر قناة السويس.

وعدت أبحث عن إشكالية بناء الأهرامات عند عالمنا الأثرى المعاصر الدكتور زاهى حواس، والكتاب الذى أصدره عن التنقيبات التى قام بها فى هضبة الأهرام، واستطاع كشف الغطاء عن المدن السكنية التى عاش فيها البناؤون والعمال والمهندسون وأصحاب الحرف والفنون، وتضمن كتابه معلومات جديدة ولأول مرة عن ٨٠٪ من الشعب المصرى، وهم الطبقة العاملة التى خرج منها المهندس والفلكى والمعمارى والفنان والنحات وقاطع الأحجار لبناء هرم خوفو الذى كان يمثل مشروعا قوميا لمصر كلها، حيث شارك فى بنائه العائلات الكبيرة فى الدلتا والصعيد، وكان ذلك فى رأى زاهى حواس واجبا قوميا مثل واجب الدفاع عن الوطن فى عصرنا، مما جعل المصريين يبدعون فى التوصل إلى المعرفة والعلم والتكنولوجيا ولم يكن الهرم مقبرة فقط، بل كان يمثل القوة والعزة لدى المصريين.

ومع ان زاهى حواس نجح فى اكتشاف مقابر العمال فى الجبانة السفلى المتاخمة للهرم، والجبانة العلوية المخصصة للفنانين، فإنه

يعترف بأن معلوماتنا عن الحياة اليومية لبناة الأهرام لاتزال ناقصة، ولم تمدنا الاكتشافات الحديثة بمعلومات مكتوبة تظهر لنا حياتهم اليومية وأحزانهم وأفراحهم والمشكلات والصراعات التى حدثت بينهم. وفى محاولة للاقتراب من هذه الحياة العملية، يصحبنا زاهى حواس فى جولة إلى هذا الجو الأسطورى، فقد كان العامل يصحو من النوم قبل شروق الشمس، وكان هناك مشرف يتأكد من ان العمال الذين يعملون فى قطع الأحجار ونقلها قد استيقظوا من نومهم، ومع شروق الشمس يسيرون فى طوابير، ويجتازون الباب المؤدى إلى موقع البناء، بينما يقوم عمال آخرون بتسوية الأحجار وتهذيبها حتى تتساوى جوانبها، ويقوم فريق آخر بجر الأحجار من المحجر حتى قاعدة الهرم، حيث يجرى رصها بعضها فوق بعض، فإذا صرخ عامل لسقوط الحجر على ذراعه، فإن الطبيب ينتقل على الفور من مركز الاسعاف ومعه فريق التمريض وينقلون المصاب إلى مركز العلاج حيث يقوم المجبراتى بوضع الجبائر الخشبية حول الذراع، ثم يمضى إلى الثكنات حتى تلتئم الكسور، وربما رأيت جراحا يقوم ببتر ساق يصعب جبرها.

وبعد سويعات من العمل تحت لهيب الشمس المحرقة: يحصل كل عامل على راحة لمدة ساعة، ويبدأ فى تناول الطعام المكون من خبز وبصل وثوم وجعة «بيرة» ويستأنف العمل مرة أخرى إلى أن يحين موعد الغداء، وبعدها يعملون حتى الغروب فيعودون إلى ثكناتهم فيتناولون العشاء ويشربون الجعة، ويغنون أغانى الحب، ثم يخلدون إلى النوم المبكر، ولم يكن العمل فى البناء مؤبدا، بل كانت كل جماعة تقضى بعض شهور العمل ثم تعود إلى موطنها لتحل محلها جماعة أخرى.

أما فى الغرف المخصصة للرسامين فسوف نلتقى بجماعات منهم يرسمون المناظر على اللوحات، ويكتبون النقوب الهيروغليفية، وكذلك مراكز النحت حيث النحاتين يعملون فى صنع التماثيل الجميلة.

ويدعونا زاهى حواس إلى الدهشة من نظام ادارة بناء الهرم، ويرى ان هذا النظام يجب أن يكتب ويدرس فى المدارس ليعرف الجيل الجديد كيف استطاع الانسان المصرى القديم منذ آلاف السنين أن يضبط حركة أكثر من عشرين ألف عامل وهم يبنون أعظم المبانى وأضخمها، وكيف قام الأجداد بهذا العمل المعجز، وكيف استطاع رئيس كل عمل، وهو المهندس المعمارى أن ينظم فرقة العمال ويجمعها ويشرف على مواقعها ويحل كل مشكلاتها اليومية، وتوفير المواد الغذائية لهذه الحشود. وكل هذا يحتاج إلى نظام إدارى قوى وحازم لكى ينجز هذه التحفة المعمارية التى شغلت أذهان العلماء والباحثين والعامة والمغامرين على السواء.

ورغم الكتب والمؤلفات التى صدرت عن الأهرامات، فإن موضوع إدارة بناء الهرم لم يجد إلى الآن حقه فى البحث والدراسة كى يؤكد قدرة المصرى القديم على صنع المعجزات، والذى ترك لنا فى جبانة الهرم جزءا من عامه وملابسه وأدواته كى تكون خير شاهد على عظمته وقوته.

لقد كان مشروع الهرم مسيطرا على عقول كل أفراد الشعب من عمال وفلاحين وموظفين وأمراء وأميرات وملوك وملكات، فالعائلات تساهم بالتبرع بالطعام والحبوب والبصل والسمك المجفف والجعة، وكان دور طبقة المثقفين أو المتعلمين هو تسجيل هذه الأحداث والقيام بالأعمال الكتابية والادارية أثناء البناء، أما الجنود والضباط فكانوا مسئولين عن تأمين المحاجر والمناجم التى تجلب منها أحجار الجرانيت من أسوان، والذهب والديوريت من النوبة، والبازلت من الفيوم والواحات، والحجر الجيرى من طرة، والألباستر من المنيا وأسيوط.

هل تم بناء الهرم بالسخرة؟

يجيب زاهى حواس: ان كل الذين شاركوا فى بناء الهرم إنما جاءوا تطوعا، فقد كان التطوع أولى الفرائض المكلف بها الشعب، مثل نظام الجندية الحالى للدفاع عن الوطن، كما كان تطوعا دينيا

مهما، ووازعا وعوامل بناء الحضارة المصرية بفضل براعة المصرى القديم فى العلوم والفنون والعمارة والفلك، ولقد أكد الكشف عن مقابر بناة الأهرام للعالم كله أن الأهرام لم تبن بالسخرة، بل بنيت بالحب والعقيدة الراسخة.

ولكى نعرض كل وجهات النظر حول قضية السخرة: نسترشد برأى أحد أساتذة تاريخ مصر الفرعونية، وهو الدكتور أحمد فخرى اذ يقول: كثيرا ما نقرأ لبعض الكتاب نقدا لاذعا عن أعمال السخرة أو الاستعباد فى تشييد الهرم، وعن الحكام الذين كانوا يستنزفون دماء الشعب فى سبيل تحقيق أشياء لا فائدة منها للناس، بل كل فائدة تعود إلى الحاكم نفسه ليتباهى بها، وقال البعض دفاعا عن قدماء المصريين بأن خوفو وغيره كانوا يشيدون الأهرام ليساعدوا المتعطلين على العمل فى شهور الفيضان، وكلا الرأيين بعيد عن الصواب، لأننا لا يمكن أن نحكم على الماضى بمنطق العصر الحاضر، أو بتعاليمه وآرائه، فقد كان الملك إلها معبودا مثل غيره من آلهة الدين فى السماء، ولكنه رضى أن يعيش على الأرض لكى يحكمها ويسعد الناس، ولذلك كان يسير الكثير من الناس، وخاصة أبناء القرى النائية، ان تتاح لهم فرصة الفيضان وأيام الضيق المادى ليزوروا العاصمة وما فيها من معابد وقصور، وكان يسرهم دون شك أن يساهموا فى عمل شىء لالههم عسى أن يكون فيه قربى ورحمة لهم ويضمن للفقراء سد حاجتهم خلال إقامتهم فى العاصمة، وربما صعب فهم ذلك على الغربيين الذين طغت الفلسفة المادية على أذهانهم، ولكنهم اذا ذهبوا إلى احدى قرى مصر يرون الناس جميعا يساهمون فى بناء مسجد أو ضريح لولى، ويرون القادرين يتنافسون فى تقديم الطعام لغير القادرين من العمال، ويطغى الحماس على أغنياء القرية فيشاركون بأيديهم فى البناء راجين المغفرة والثواب، ويرى البشر يعلو وجوه الجميع وهم يعملون طوال اليوم تحت وهج الشمس، وليتحدث بعد ذلك عن السخرة أو غير السخرة.

تقديس الفرعون

□ مصر هى أول أمة تعرف حكومة مركزية واحدة.

□ النيل أعطى مصر مجتمع ثابت.

كان أول درس تعلمته فى مرحلة التعليم الابتدائى: ان الغرض من بناء الأهرامات كان يتمثل فى أمرين لا ثالث لهما: فكرة الخلود، وقدسية الملك، وعن الخلود: كان المصرى القديم يعتقد فى خلود الروح بعد الموت، ومن ثم كان يقيم لنفسه حياة أبدية لا تقل بذخا عن الحياة الأولى، أما عن قدسية الملك فقد كان المصرى يعتقد ان الفرعون لا ينتمى إلى جنس البشر كغيره من سواد الناس، وإنما جاء من أصلاب الآلهة والمعبودات، ولذلك كان عليه أن يبنى لنفسه مقبرة تتناسب فى عظمتها مع مكانته الألوهية فكانت الأهرامات.

وعندما توسعت مداركه وجدت فى مباحث الجغرافيا والتاريخ ما يزيد هذه المسألة وضوحا، وجدتها جغرافيا عند جمال حمدان، كما وجدتها تاريخيا عند كل علماء المصريات الذين تعمقوا فى دراسة الأديان المصرية، وبحثوا فى أصول الألوهية التى ظهرت فى الحياة المصرية منذ بواكير الحياة الفرعونية.

من ناحية الجغرافيا فإن الرى النهرى الصناعى - الذى يختلف عن الرى المطرى - والذى يتطلب بناء مشروعات هندسية وبحارا مائية تتكفل بوصول المياه إلى نهاية الأرض فى وقت معلوم - تطلب قيام سلطة مركزية عليا تتحكم فى عملية

توزيع المياه بالعدل والقانون، ولم تكن هذه السلطة العليا سوى سلطة الفرعون.

لقد تجمعت من ثلاثية: الماء، والفلاح، والحكومة. أضلاع مثلث متساوى الأضلاع واذا كان الضلع الثالث - الحكومة - أكثرها ضرورة وأشدها ضراوة، حتى يمكن القول بأن أصل وظيفة الحاكم فى المجتمع الهيدرولوجى على وجه التحديد: إنما هى وظيفة وزارة الأشغال والموارد المائية أكثر منها وزارة الزراعة، وأن أساس «الملك - الفرعون» هى وظيفة محكمة المياه، اذا كانت تلك هى ضرورات وطبيعة البيئة النهرية والرى من الداخل، فينبغى ألا نغفل عاملا مهما خارجيا من حولها، فالبيئة الفيضية - كواحة صحراوية - معرضة لأطماع وغارات الرعاة البدو باستمرار، وهذا فى حد ذاته يستدعى تنظيما سياسيا قويا كما رأينا كما حافلا سجل الغزوات والغارات الرعوية على مصر طوال التاريخ.

فرعون.. وزير الرى

فإذا ما التفتنا مع جمال حمدان إلى مصر القديمة بصورتها الفرعونية.. فستجابهنا هذه الملامح: ملامح المجتمع الهيدرولوجى، إلى حد نادر المثال، فقد عد فرعون ضلعا أساسيا فى مثلث الانتاج إلى جانب الضلعين الطبيعيين: الماء والشمس، وليس صدفة بعد هذا ان كلا من الأطراف الثلاثة قد عبد وأله، فمن ناحية كانت الديانة والميثولوجيا المصرية القديمة تعطى مكانا بارزا لكل من النيل «حابى» والشمس «رع» كآلهة، ومن ناحية أخرى: اذا كان فرعون قد تحول إلى «الملك - الاله» فذلك أساسا بصفته ضابط النهر، بصفته الملك - المهندس، وبصفته بطريقة ما «صانع المطر» البعيد، بل يرى البعض على أساس ان ضبط النهر كان بداية كل شىء: ان حكومة مصر الفرعونية كانت حكومة فنيين «تكنوقراط»، ولم يكن غريبا بعد ذلك أن العقد الاجتماعى كان قائما على الماء: «أعطنى أرضك وجهدك، أعطك أنا مياهى»، ومثل هذا العقد

لا يمكن أن يتصور أو أن يقوم فى ظل زراعة المطر.

واجب اجتماعى وسياسى

بعض مؤرخى التاريخ القديم يفسرون تبجيل واحترام وتقديس الحاكم وطاعته والتفانى فى خدمته على انه واجب اجتماعى وسياسى، وطبع الحياة المصرية بطابع الهدوء والاستقرار والاستمرار، وأبعد بينهم وبين مظاهر العنف والنقمة أو التمرد والقلق وتقلب الأهواء، وأدى ذلك إلى تزكية إحساسهم المتصل بضرورة الانصياع لحكم مركزى مستقر، وأدى أيضا إلى ثبات دعائم ونظم الحكم والادارة والوحدة السياسية فى أغلب العصور التاريخية، ولكن هذه النظرة المقدسة للحاكم لم تمنعه من قيامه بواجباته فى تحقيق العدالة ونشر الأمن والطمأنينة بين الناس والعمل على تحقيق السعادة والرفاهية لهم.

معبودات حقيقية

ومجمل هذه الفكرة، كما يرويها الدكتور رمضان عبده، انه كان يحكم مصر على الدوام ملوك، وان الملوك الأوائل كانوا معبودات حقيقية، قاموا بتنظيم شئون البلاد، وعلموا المصريين الأوائل فنون الحضارة، ووضعوا قواعد ديانتهم ثم ارتفعوا إلى السماء، وخلفهم على العرش ملوك من البشر، غير ان هؤلاء الملوك كانوا بشرا فى المظهر فحسب، اذ كانوا فى الحقيقة صورة مجسمة للمعبودات الحقيقية يدعى «حورس» فإن خلفاءه من الملوك البشر الذين تربعوا بعده على عرش البلاد كانوا يحملون هذا اللقب، الذى أصبح جزءا لا يتجزأ من ألقاب جميع الملوك، وان هذه الطبيعة المقدسة والربانية للمعبود «حورس» تتنزل من الابن إلى الابن.

الأمة الأولى فى التاريخ

كانت مصر هى الأمة الأولى فى التاريخ القديم التى أجبرتها ظروفها الطبيعية على إيجاد حكومة مركزية قوية تسيطر على شمالها وجنوبها تحت حكم ملك واحد، هو سيد البلاد المطلق،

وملك الوجهين البحرى والقبلى، وأغلب الظن ان تقديس الملك جاء نتيجة الصعوبات التى قابلت أبطال الوحدة السياسية للبلاد.. فخرج الكهنة بفكرة تقديس الملك ويرفع قدره بين الناس حتى يصل إلى المرتبة التى تعلو بمركزه كبشر حى ينتمى تارة إلى الجنوب، وتارة أخرى إلى الشمال، ورأوا فى فكرة تقديس الملك الضمان الوحيد لكسب ولاء حكام الأقاليم وعامة الشعب، والضمان أيضا لاستقرار الأوضاع السياسية فى البلاد، ولم تتحقق قدسية الملك إلا على يدى الملك «جسر» أول ملوك الأسرة الثالثة.

●●●

لقد اعتبر المصريون القدماء ملكهم معبودا مقدسا، وأطلقوا عليه لفظ «نثر» أى المقدس، وكانت الشخصية المقدسة التى كان يمتلكها الملك «ميتافيزيقية» وقانونية فى الوقت نفسه، فكان يتمثل بالمعبود «حورس» معبود الملكية، وكان يطلق عليه انه ابن المعبود أو المعبودة وانه من نسل مقدس، وبذرة مقدسة، وخلف مقدس، من بين ألقابه المقدسة العديدة انه «المحبوب» من المعبود، وفى تصورهم أن بعض الملوك كانوا كائنات مقدسة، وكان الملك «امنحوتب الأول» من عدادهم، ويبدو ان «رمسيس الثانى» كان كذلك حتى فى أثناء حياته، ولكننا نجهل السبب الذى دعا إلى هذه الترقية فى نظام وظائف الكائنات.

الخلود فى حياة المصريين

☐ مفاهيم الديانة القديمة ظلت فى وجدان المصرى.

☐ ديانة المصرى القديم.. قريبة من الأديان السماوية جدا.

جاءت الأديان السماوية ـ المسيحية ثم الاسلام ـ فباعدت بين المصريين وبين ديانتهم القديمة، لقد سقط راع وآمون وحورس وكل الآلهة الذين ابتدعهم الفكر المصرى، وهيمنوا على الحياة الروحية آلاف السنين، وعبد المصريون الاله الواحد الذى ليس كمثله شىء.. وانشأوا الكنائس والمساجد بديلا عن المعابد، ورغم هذه القطيعة الحاسمة مع المعتقدات الفرعونية.. فإن بعض المفاهيم الدينية ظلت مستكنة فى الوجدان المصرى، تظهر فى شكل سلوكيات وتصرفات نراها فى الحياة اليومية، وما أكثر الدراسات العلمية الحديثة التى رصدت المؤثرات الفرعونية على القيم والعادات والتقاليد والثقافة المصرية بوجه عام.

ومن أهم تلك الدراسات: البحث الذى قام به عالم الاجتماع الراحل الدكتور سيد عويس عن «الخلود فى حياة المصريين المعاصرين».

وتهدف إلى التعرف على نظرة فئة معينة من القادة الثقافيين فى المجتمع المصرى نحو ظاهرة الموت، ومدى اعتقادهم فى وجود أو عدم وجود حياة بعد الموت، أو حياة فى القبر، أو حياة فى الآخرة، وحقيقةشعورهم نحو الموت حبا أو كرها ونفهم من الدراسة ان المصرى القديم توصل إلى فكرة الخلود، بمعنى استمرار الوجود

الروحى للناس بعد فناء أبدانهم، وتأصلت فكرة الحياة بعد الموت فى نفوس المصريين القدماء، فكانوا يخلدون الروح، ويؤمنون بالقيامة والبعث. وتواصلت هذه العقيدة حتى بعد أن اعتنق المصريون المسيحية والاسلام.

الموت ليس عدما

فالمسيحيون المصريون يؤمنون بالحياة بعد الموت حيث يرجع التراب - أى الجسد - إلى الأرض، وترجع الروح إلى الخالق الذى برأها - ويجمع المصريون المسلمون على ان الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويؤمن المصريون المسيحيون بديمومة النفس، وقيام الأجساد، لأن الأجساد لا تحيا إلا بها، كما يؤمنون بالجزاء الأبدى لأنه الغاية من قيامها.

والشهداء عند المسيحيين المصريين قديسون أبرار، وعند المسلمين أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين مستبشرين. ولأن المصرى القديم كان يؤمن بالحياة بعد الموت: فقد اعتنى بضرورة بقاء الجسد سليما بعد الموت فتوصل إلى التحنيط حتى يظل صالحا لاستقبال الروح (البا) التى تحوم فوق الجنة، أو تطير داخل القبر لتحل فى الجسم.

ولا يعتقد المصريون المسيحيون فى حياة فى القبر، ولكن يلاحظ أن الأرواح لا تنال ثوابها أو عقابها على أثر انفصالها من أجسادها، بل تأخذ عربونا فقط من السعادة اذا كانت صالحة، أو من التعاسة اذا كانت طالحة، حتى يجىء يوم القيامة فتلبس الأرواح أجسادها التى تنال معها ما تستحقه من ثواب أو عقاب. ويقابل هذا عند المصريين المسلمين أن الروح بعد مفارقتها للبدن: تعود إليه فى قبره، لأن فى القبر حياة ولكنها ليست الحياة المعهودة فى الدنيا، بل حياة أخرى غير هذه الحياة، تعاد فيها الروح إلى البدن إعادة غير الاعادة المألوفة فى الدنيا، ليسأل ويمتحن فى قبره عن طريق الملكين: ناكر ونكير.

نعيم أو عذاب

والقبر عند المصريين المسلمين: إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، أى أن الميت يكون فى نعيم أو عذاب، وان ذلك يحدث لروحه وبدنه، ومناقشة الحساب عند المصريين المسلمين: عذاب وهلاك فتشهد أعضاء العبد عليه يوم القيامة، تتكلم الأيدى وتشهد الأرجل والألسنة والجلود.. ومن الأمور التى أثرت أعمق الأثر فى نفوس المصريين القدماء: المحاسبة الأخروية كما حدثت بالموازين حيث يكون الإله «أوزيريس» جالسا فوق عرشه فى نهاية قاعة المحاكمة، وعندما يسود السكون الرهيب: يبدأ الروح فى ترتيل اعترافاته، ولا يعلق «أوزيريس» على ذلك بشىء، ثم يلاحظ الروح وهو يرتعد خوفا وهلعا الآلهة وهم يزنون قلبه فى الميزان الذى يحمله «أنوبيس» ملك الموت، بينما تكون الالهة «ماعت» - إلهة الحق والعدل - ورمزها ريشة خام توضع فى الكفة المقابلة، فإذا تبين ان القلب ليس ثقيلا ولا خفيفا، فإن المتوفى تبرأ ساحته، وعندئذ يسجل «تحوت» حكم المحكمة ببراءته، ويعرض النتيجة على «أوزيريس» الذى يعطى الأوامر لكى يعود القلب إلى المتوفى بعد المحاكمة، ثم يهتف «أنوبيس» لقد فاز بالنصر.. دعوه يسكن مع الأرواح ومع الالهة فى حقول السعداء.

فوق الصراط المستقيم

ويؤمن المسلمون المصريون بأن وزن الأعمال حق، فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت مسموع سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا، وان خف ميزانه نادى الملك.. شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا، ومن تساوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، لا يدخل النار وهو يطمع فى الجنة.

وعند المصريين القدماء، كان يجب على روح المتوفى قبل الوصول إلى الجنة أن تعبر طريقا شاقا تكتنفه المخاطر، والصراط

عند المصريين المسلمين مثل حد السيف المرهف، وأرق من الشعرة، وتكون سرعة المرور على الصراط بحسب قوة الهمة والنشاط للعبادة.

لا يهابون الموت

وفى ضوء انطباعات الدكتور سيد عويس وملاحظاته العديدة فى مجال نظرة المصريين نحو الموت: فهو يهز مشاعر المصريين المعاصرين بعامة، ويزعجهم فيخشونه ويرهبونه، المصريون القدماء لم يشعروا بالخوف الكبير من موتاهم، ولا يخشى المصريون المسيحيون موتاهم، وكذلك المسلمون، ويتجسد ذلك فى سكنى المصريين المقابر حيث يعيشون بطريقة عادية، فضلا عن كون الكثير من هذه الجبانات أماكن لتجارة المخدرات وتعاطيها، والاتجار فى الأكفان، وعظام الموتى، وممارسة الدعارة.

ويلاحظ ان الاحتفالات المسرفة بدفن الموتى، وإحياء موالد الأولياء والقديسين بصورة ينفر منها التفكير الدينى السليم، أو التفكير العلمى، كما ينفر منها الذوق العام، وزيارة الأحياء للموتى فى قبورهم، أو فى أضرحتهم فى المواسم والأعياد، وارتباط الأحياء بالموتى وهم فى حكم العدم، ارتباطا واضحا، وتلقى الوحى منهم فى بعض الأمور، والالتجاء إليهم فى أخرى، وانتظارهم حتى يبتوا فى أمور حياتهم، سواء كانت أمورا عادية أو غير عادية من واجبهم أن يبتوا فيها: كلها عادات وتقاليد تمارس فى مجتمعنا المعاصر.

إلى الإمام الشافعى

وهنا نتذكر الدراسة الشهيرة التى قام بها الدكتور سيد عويس عن الرسائل التى يبعث بها المواطنون فى ضريح الامام الشافعى يعرضون فيها مشاكلهم ومتاعبهم ويطلبون من الامام التدخل لانصافهم ورفع الظلم عنهم، وذلك فى مقابل الأموال التى يضعونها فى صندوق النذور.. ويعلق الدكتور عويس بأن الناس

يعقلون ذلك - والمسلمون منهم خاصة - على الرغم من أن الاسلام ينهى عن الاعتقاد فى قبور الصالحين والأولياء، وأنها تنفع أو تضر أو تقرب إلى الله تعالى أو تقضى الحوائج بمجرد التشفع بها «فإن ذلك من عادة المشركين وقد يفضى ذلك إلى ما كانت عليه الأمم السابقة من عبادة الأوثان، وفى المنع من ذلك كلية قطع لهذه الذريعة المؤدية إلى فساد العقيدة».

وهم يعقلون كل هذا على الرغم من ان الدين الاسلامى يعتبر نذر النذور من أعمال الجاهلية، ومخالفة لدين الله ورسوله «ولو عرف الناذر بطلان ذلك ما أخرج درهما لانه اضاعة للمال، ولا ينفعه، ولا يدفع عنه ضررا بل فيه المخالفة والمحاربة لله تعالى ورسوله، ويجب رد المال إلى من أخرجه، وقبضه حرام، لأنه أكل مال الناذر بالباطل، وفيه تقرير للناذر على قبح اعتقاده وشنيع مخالفته، فهو كحلوان الكاهن.. ومهر البغى».

الديانة المصرية: توحيد أم تعدد؟!

□ المصريون عرفوا الإله الواحد منذ بداية التاريخ.

□ السحر.. كان له أثر خاص فى عقيدة المصريين.

هل كانت الديانة المصرية القديمة وثنية أم وحدانية؟
لقد عبد المصريون آلهة متعددة منذ كانت مصر مقاطعات مستقلة قبل توحيد القطرين، وكان لكل مقاطعة معبودها الخاص، وترمز إليه رمزا ماديا حسب تصور كل مقاطعة، وكانت المعبودات تتفاوت فى المكانة والقدر، فإلى جانب المعبود العظيم كانت تظهر معبودات أقل أهمية، مثلما كان الفرعون يتربع على قمة الهرم الاجتماعى ومن حوله وزراء وقادة وأمراء أقل شأنا.

على أن أهم وظيفة للمعبود نحو أتباعه - كما يقول سليم حسن - هو أن يمنحهم أو يحرمهم الأشياء الضرورية للحياة العامة، أما الملوك فيطلبون منه الحياة والصحة والثبات والنصر والسعادة، والواقع ان كل الآلهة نشأت من طينة واحدة ولا يختلف بعضها عن بعض إلا بمعابدها وبالرمز الذى كان يخصص لكل منها، وبالرسميات التى كانت تعمل لكل عند اقامة الشعائر الدينية، وبالأعياد التى كان يحتفل بها، وفى النهاية بالأسماء والألقاب التى تميز كل إله عن غيره.

والآلهة عند قدماء المصريين كائنات معينة معروفة اتخذ كل منها شكلا ثابتا باقيا لا يتغير، وقد انفصلت هذه الآلهة عن عالم

الأشباح أو الأرواح التى يخطئها العدو، وهذه الأرواح والأشباح «الجن» تلعب دورا مهما عظيما فى مظاهر الديانة المصرية، وتبرز بدورها الهام فى السحر الذى كان له تأثير خطير جدا فى العقائد الدينية فى كل عصور التاريخ المصرى، وكانت الحيوانات من المظاهر المحسوسة التى تتجلى فيها هذه الأرواح أو الأشباح، وهى اما حيوانات منزلية أليفة مثل البقرة والكبش والقطة، أو متوحشة ضارية تفتك بالانسان فيخاف شرها مثل التمساح والأسد والأفعىَ. ولم تكن عبادة الأشجار نادرة، فكانت شجرة الجميز مأوى للالهتين «نوت» و«حتحور».

طبيعتان للآلهة

وكان الإله يظهر عظمته وبطشه وجبروته فى كل أمور الحياة الظاهرة التى لم يكن فى مقدور الانسان أن يتغلب عليها، ولذلك كانت الآلهة تعمل كأنها رؤساء أو ملوك فى آن واحد، وذلك حسب أهوائهم ومزاجهم، ولذلك كان للآلهة المصريين طبيعتان فكانوا من جهة يظهرون بأنهم ارادة حرة خالدة، ومن جهة أخرى كأنهم قوى طبيعية خاضعة لدورة الفلك وظواهره.. وعلى ذلك كانوا فى الوقت عينه قوة ايجابية وسلبية.

ويرى سليم حسن ان الديانة المصرية كانت فى بدايتها مصطبغة بصبغة مظلمة قاتمة، اذ نجد معظم الآلهة تتألف من كائنات خبيثة مؤذية تبعث دائما على الخوف والقلق، وكانت المعبودات المتوحشة تعبد بكل اخلاص وتفان، كالثعبان والذئب والتمساح، ولا غرابة اذا كنا نجد فى صلوات الأموات ودعائهم، وكذلك فى التعاويذ السحرية التى تستعمل فى الحياة العامة أن دنيا البشر، وكذلك عالم الأرواح، وكانت آهلة بالقوى الشريرة. ولكن ما لبثت المدنية المصرية أن خطت نحو الرقى الفكرى والأدبى والمادى، مما جعلهم يتركون ظهريا كل الشعائر والطقوس الوحشية ولم يبق منها إلا رموزها، والدمى التى كانت تدفن مع المتوفى، ومع

ذلك ظل المصرى محافظا على الأساطير العتيقة، ويرجع السبب إلى انه بطبعه كان محافظا لا ينسى، فحافظ على التقاليد القديمة مهما كانت سخيفة غير مقبولة.

علماء المصريات يقولون

ولعل هذه المحافظة هى التى وسمت الديانة المصرية بسمة التعدد وعبادة الأوثان، وقد شغل هذا الموضوع أذهان علماء المصريات الأجانب منذ فك أسرار اللغة المصرية فى القرن التاسع عشر، وظهرت نخبة من المؤرخين تخصصوا فى الديانة المصرية فى طليعتهم العالم الألمانى «أدولف أرمان» الذى لايزال كتابه «ديانة مصر القديمة» مرجعا مهما. والعالم السويسرى «اريك هورونونج» الذى قدم للمكتبة العالمية كتابا مهما قام على ترجمته الدكتور محمود ماهر طه، ومصطفى أبوالخير.. وجمع فيها خلاصة آراء المؤرخين الذين اختلفوا حول محور الديانة المصرية، وهل كانت تؤمن بالتعدد أم بالوحدانية؟

ففى منتصف القرن ١٩، وبعد فترة الركود التى تلت الوفاة المبكرة للعلامة شامبليون: استهل العالم «عمانويل دى روجيه» فترة جديدة ومستمرة من البحث فى علم المصريات الفرنسى، ولعله كان النصير الأول المؤيد بلا تحفظ للاعتقاد الراسخ بأن الديانة المصرية كانت توحيدية فى الأصل والأساس، وتقوم على وحدة «الكائن الأسمى» وأبديته وقدرته الكلية التى لم تنهزم أبدا أمام الايمان بآلهة متعددة وفى محاضرة له عام ١٨٦٩ أعلن:

أنا قلت «إله» وليس «الآلهة» لأن الخاصية الأولى للديانة المصرية هى وحدة «الإله» التى تعبر عنها بكل قوة حين تقول: الاله الواحد، الفرد، الصمد، لا شريك له، هو الكائن الأوحد، الحى فى الحقيقة - أنت الواحد، وملايين الكائنات انبثقت منك - خلق كل شىء، وهو الوحيد الذى لم يخلقه أحد.. لقد سادت فكرة واحدة، فكرة الإله الفرد الأول، الجوهر الواحد الدائم فى كل مكان، الموجود بذاته، ولا يمكن الوصول إليه.

النبرة التوحيدية

لقد بنى «دى روجيه» رأيه على أساس التعبير الدقيق للنصوص المصرية ذات «النبرة» التوحيدية والتى يسبق بها تعاليم المؤسسين مؤخرا لديانات البشر، وتعطى حججه، وقوة رأيه المقنع تأكيدا مسارا للرأى الذى كان واسع الانتشار بين مثقفى القرن «١٩» بأن عقيدة التوحيد قد سبقت الايمان بتعدد الآلهة.

وتبنى مؤرخ الديانات السير «بيتر لوباج ريتوف» وجهات نظر زميله الفرنسى، وأضاف: ان الحقيقة المؤكدة أن أسمى الأفكار فى الديانة المصرية ليست هى نتيجة لعملية تطوير أو حذف من المجموع الاجمالى، ان صفوة الأفكار الدينية يمكن إقامة الدليل على قدمها، والعنصر الذى يسميه «ريتوف» رفيعا جليلا هو عنصر التوحيد، وكان واضحا لديه انه كان أرقى أشكال الديانة، وهو يعتبر ان الآلهة الصغيرة فى صفاتها وأشكالها هى انحطاط فكرى متأخر قليل الأهمية بالنسبة للجلال البدائى الساعى للايمان بالواحد الأحد، ولم يكن اهتمامه الأساسى موجها لدراسة ما تريد النصوص المصرية أن تقوله عن الاله والآلهة، وإنما لتقدير العقائد المصرية، وتوجيه دفاع مباشر ضد تشويهها والاساءة إليها، وفى هذا التقويم كان الحكم لصالح جميع مظاهر ونزعات الوحدانية، ومعارضا لصور الايمان بآلهة متعددة، لقد صاغ «ريتوف» شرحه للديانة المصرية القائمة على التوحيد بوضوح مؤكد، وأسلوب جدير بالاعتبار.

صفات توحيدية واضحة

وفى السبعينيات من القرن «١٩» قدم العلماء الفرنسيون بالاجماع التفسير التوحيدى للديانة المصرية مع اختلافات بسيطة جدا، فقال «جريبو»: ان التوحيد لا يقل الجدل، وكتب «بييريه»: تبدو الديانة المصرية متعددة الآلهة، ولكنها كانت توحيدية بالضرورة، ولا يمكن أن تكون غير ذلك، لأن «الإله واحد».. وإلا فلا

وجود له. وان الايمان بآلهة كثيرة هو انكار للإله ما لم ينظر إليها باعتبارها «رمزية صرفة» فهى أدوار أو وظائف للإله الأعلى المفرد الخفى، الذى تحوى النصوص الدينية المصرية له العديد من الصفات التوحيدية الواضحة.

ويرى «فرانسو جوزيف شاباس» ان الآلهة المتعددة هى مجرد مظاهر للإله الواحد، بينما يفترض «أوجست مارييت» ان هناك إلها فردا، خالقا، مخلوقا بذاته، لا تدركه الأبصار، خفيا مدخرا لأولئك الداخلين فى قدس أقداسه، وكذلك نجد «ماسبيرو» خليفة «مارييت» فى ادارة مصلحة الآثار المصرية يتحدث عن محاضرة مبكرة خاصة بالأدب الدينى المصرى عن «الإله غير المادى» الذى أصبح جسدا بدرجة ثانوية فى تعدد المعبودات، وظل «يوجين ليفور» يؤمن لعدة سنوات بعقيدة التوحيد المصرية. ولكنه يرى أنها اكتسبت شكلا من أشكال وحدة الوجود، وهو المذهب القائل بأن الله والطبيعة شىء واحد، وبأن الكون والبشر ليسوا سوى مظاهر للذات الإلهية.

أما أكبر علماء المصريات الألمان «هينريش بروكش» فقد اعترف عن اقتناع بأن المصريين قد عبدوا فى تلك العصور السحيقة «الإله الواحد المتعذر وصفه أو ادراكه.. الأبدى فى صفاته الأسمى».

العامية: هيروغليفية.. أم عربية؟

□ هل تعلم أنك تتكلم الهيروغليفية؟!.

□ أمتد تأثير الهيروغليفية حتى الانجليزية!.

شغفني كتاب صدر حديثا عنوانه: اللهجة العامية وجذورها المصرية وهو من نوع الدراسات الشائقة والشائكة على حد تعبير المؤلف، أما كونها شائقة فلأنها تبحث فى أصول الكلمات والأسماء والأفعال التى ننطقها دون أن ندرى انها من اللغة المصرية القديمة التى كنا نتكلمها قبل الفتح الاسلامى، ولكنها تصبح شائكة - فى نظرى - عندما تبالغ فى تجذير بعض المصطلحات العربية الدارجة وتفتعل لها نسبا هيروغليفيا فمن ذا الذى يزعم ان مدينة القاهرة التى بناها الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى عام ٣٥٨ هجرية، وأطلق عليها الاسم العربى المشتق من اسم النجم «القاهر»: إنما هو اسم مصرى قديم «كاهى رع» أى موطن الإله رع«!!» رغم ان العلاقة بين المصريين والآلهة الفرعونية انقرضت بحلول الأديان السماوية. ولم يكن بناة القاهرة على أدنى علم باللغة المصرية القديمة.

ان حماستنا لحضارتنا الفرعونية لا ينبغى أن تدفعنا إلى المغالاة، ونزع الأصل العربى عن كلمات دخلت قاموس المعاملات اليومية إلى جانب الكلمات ذات الجذور المصرية القديمة، والتى بذل المؤلف جهودا طيبة فى جمعها وتفسيرها وتحليلها ليؤكد قدرة اللسان المصرى على حفظ القديم

والجديد فى خزانته اللغوية الثرية.

موروثات اللغة المصرية

وعرفت من مقدمة الكتاب ان مؤلفه المهندس سامح مقار له باع طويل فى مجال الدراسات القديمة، وسبق له أن أصدر عدة مؤلفات فى هذا السياق منها: أصل الألفاظ العامية من اللغة المصرية القديمة، وعبقرية اللغة العربية، وانه بصدد وضع معجم هيروغليفى قبطى عربى، وكتاب عن الجنس عند الفراعنة، وعبقرية اللغة الهيروغليفية ومثل هذه الدراسات تسير على الدرب الذى ارتاده العلامة أحمد كمال باشا، أول مصرى يخوض علم المصريات، وكشف عن الموروثات الماثلة فى حياة المصريين المعاصرين سواء فى مجال اللغة أو فى الحياة المادية والأدبية.

وقد تعقب الأستاذ سامح مقار التعبيرات والأصوات التى ننطق بها، ويقول ان محاولته غير المسبوقة أثبت فيها ان جميع الأصوات المستخدمة فى حياتنا اليومية ورثناها من المصريين القدامى، وضرب أمثلة شائقة مثل كلمة «اخص» التى تعبر عن وصف شائن، فهى من أصل قبطى بمعنى «شيطانى» وكلمة «اش» للتعبير عن الاعجاب، فهى الأخرى من أصل قبطى وتعنى: يستطيع، يمكن، يقدر، وأضيف من عندى إلى اجتهاد المؤلف أن كلمة «أش» بالهمزة المفتوحة تستخدم فى ريف الوجه البحرى للدلالة على الاعتراض والاشمئناط والامتعاض.

وفى الصعيد يطلقون كلمة «حنتوسة» على السحلية، وأصلها فى الهيروغليفية «حنتاسو» وفى القبطية «حانتوس» وعندما تقع المرأة الريفية فى ورطة تقول «ياحومتى» وأصلها فى القبطية «حومت» بمعنى خجل، خزى، عار، فيكون المعنى الدارج: ياعارى.

السبع دوخات

وعندما يشعر المرء بدوار يقول انه «دايخ» وأصلها فى المصرية القديمة «تنخ» ومعناها: يسكر، وتحورت فى القبطية إلى «تيخى»

وحلت الدال محل التاء، وصارت «دوخة» وتعبر عن السكران عندما يدوخ، ومنها السبع دوخات، ودوخينى ياللونة، ولاتزال الكلمة تنطق بحروفها الأصلية عندما نصف شخصا بأنه «يأكل ويتخ».

وأضيف ان أهل الريف يصفون الشخص المفرط فى السمنة بأنه «تخة» أو «تختوخ» فى حالة تدليل الفتاة البدينة حتى تكف عن النهم.

ونحن لانزال نصف الشيء التافه أو المزيف بأنه «سكة» ويعود بها المؤلف إلى كلمة «سك» المصرية القديمة بمعنى القديم أو عديم الفعالية، وان كنت اعتقد انها مشتقة من «السكة» المزيفة أى العملة المعدنية المخلوطة بمعادن خسيسة.

الحالة جيم

وما أكثر الجوانب الشيقة فى بحث الأستاذ سامح مقار، ولا يمنعنا الاعجاب به من أن نعارضه فيما ذهب إليه من نسبة كل تعبير عربى إلى أصل مصرى قديم، فهو على سبيل المثال، يصف تعبير «الحالة جيم» بأنه بحث فى جميع اللغات عن تفسير يشفى غليله، فلم يجد إلا فى الهيروغليفية حيث كلمة «جمو» وترجمتها "Moaming" بمعنى حزن أو حداد ثم أصبحت تعبر عن الفقر وضيق السعة.

وأقول ان الأمر لم يكن يتطلب افراغ الجهد فى البحث عن أصل هيروغليفى. لأن تعبير «الحالة جيم» تعبير أمنى يضع الحالة الأمنية فى مراتب أ، ب، ج. والحالة الثالثة تعنى ذروة التأهب لمواجهة الاضطرابات.

ومن أمثلة ذلك: قوله ان كلمة «طيب» ليست عربية، وانها مشتقة من كلمة «توبى» المصرية القديمة بمعنى عطوف ونقى السريرة، مع ان كلمة «طيب» وردت فى القرآن الكريم بمشتقاتها طيبون وطيبات وطوبى فى خمسين آية قرآنية كريمة.

أما أغرب اجتهادات المؤلف فقوله ان لفظة «ابن» ليست عربية وإنما هى مصرية قديمة، مع أنها وردت فى القرآن الكريم عشرات

المرات مقترنة بوصف المسيح بأنه «عيسى بن مريم» وكذلك قوله ان كلمة «أم» مصرية قديمة، وعربيتها «والدة» وينسى أن كلمة أم وردت فى القرآن الكريم بأكثر من معنى، فقد تحدثنا عن «أم موسى» و«أم عيسى» و«أم القرى» أى مكة و«أم الكتاب» أى الفاتحة. وجاءت منها مشتقات: أمة وأمم وإمام وأئمة وأمى وأميون.. الخ.

وفى قوله ان كلمة «برق» بمعنى يلمع، مصرية قديمة، قول فيه تعسف ولم يذكر لنا النطق القديم لهذه اللفظة، التى جاءت فى القرآن الكريم عن الظاهرة الطبيعية التى تصاحب الرعد «هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا.. وينشىء السحاب الثقال» وبمناسبة الثقال ينزع المؤلف عن كلمة «ثقيل» أصلها العربى، وينسبها إلى أصل مصرى قديم بمعنى كتوم أو متحفظ، ودليله على ذلك أن سعاد حسنى تصف فتاها بأنه «واد تقيل» أما القرآن الكريم فقد ذكر كلمة ثقيل، وأثقال ومثقال ذرة.

وحتى الكلمات المغرقة فى العربية، جعل لها المؤلف أصلا مصريا قديما، ويقول ان كلمة «تباع» وهو الشخص الذى يتبع سائق السيارة النقل، أصلها «تب - ماع» بمعنى حارس أو مرافق.. ثم أصبحت «تباع» عند العامة، وينفى علاقتها بالفعل «تبع». رغم انها وردت فى القرآن الكريم فى خمس آيات فى صيغ مختلفة. والقرآن الكريم هو الأصل الذى نهلت منه المعاجم التى وضعت قواعد اللغة العربية إلى جانب الشعر العربى القديم.

الهيروغليفية فى الإنجليزية

ومن الفصول الممتعة فى الكتاب: الفصل الذى يتعقب الكلمات التى ورثتها اللغة الانجليزية من اللغة الهيروغليفية، ويقول الباحث ان عملية النقل تمت ربما عن طريق التوراة، أو النصوص العربية، أو اللغتين الاغريقية واللاتينية. ومنها **Egypt** «مصر» **pharoan** «فرعون»، واحة "**Oasis**" وابنوس "**Ebony**" وورق "**paper**" وأبوقردان "**Ibis**" وكيمياء "**chemistry**".

ولفظة "**sky**" بمعنى يحلق عاليا، أصلها فى المصرية القديمة

«قاى» ومعناها العالى أو الطويل أو المرتفع، ولفظة "sue" بمعنى يقاضى أو يرفع دعوى، هى فى الهيروغليفية «يو» بمعنى شكوى وعند وضع السين فى أولها تعنى يشكو وهى نفس اللفظة الانجليزية بحذافيرها، ولعبة "tennis" جاءت نسبتها إلى مدينة «تنيس» التى كانت مشهورة بصناعة نوع من وبر الصوف الرقيق يغطى الكرة وطائر "Ibis" هو أبوقردان المقدس عند الفلاح المصرى، ويدعى «هب» بمعنى أبومنجل وأبوقردان، وفى القبطية «هيبوى» وقد تحولت إلى Ibis فى الانجليزية.

ولفظ "wave" بمعنى موجة يقابلها فى الهيروغليفية «واو» ولا تختلف عنها سوى استبدال حرف الواو بحرف "v" ونفس الاشتقاق تجده فى كل اللغات الأوروبية. وكلمة "seat" أى المقعد هى فى الهيروغليفية «ست». وكلمة Gum أى «لبان» هى فى العبرانية لبونة، وفى الانجليزية gum وقيل ان معناها أبيض، وهى عبارة عن صمغ عطر أبيض، حريف الطعم فتنبعث منه رائحة زكية، وأصل الكلمة مصرى قديم «قميت» بمعنى صمغ أو علكة أو راتنج، فإذا حذفنا التاء وخففنا الياء تصبح «قم» التى هى جم فى الانجليزية.

وكلمة "Ocean" بمعنى المحيط فى اللغة العربية، هى فى اللغة المصرية القديمة «شىء» بمعنى: يحوط، يطوق كما ان «شنو» تعنى دائرة أو محيط أو خرطوش أى «تحويطة» حتى انهم دعوا المحيط - المفترض انه يحيط الأرض - بالكلمة «شن - ور» وهى حرفيا المحيط الكبير. كما دعوا رجال الحاشية «شنوت» أى المحيطين بالملك.

وكلمة "Marime" بمعنى بحرى وأصلها فى المصرية القديمة «مو» بمعنى قناة أو مجرى مائى، وقد جاء الجذر لكل ذى علاقة بالماء مثل كلمة «مريت» بمعنى الساحل أو ضفة النهر، ومنها جاءت كلمة «الدميرة» وهى فيضان الماء وقد انتقلت «مر» الهيروغليفية إلى اللاتينية "Mare" بمعنى بحر ومنها لباقى اللغات الأوروبية.

حقوق المرأة فى حالة الزواج والانفصال

□ تعدد الزوجات.. للملوك والأغنياء.. وإذا كانت الزوجة عقيمة.

□ المصريون القدماء عرفوا.. المهر والمأذون وحفلات الزواج ومؤخر الصداق قبل التاريخ.

□ المصرى القديم أعطى لزوجته كافة الحقوق.

كانت «الأسرة» هى اللبنة الرئيسية فى الكيان الاجتماعى المصرى، ولذلك نشأ مجتمعا قويا متماسكا، وهو الأساس المتين الذى قامت عليه الدولة المصرية منذ نشأتها الأولى، اذ لم يكن من المتصور قيام دولة قوية راسخة الأركان على مجتمع هزيل أو مفكك. وكان الزواج هو الرابطة المقدسة التى تجمع بين الرجل والمرأة. وكان البيت المصرى هو البوتقة التى انصهرت فيها العواطف بين أفراد الأسرة، وكانت العلاقة بين الزوج والزوجة مثالا للتراحم والمحبة. وكان المصريون القدماء يفضلون الزواج المبكر لحماية الشباب من الوقوع فى الخطيئة، وللتعجيل بتكوين أسرة جديدة ما ساعد على زيادة السكان.

وكان الرجل المصرى يكتفى بزوجة واحدة، ولم يكن تعدد الزوجات مباحا إلا عند الملوك وأفراد الطبقة الارستقراطية، وفى بعض الأحوال كانت الزوجة تسمح لزوجها بالزواج من أخرى اذا كانت هى عقيما، فلا تمانع من أن تعطيه حق الانجاب من غيرها، ومع أن المصريين القدامى كانوا يرحبون بالأطفال، ويعتبرونهم نعمة من نعم الرب، إلا ان الأمر لم يكن يخلو من ميلهم إلى انجاب الذكور، ولعل السبب فى ذلك هو رغبة الأب فى انجاب أولاد يساعدونه فى أعمال الزراعة.

المرأة لا تنسى زينتها

وكان نصيب المرأة فى الحياة المنزلية كبيرا، اذ عليها أن تقوم بكل الأعمال المنزلية من غسيل وطبخ وطحن الحبوب وإعداد الخبز، ورغم ان هذه الأعمال كانت تمتص جزءا كبيرا من نشاطها إلا أنها لم تكن تهمل زينتها حتى اذا عاد زوجها فى آخر النهار وجدها وقد زينت شفتيها باللون الأحمر وزججت حاجبيها، ووضعت الكحل على رموش عينيها فى خط أفقى يمتد حتى الصدغ لكى تجعل العيون أكثر تألقا واتساعا، ثم تدهن شعرها بالزيت وتعطره بالدهون العطرية، وقد تجعل من شعرها ضفائر صغيرة، وتزين أصابعها بالخواتم، وأرجلها بالخلاخيل.

حرية اختيار العروس

وكان الزواج يتم بناء على رغبة متبادلة بين الفتى والفتاة، وكان الشاب يتمتع بحرية كبيرة فى اختيار شريكة حياته، وقد يتقابل المحبان ويتفاهمان على الزواج، ثم يذهب الفتى إلى بيت أبيها ليخطبها منه، فإذا وافق الأب قدم الخطيب هدية إلى فتاته غالبا ما تكون سوارا من الذهب، وتسمى «هدية البكارة» وبعد ذلك يتم الاتفاق على تحديد يوم الزفاف وانتقال العروس من بيت أبيها إلى بيت عريسها، وعلى العروسين أن يتواجدا ـ ومعهما الأقارب والشهود ـ أمام موظف حكومى لقيد أسمائهما مع تسجيل عقد الزواج، وبعدها يذهب العروسان وأقاربهما إلى معبد المعبود المحلى حيث يقومون بتقديم القرابين وتلقى البركة من كهنة المعبد، مما يسبغ على الزواج صبغة دينية. وبعدها يأوى العروسان إلى عش الزوجية لبناء حياة زوجية جديدة.

بنود عقد الزواج

وكان عقد الزواج يتضمن حقوقا للطرفين، وينص على تنظيم حق كل منهما فى حالة الفراق أو الطلاق أو الانفصال، حتى ان المؤرخ اليونانى ديودور الصقلى أعرب عن دهشته من الحقوق التى

كانت تتمتع بها الزوجة المصرية، فى الوقت الذى كانت فيه المرأة اليونانية تجر من رقبتها بحبل قصير وكأنها من الدواب« !!»

وقد نشر الدكتور رمضان عبده على فى كتابه «حضارة مصر القديمة» نص عقد الزواج وملحقاته ويتكون من عشرين بندا.

● التاريخ: ويبدأ العقد بتاريخ تحرير عقد الزواج ويشمل اسم الملك الحاكم ثم اسم الشهر، واسم الفصل، والسنة.

● الاشهار: فيقول فى العقد: يعلن.. يشهد.. يتحدث.. الخ.

● طرفا العقد: الزوج: يذكر اسمه واسم أبيه واسم أمه وأصله ان كان مصريا أو أجنبيا أم مولودا فى مصر من أصول غير مصرية، ثم يذكر وظيفته، والزوجة تذكر اسمها واسم أبيها واسم أمها.

● بند الزواج: هناك أكثر من طريقة للتعبير عن هذا البند، فيقول الزوج: «لقد اتخذتك زوجة، وللأطفال الذين تلدينهم لى كل ما أملك، وكل ما تلدينهم من أطفال هم أطفال لى.. ولن يكون فى مقدورى أن أسلب أيا منهم أى شىء مطلقا لأعطيه لابن آخر، أو إلى أى شخص فى الدنيا».

● المهر: وهو هبة يعطيها الزوج لزوجته، وهو هدية نقدية أى وزن من الذهب، وتكون مصحوبة أحيانا بكميات من الحبوب، ومع مرور الوقت أصبحت هذه الهدية صورية، أى ان الزوجة لا تحصل عليها إلا فى حالة الانفصال وتعتبر مساعدة مالية لها.

● المعيشة: يتعهد الزوج: «وسأعطيك من النبيذ والجعة والزيت ما يكفى لطعامك وشرابك كل عام، وستتضمنين طعامك وشرابك الذى سأخصصه لك شهريا وسنويا، وسأعطيه لك أينما أردت، واذا تركتك أعطيتك خمسين قطعة من الفضة، واذا اتخذت لك ضرة أعطيك مائة قطعة من الفضة».

● الضمان: فيمنح الزوج زوجته سلطة كاملة، وتفويضا وتوكيلا شاملا فى كل ما يخص حقوقها كزوجة مع توفير الطعام والكساء لها، ويقول الأب: «تناولى عقد الزواج من يد ابنى كى يعمل بكل

كلمة فيه، اننى موافق على ذلك». ويوقع الزوج، ويقر بأنه سوف يعمل بكل كلمة جاءت فى هذا العقد، وانه موافق على كل بنود العقد.

بند الانفصال

الأول: ويذكر فيه أسباب الانفصال، فيقول الزوج: «اذا طلقتك وكرهتك وأحببت امرأة أخرى، فإننى سوف أدفع لك أوزانا من الذهب أو الفضة المتفق عليها بالاضافة إلى المهر المذكور أعلاه، أما اذا كان الانفصال من جانب الزوجة فيقول الزوج:

الثانى: ويذكر فيه للزوجة «اذا كنت أنت التى ترغبين فى الرحيل أو ترك المنزل أى أنت التى تطلقينى أى تهجرينى كزوج، فلك الحرية فى الانفصال». ويقول الزوج فى احدى الوثائق: «لقد طلقتك كزوجة واننى مبتعد عنك طبقا لقانون الزواج انه أنا الذى قال لك اتخذى لنفسك زوجا، وليس لى أى ادعاءات قانونية ضدك بصفتك زوجة من اليوم فصاعدا، مع الالتزام وبدون تقاضى وبدون أى خداع».

● حماية الأولاد: اذا كان الانفصال من جانب الرجل، فإنه يعطى الزوجة باسم الأطفال الصغار «أو الذين سيولدون اذا كانت حاملا» كل ما يملك من أوزان ذهب وفضة وموارد غذائية وأملاك أخرى يكون قد حصل عليها أثناء زواجه، وفى هذه الحالة لا تكون الزوجة مالكة لهذه الأملاك، ولكن تعتبر مديرة أو مشرفة أو وصية عليها لصالح الأولاد، ويتعهد الزوج بأن الأولاد المولودين من صلبه هم سادة كل شىء يمتلكه، وكذلك كل ممتلكات الأم والأب ويقر بأن ابنه الأكبر هو سيد كل شىء يملكه.

● بند القسم: أى يقسم بأنه لن يقوم بأى ادعاء ضدها، ويقول: لن أتمكن من تأدية قسمى ضدك أمام المعبود أو أمام الفرعون ابتداء من هذا اليوم وما بعده، أو «القسم الذى سيؤديه شخص ضدك أو ضدى فى المحكمة لكى تؤديه أنت أو أؤديه أنا بسبب

قانونية كل الكلمات المذكورة أعلاه».

● الممتلكات المشتركة: فكما للزوجة مملتكات، كان للزوج أيضا بعض الممتلكات التى كان يشتريها أو يديرها بنفسه، وكانت هذه الممتلكات مشتركة بينهما، وكان الزوج يأتى بالثلثين، والزوجة بالثلث الباقى، وقد يكون للزوجة ملكية خاصة ورثتها من زوج سابق، من حق الزوج الثانى أن يشاركها فيها، فإذا توفى أحدهما كان من حق الآخر الانتفاع بنصيب المتوفى، واذا تزوج الرجل من امرأة أخرى بعد وفاة زوجته الأولى: عليه أن يخصص ثلثى الأموال التى كان يشارك فيها زوجته لأولاده من زوجته الأولى، وان يستبقى لنفسه الثلث الباقى، كما كان من حق الزوجة ثلث هذه الأموال اذا توفى زوجها، والثلثان الباقيان لأولادهما من زوجها.

● التعويض: فى حالة الانفصال من جانب الزوج أو الزوجة تمنح الزوجة التعويض الذى تريده، وفى حالة عدم انجاب الزوجة فإنها تمنح تعويضا بسيطا، وهى تعطى للزوج بواسطة زوجته أو بواسطة أبيها، ويقوم الزوج باستثمارها أثناء الزواج، ولكن اذا حدث انفصال فمن حق الزوجة أن تستردها.

● كاتب العقد: يحرر هذا العقد كاتب رسمى ويسجل اسمه واسم أبيه.

● الشهود: يذكر كل شاهد اسمه واسم أبيه ومهنته، وكان يشهد على العقد ستة عشر شاهدا من رجال القرية أو الحى، وتسجل أسماؤهم وأسماء آبائهم وأمهاتهم ووظائفهم ومهنهم، وكان ولى أمر العروس ينوب عنها فى التوقيع على العقد. وبعد التوقيعات يحفظ عقد الزواج فى الأرشيف تحت مسئولية مشرف عام السجلات الرسمية للدولة.

الفرح والمرح فى حياة أجدادنا

- □ اخناتون.. محرر الفن المصرى من القيود.
- □ من الفراعنة إلى الآن.. المصرى «طول عمره» «أبن نكتة».
- □ الموسيقى.. تضبط ايقاع الحياة عند الفراعنة.

لو تفرست فى ملامح أجدادك المنقوشة على جدران المعابد والمقابر، فسوف تصدمك ملامح التجهم والجدية والكآبة المرسومة على الوجوه، حتى ليخيل إليك أن أجدادنا كانوا فى حزن دائم ولم يكونوا يعرفون المرح والنكتة والغناء والموسيقى والرقص. والحقيقة ان الفنان المصرى تعمد هذه الجدية والجهامة لكى تتناسب مع وقار المعابد والمقابر، أما الحقيقة فهى عكس ذلك تماما، فقد كان المصرى القديم «ابن نكتة» ولا يكف عن الغناء فى أى مكان، ويحب الرقص ويستمتع بالموسيقى. ويجد فيها ضرورة تعوضه عن الشقاء الذى يبذله فى العمل طيلة النهار، ولم يتحرر الفنان المصرى من هذه القيود إلا فى عصر اخناتون الذى حرر الفنون من القيود والتقاليد القديمة، وجعل الفرعون يداعب أولاده ويمزح مع زوجته ويعزف معها على «الهارب» والصورة التى يقدمها لنا المؤرخ محمد جمال الدين مختار تعطينا صورة ممتعة عن الحياة الاجتماعية المصرية وكلها طرب وموسيقى وغناء، صحيح لم يكن هناك كباريهات فى شارع الهرم، ولا مراقص فى شارع عماد الدين، ولكن كان فى كل بيت من بيوت العلية فرح ورقص وموسيقى وغناء..

لم يقنع سراة المصريين بما كان يقام فى الأعياد من حفلات،

ولكنهم كانوا يخلقون الفرص التى تهيىء لهم إقامة المآدب والولائم ومجالس السمر والحفلات الخاصة، وطالما شهدت منازل هؤلاء الأثرياء ولائم رائعة يدعى إليها عشرات الصحاب والخلان والجيران لقضاء «يوم سعيد» يتجاذبون خلاله أطراف الحديث، ويتناولون أطايب الطعام، ويشربون النبيذ والبيرة، ويستمتعون بسماع الموسيقى والطرب ومشاهدة الرقص، بينما يقوم خدم المضيف بالطواف على الضيوف حاملين فى أيديهم صحاف الطعام وسلال الفواكه، ويملأون لهم أقداح الشراب، ويقدمون لهم الزهور والرياحين ليتوجوا بها شعورهم أو يحيطون بها أعناقهم ويضمخونهم بالدهون والعطور الزكية.

وكان الاختلاط سائدا بين المتزوجين، أما العزاب - سواء من الشباب أو الفتيات - فيجلسون فى صفوف منفصلة، مكتفين بالنظر والمشاهدة دون اختلاط بالمتزوجين.

ترف وبذخ ومتعة

وكانت تبدو فى هذه الحفلات الخاصة - خاصة فى عصر الدولة الحديث حيث ازداد ثراء المجتمع المصرى - مظاهر الترف والبذخ فى الثياب والرياش والطعام كما كانت الموسيقى تسبغ على جو الحفلات روح المتعة والاحساس بالسعادة وتستمر الحفلات إلى ساعات متأخرة من الليل يقضيها الأصدقاء فى جو كله سعادة وانبساط بين موسيقى تصدح، وغناء يتصاعد، ورقص يتمايل. ويتحدث الدكتور مختار عن ولع المصريين بتناول الطعام على نغمات الموسيقى، كما انتشرت عادة احضار فرقة موسيقية كاملة لتعزف للضيوف وتساهم فى الرقص والغناء أثناء الحفلات والولائم، وقد تكونت هذه الفرق فى بادىء الأمر من الرجال، ثم ازداد بمرور الزمن عدد النساء فى تلك الفرق حتى اقتصر بعضها على العنصر النسائى، وقد شكلت تلك الفرق فى الدولة القديمة من واحد أو أكثر من ضاربى «الجنك» وعازفى المزمار وضابطى

الايقاع والكورس، أما فى الدولة الحديثة فقد أضيف إليهم ضاربو الدفوف، والعازفون على الطنبور والكنارة، وكان بين الموسيقيين والمغنين عدد كبير من مكفوفى البصر، ومع ذلك فلم يكن كل الموسيقيين محترفين، فقد هوى الكثير من المصريين العزف على الآلات الموسيقية والغناء.

وفى منظر بمقبرة «مرروكا» أحد نبلاء الدولة القديمة بسقارة نراه وقد جلس جلسة هادئة مسترخية، يستمع إلى غناء زوجته وعزفها على الجنك.

موسيقى القصر الفرعونى

وكان لقصر فرعون فرقة موسيقية خاصة، كما كان للموسيقى مكانتها فى المعبد، عند اقامة الشعائر الدينية، وكذا فى الجنازات، وفى الأعياد والحفلات العامة، وقد امتلأت النقوش الخاصة بالمعارك الحربية بصور الجنود ينفخون فى الأبواق أو يقرعون الطبول، ويلاحظ على الموسيقى المصرية القديمة ارتباطها القوى والمنطقى فى نفس الوقت بالغناء والرقص، وهو ارتباط يجعل من الصعب على الانسان فصل أحدهما عن الآخر. وكذلك تميزت الموسيقى المصرية القديمة بتطورها وقدمها جيلا بعد جيل، وقد كانت هادئة رتيبة ثم مالت إلى العنف والضجيج فى أيام الدولة الحديثة، حين استخدم «الجنك» ذو العشرين وترا، والمزمار المزدوج والطبول والدفوف القوية، ولكنها ظلت دائما متمسكة بطابعها الخاص وذوقها الرفيع، الذى أثار اعجاب الزائرين من الاغريق القدماء.

يغنى فى كل مكان

وكان الغناء ملازما للموسيقى فى كثير من الأحيان، وكان المصرى القديم يغنى فى البيت وفى الطريق وأثناء العمل، وفى كل مكان، وعند كل مناسبة، وكان من عادة المغنين أن يرفعوا أيديهم إلى أذانهم عند الغناء، كما هى عادة المقرئين والمبتهلين والمنشدين

فى أيامنا الحاضرة، بينما يتابع الحاضرون الغناء بالتصفيق وهم يرددون: أعد.. أعد..!!

وكانت الأغانى العاطفية مرتبطة بالحب، وقد دونت أغان كثيرة على لوحات البردى أو نقشت بجانب الصور، وكل منها يتصل بالحب والغرام فيتغزل العاشق فى معشوقته ويقول كلاما خاليا من الصنعة والتكلف. ويتغنى بجمالها ومفاتنها وملامحها. وكان من الغناء ما هو شعبى ويتصل بالعمل يغنيه الفلاح والعامل والراعى والفاعل، ولايزال الفاعل يردد حتى يومنا هذا ما كان يردده أجداده أثناء البناء «هيلا.. هوب.. ليصا» و«ليصا» يعنى الطين ومنها جاء التعبير الشعبى: «أنا هايص.. وأخويا لايص» يعنى لايزال غارقا فى مشاكله.

وكانت هناك أغان تقال أثناء الدراس أو الحرث أو الحصاد أو الرى أو عصر النبيذ أو صيد السمك.. وترك لنا الأجداد حصيلة ضخمة من الأغانى العاطفية الملتهبة والحس المرهف والشعور الرقيق. وكلها تعبر عن لوعة الاشتياق والرغبة فى الوصال القريب، وقسوة الفراق.

أنواع الرقص

واحتل الرقص مكانة كبيرة فى حياة المصريين القدماء، ولعب دورا مهما فى النشاط الاجتماعى، فلم يلجأوا إليه رغبة فى اللهو أو التسلية أو الترفيه فحسب، بل اتخذوا منه سبيلا إلى العبادة، واعتبروه من مظاهر التعبير عن السرور والامتنان بما أنعم الله به عليهم من نعمة، وكان الرقص المصرى القديم جميلا رقيقا منسقا.. خاليا من الحركات الخليعة والفجة التى نراها الآن مثل هز البطن والأرداف. بل كانت على النقيض من ذلك حركات معبرة، وإيماءات رشيقة وايقاعات موزونة.

وقد تنوع الرقص وفقا للمناسبات والأغراض التى يقام من أجلها، ويمكن تصنيف الرقصات المصرية القديمة إلى أنواع كثيرة

منها الرقص الايقاعى أو الحركى، ويتمثل فى حركات منتظمة متكررة يقوم بها جماعة من الفتية أو الفتيات ويضبط ايقاعها التصفيق أو دق الصاجات والعصى والمصفقة، وتخطو الراقصة فى خطوات بطيئة حيث لا تكاد قدماها ترتفع عن الأرض، وهناك الأكروبات وهو أكثر مشقة واجهادا، وتتطلب مرونة جسمانية كبيرة، وتدريبا طويلا شاقا، وهناك الرقص الزوجى، وليس المقصود به الرقص السائد حاليا، فلم يعثر على صورة مصرية قديمة واحدة تصور رجلا وامرأة يرقصان متلاصقين. وإنما تتكون أزواج الراقصين من رجلين، أو امرأتين تمارسان حركات متماثلة تهدف إلى اثارة اعجاب المشاهدين، أما الرقص الجماعى فكان يمارسه أشخاص يمارسون حركات متماثلة أشبه ما تكون برقص الباليه فى عصرنا.

● ● ●

لعلك اقتنعت الآن ان أجدادنا القدماء كانوا يميلون إلى المرح والمتعة، ويحبون الغناء والموسيقى، ويستمتعون بالفنون الراقية، وما ذلك إلا لأنهم كانوا يبذلون جهودا صادقة فى أثناء العمل، ويعرقون ويكدحون.. فكان من حقهم أن يعوضوا هذه المشقة بالمتعة والبهجة والترويح عن النفس واعطاء كل شىء حقه.

الحب والهيام فى أغانى القدماء

☐ أول دويتو فرعونى بين عاشقين.

☐ كيف كان المصرى القديم يتغزل فى محبوبته؟

كان الثراء العاطفى من أهم ملامح الشخصية المصرية، وعرف المصرى القديم كيف يعبر عن عاطفته الجياشة بالكلمة الرقيقة، والمعانى المشحونة باللوعة والشجن من بعد الحبيب. والرغبة الحانية فى اللقاء الأبدى فى بيت الزوجية، وكان العاشقان يتبادلان التعبير عن عواطفهما بين أحضان الطبيعة، وكل منهما يترنم على آلة موسيقية وترية. ويدور الحوار بينهما فيما يعرف «بالدويتو» الذى تراه الآن بين مطربين مثل عبدالوهاب وفريد وفوزى وعبدالحليم، ومطربات من طبقة ليلى مراد وشادية وأسمهان ونجاة على ورجاء عبده وراقية ابراهيم. وكل منهما يخاطب حبيبه بلقب الأخاء، فهو يقول عنها «أختى»، وتقول عنه «أخى» وذلك على سبيل الاعزاز والارتقاء بمستوى العلاقة إلى درجة النقاء والطهارة.

ويحتفظ متحف «تورين» بايطاليا بمجموعة من الأغانى العاطفية التى كان يرددها العشاق والمحبون المصريون فى العصر الفرعونى، وهى مسجلة على أوراق البردى، وفى المتحف البريطانى بلندن مجموعتان تضمان أرق الأغانى العاطفية التى تصلح لتكون مادة مسموعة فى «ألبوم» على غرار الألبومات الغنائية التى انتشرت فى عصرنا، وفى المتحف المصرى لوحة من الأوستراكا

منقوش عليها أغنية تدور بين عاشقين على النحو التالى:

● الفتاة:.. إلهى.. انه لجميل ان أذهب إلى البحيرة لاغتسل أمامك، وأجعلك ترى جمالى، وقد ارتديت ثوبى المصنوع من أجمل الكتان عندما يبتل ويلتصق بجسدى.. إنى أغطس فى الماء معك.. ثم أعود إليك بسمكة حمراء جميلة وقد استقرت بين أصابعى.. تعال وانظر إلى..

● الفتى: ان حب أختى على الشاطىء الآخر، ويفصل بيننا مجرى ماء، وعلى رمال شاطئه يستلقى تمساح، ولكنى عندما أنزل إلى الماء، أخوض فى ماء الفيضان، ان قلبى جرىء فى الما، كأنما الماء أرضى تحت قدمى، ان حبها هو الذى يجعلنى فى مثل هذه القوة، نعم انه تعويذتى السحرية فى الماء.. وعندما أرى أختى آتية يبتهج فؤادى، وأفتح ذراعى لأعانقها يهتز قلبى.. فإذا عانقتها وفتحت لى ذراعيها أحس كأنما أصبحت مثل شخص من بلاد بونت (وهى الصومال حيث مصدر العطور) فإذا قبلتها وفتحت شفتيها: أحس بأنى قد انتشيت دون أن أتذوق الجعة (أى البيرة).

ثم يوجه الفتى الخطاب إلى خادمتها قائلا:

- انى أقول لك ضعى أجمل الكتان على جسدها، ولا تضعى الكتان الملكى فوق فراشها، وتجنبى الكتان الأبيض (ربما لأن هذين النوعين من الكتان لا يليقان بالمساس بجسدها) وانثرى فوق فراشها عطر «تيشيس» (وهو أفخر أنواع العطور).

ثم يناجى الفتى نفسه قائلا: ليتنى كنت جاريتها التى تقوم على خدمتها حتى أرى لون جسدها كله، ليتنى كنت غاسل ثيابها.. ولو لمدة شهر واحد.. لأشم العطر الذى فى ثيابها، ليتنى كنت الخاتم الذى (كلمات مهشمة)..

ما أجمل اليوم الذى....

وفى بردية هاريس المحفوظة فى المتحف البريطانى، وتعود إلى عصر الملك سيتى الأول فى الأسرة التاسعة عشرة: نرى هذا النوع من أغانى العشق والهيام.. وهذه مقتطفات من البردية نجت من

التهشيم:

تقول الفتاة: اذا أردت أن تلمس فخذى فإن صدرى سوف (...) أتريد أن تذهب لأنك فكرت فى الطعام؟ فهل أنت شخص أكول؟ أتريد أن تذهب لتروى ظمأك؟ هاك ثديى فإن فيه ما يرويك.. ما أجمل اليوم الذى (....) ان حبك يخترق جسدى مثل (....) وقد امتزج بالماء مثل تفاح الحب عندما يمتزج بها، أسرع لترى أختك كما لو كنت فوق جواد.

فيقول الفتى: الحبيبة مثل حقل تملؤه أزهار اللوتس، وصدرها مثل تفاح الحب، ان حاجبها فخ لصيد الطيور مصنوع من خشب المرو، وأنا البطة التى وقعت فى الفخ.

همس الأشجار والمياه

وكان للطبيعة المصرية تأثيرها الواضح فى وسائل التعبير العاطفى، فترى أغنية تتحدث عن جمال الطبيعة فى الريف، والأحاديث الهامسة بين فروع الشجر، ومجارى المياه الصغيرة، وما كان أجمل العشاق وهم يتسامرون فى الحقول، ويستلهمون الحب من همسات الطيور القادمة مع رياح الخريف، فتقول الفتاة:

- يا أخى المحبوب.. ان قلبى يشتاق لحبك.. وها أنا أقول لك: انظر إلى ما أفعل.. لقد أتيت لاصطاد بفخى الذى أمسكه فى يدى.. ان جميع الطيور القادمة من بلاد «بونت» تحط فى مصر، وقد تضوعت بالمر، وستلتقط أول واحدة منها دودتى، ان رائحتها قد أتت من «بونت» وقد تعلقت رائحة العطر برجليها.. ان ما أطلبه منك هو أن نذهب معا، أنا وأنت فقط حتى نسمع صياح طيرى المعطر بالمر، كم يكون جميلا لو كنت معنى عندما أنصب الفخ، وأجمل من ذلك ان يذهب الانسان إلى الحقل ليرى الحبيب.. ان صوت الأوزة التى وقعت فى الفخ قد أصبح مسموعا، ولكن حبى لك يجعلنى أتسمر فى مكانى فلا أطلقها، سألم شباكى، فما الذى سأقوله لأمى عندما تسألنى: ألم تنصبى فخا اليوم؟ ان حبك قد أنسانى ذلك.. ان كل ما يشغلنى هو حبى.. حبى فقط.. ان قلبى

متفق مع قلبك ولن أذهب بعيدا عن جمالك.. انى انظر إلى الفطير الحلو، ولكن مذاقه مثل الملح، والنبيذ الذى كان له طعم حلو فى فمى أصبح مثل مرارة الطيور، ان أنفاسك وحدها هى التى تجعل قلبى يعيش.. ووجدت بذلك ان الإله «آمون» قد أعطى له إلى الأبد..

يا أجمل إنسان

ثم تمضى الفتاة فى مناجاة حبيبها: يا أجمل انسان.. ان كل ما أريده هو أن أصبح زوجتك فى البيت.. وأن تمسك ذراعى بذراعك.. اذا لم يكن أخى الأكبر معى الليلة فسأكون كمن فى القبر، ألست أنت الصحة والحياة؟! ان صوت العصفور يغرد قائلا: لقد نارت الأرض فأين طريقك؟ لا أيها الطير انك تسقمنى، فإنى وجدت أخى فى فراشه وسر لذلك قلبى.. انه يقول لى: لن أبتعد عنك.. وستبقى يدى فى يدك وأمشى معك جيئة وذهابا فى كل مكان لطيف. سيجعلنى أعظم من كل العذارى، ولن يجعل قلبى يحزن.. انى أظل متطلعة إلى الباب الخارجى، لقد أتى أخى إلى.. ان عينى تتجهان دائما نحو الطريق.. وتستمع أذناى إلى (....) ان حب أخى هو كل ما يشغلنى، وذلك لأن قلبى لا يهدأ بسببه.

حوار بين الأشجار

وفى احدى برديات متحف تورين يتخيل كاتب الأغنية حوارا يدور بين الأشجار لكى تدعو العشاق إلى الجلوس تحتها حتى تستمتع بما يدور بينهم من همسات العشق والهيام.. بل ان الأشجار تتغزل فى مفاتن العذارى.

فتقول الشجرة: ان أحجارى شبيهة بأسنانها، وشكل ثمارى مثل ثدييها، انى خير ما فى البستان لأنى أبقى خضراء فى جميع فصول السنة لكى تأتى لدى الأخت مع أخيها (تعنى العاشقان) وقد سكرا بالجعة والنبيذ وتعطرا بعطر «كمى». أما الأشجار الأخرى فى البستان فإنها تذبل جميعا ما عداى. اذ أظل إثنى عشر

شهرا فى مكانى، وبالرغم من أن الزهور قد سقطت، فإن زهور العام الماضى مازالت باقية على أغصانى، اننى فى المرتبة الأولى، أما الأشجار الأخرى فتقول: انظر.. لسنا إلا فى المرتبة الثانية.. ولكن تكرر حدوث ذلك فإنى أتستر مرة ثانية، بل سأتحدث لكل الناس عن خطيئتهما ليعاقبوا المحبوبة حتى لا يمكنها أن تتوج أغصانها باللوتس وبالزهور وبالبراعم.

انها كنجمة الزهراء

أما بردية «شستر بيتى» فتمتاز بالكثير من التعبيرات الرقيقة عن وصف الحبيب لمحبوبته: انظر انها كنجمة الزهراء عندما تشرق، فى أول سنة سعيدة الطالع، ضياؤها ساطع، وجلدها منير، جميلة العينين عندما تنظر.. حلوة الشفتين عندما تفتحهما لتتحدث، لا تتبس بكلمة لا حاجة لها، طويلة العنق، جميلة الثدى، شعرها أسود يلمع، ذراعها يفوق الذهب فى طلاوته، أما أصابعها فمثل براعم اللوتس، ثقيلة الأرداف، نحيلة الخصر، ينبىء ساقها عن جمالها، وما أرشق قدها عندما تسير، لقد سلبت قلبى مع قبلتها، انها تجعل أعناق الرجال تنثنى، مستديرة نحوها اعجابا بها عند رؤيتها.. ما أسعد الذى يلثم فمها.. فإنه يصبح أقوى من أى شاب.

● ● ●

وعلى هذا الخط كان أجدادنا القدامى يتغزلون فى جمال المرأة، ويعبرون عن عاطفة الحب بأرق الكلمات، وأجمل التعابير المستمدة من الطبيعة المصرية الحانية.

الموالد من الفرعونية إلى المسيحية والإسلام

□ المولد ليس مناسبة دينية فقط.. لكنها اجتماعية وترفيهية أيضا.

□ تتشابه الموالد الحالية مع التاريخ الفرعونى فى المظاهر..

عرفت مصر الاحتفالات الدينية منذ العصور الفرعونية، وظلت الاحتفالات بأعياد القديسين بعد أن دخلت المسيحية مصر، واستمرت الاحتفالات بأعياد الأولياء بعد دخول الاسلام، وتحولت الاحتفالات إلى مناسبات قومية يشترك فيها المسلمون والأقباط، فتراهم فى موالد مار جرجس ومار مينا وسانت تريزا، مثلما نراهم فى موالد الحسين والسيدة وأحمد البدوى وابراهيم الدسوقى، وبين يدى دراسة أكاديمية وميدانية عن الموالد المصرية قام بها الدكتور فاروق أحمد مصطفى - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية وصدرت فى طبعتها الأولى فى عام ١٩٨٠ تناول فيها الملامح والسمات العامة للاحتفال بالموالد فى مصر، وأشار إلى دراسات سابقة قام بها علماء وباحثون أجانب، بدأتها الآنسة «وينفرد بلاكمان» التى عاشت فى الصعيد ست سنوات كانت كافية لكى تتعرف على العادات والمعتقدات الموجودة عند الفلاحين، ونشرت كتابها فى عام ١٩٢٧، وكتبت عن الموالد سواء الأولياء المسلمين أو القديسين الأقباط، والمكانة التى يتمتع بها هؤلاء «الرجال المقدسون»، ووصفت التقديس الذى يقدم إليهم على أنه «عبادة» لا تتجزأ عن الدين الشعبى أو المعتقدات الشعبية.

ويعترض الدكتور فاروق مصطفى على فكرة «العبادة» لأن

التقديس الذى يحيط بالأولياء والقديسين لا يزيد عن كونه نوعا من الشعائر، ولا يرقى بأى حال إلى درجة العبادة، وترى الآنسة «بلاكمان» ان الموالد ليست مناسبات دينية فحسب، وإنما هى مناسبات اجتماعية للتسلية والاستماع للموسيقى وألعاب الأطفال والمراجيح والرقص الدينى (الأذكار) كما لاحظت اشتراك الجميع - مسلمين ومسيحيين - ولا تختلف الاحتفالات فى شكلها بين الجانبين.

أما الدراسة الأكثر حداثة فقام بها «الجنرال ماكفرسون» الذى قضى أكثر من نصف قرن فى مصر وعمل خلالها فى المناصب الحكومية فى فترة الاحتلال البريطانى وتردد على موالد الأولياء والقديسين. وقد أحب المصريين، وكون معهم صداقات متينة، واعتبر ان قيامه بدراسة الموالد إنما لرد الدين الذى فى عنقه لمصر، وأعد قائمة بأهم الموالد جمع فيها أكثر من سبعين مولدا حدد مواعيدها وفقا للتقويم الهجرى، ويقول الدكتور فاروق ان ماكفرسون كانت له صلات وطيدة برجال الطرق الصوفية، وأهمهم السيد أحمد مراد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية، ونقيب الأشراف. وقد أهداه ماكفرسون دراسته عن الموالد فى عام ١٩٤١. إلا أنه قد غلب على تلك الدراسة أمران: الأول انها مجرد ملاحظات أحصاها المؤلف نتيجة لتردده على الموالد. والثانى انه كان متحيزا للقديم، ويرى ان القديم أفضل من الحديث، وربما كان فى ذلك متأثرا برجال الطرق الصوفية الذين اختلط بهم، وهم يعتنقون دائما مبدأ (القديم على قدمه) وأشار فى أكثر من موضع فى كتابه إلى أهمية المحافظة على التقاليد الموروثة والنظم الدينية المحببة، وأشار بشىء من الأسى إلى تدخل الحكومة فى تكسير القوارب المستخدمة فى الاحتفالات بمولد السيد عبدالرحيم القنائى بدعوى أنها لا تتمشى مع الدين، وأنه موروث من العادات الفرعونية القديمة، ورأى انه مهما كانت الدعوة إلى الاصلاح

الدينى، فلا يجوز تخريب وتدمير العادات والتقاليد والنظم الدينية الموروثة.

أصل فكرة الموالد

وقد حاول الدكتور فاروق مصطفى أن يتأكد فى دراسته من أصل الموالد وهل هى حركة بعث وإحياء للاحتفالات المصرية القديمة؟ وهل تعتبر نوعا من العادات والتقاليد المصرية المترسبة فى الثقافة المصرية؟

وأقام الباحث دراسته على أساس الدراسة الميدانية التى تستلزم الاقامة فى مناطق الموالد، والمشاركة فى الاحتفالات بجانبيها الشعائرى والدنيوى والفولكلورى، والاعتماد على مجموعة من الاخباريين من كبار السن لمعرفة مظاهر الاحتفال فى الماضى، وتفسير بعض المفاهيم الخاصة بالجماعات الشعبية التى تحتفل بالمولد. واستخدم المؤلف المنهج التاريخى للتعرف على الظاهرة، والوقوف على حقيقتها خلال العصور التاريخية، ولإعطاء وصف متكامل للموضوع وإبراز أهم الملامح والسمات العامة للموالد.

وبعد أن قام المؤلف بمقابلة شيخ مشايخ الطرق الصوفية بالقاهرة، حضر الاحتفالات التى تقام بمولد النبى، ثم مولد الحسين، ومولد السيدة زينب، واشترك فى الاحتفالات بموالد الأولياء: أحمد البدوى بطنطا، وابراهيم الدسوقى بمدينة دسوق، ومولد أحمد الرفاعى بالقاهرة، وعبدالرحيم القنائى بقنا، وأبوالحجاج الأقصرى بالأقصر، ومحمد بن أبى بكر بميت دمسيس، فضلا عن احتفالات بعض أولياء الاسكندرية وخاصة سيدى جابر وأبى العباس المرسى، كما حضر احتفالات القديسين الأقباط: مولد مار مينا بالصحراء الغربية، ومار جرجس فى كل من كفر الدوار وميت دمسيس. فكان اختياره لهذه الموالد على أساس انها من الموالد الرئيسية الهامة، والتى تتكرر فيها الأنماط الاحتفالية والشعائرية، وحتى يمكن التوصل من معرفة هذه الأنماط إلى بعض القضايا العامة لظاهرة الموالد.

ترسيخ الاعتقاد فى الأولياء

ومن خلال المشاهدة تبين ان الموالد تعمل على تدعيم الاعتقاد فى الأولياء وتقوية هذا الاعتقاد، وبالتالى تحافظ على استمراره عبر الأجيال المتعاقبة، كما انها جزء من النسق الدينى الموجود داخل المجتمع، وتعمل على الترابط والتماسك. كما تعمل هذه المناسبات على ترابط الجماعات التى تهتم بها، وتماسكها، فكثيرا ما تتعاون هذه الجماعات فيما بينها لجمع التكاليف الخاصة بالموالد والتى تتمثل فى تأجير الشقق، وإقامة الخيام واستئجار السرادقات، بالاضافة إلى أجور المنشدين، وتكاليف الطعام لكل المشتركين، ومساعدة كل من يفد إليهم، ويعمل الجميع متعاونين مما يؤدى إلى ترابطهم وتماسكهم. ولا تقتصر علاقات الترابط والتماسك على هذه الجماعات فحسب، بل تمتد لتصل إلى كثير من سكان المناطق التى تقام فيها الموالد، وكذلك التجار والحرفيين. فالكل يتعاون من أجل تحقيق الهدف سواء بالمشاركة أو تقديم المساعدات المختلفة.

الجوانب الاقتصادية للموالد

ويرى المؤلف ان الموالد مناسبات اجتماعية لتلاقى الأصدقاء وتوسيع شبكة العلاقات الاجتماعية، كما انها تحافظ على التراث الأدبى والشعبى والعادات والتقاليد والمعتقدات الشعبية، فضلا عن أنها مناسبات للترويح والاستمتاع بوقت الفراغ، كما انها مناسبة لترويج عمليات البيع والشراء وازدهار الحركة التجارية فى المدن خصوصا انها تأتى بعد موسم بيع القطن - كما فى طنطا ودسوق - ويتوفر النقد فى أيدى الفلاحين.

نفوذ الأولياء على الأتباع

وترتبط الشعائر المتعلقة بالموالد ارتباطا وثيقا بالاعتقاد فى أهمية «الأولياء» و«القديسين»، والأدوار التى يقومون بها، وتأثيرهم

فى الحياة اليومية، واذا كانت الجماعات الدينية تعتقد اعتقادا راسخا فى هؤلاء الأولياء، وترتبط بهم بوثاق القرابة الشعائرية، ويعتبرونهم أبائهم وأجدادهم الروحيين.. فإن كثيرا من المريدين والبسطاء يرجعون أسباب نجاحهم فى حياتهم اليومية من عمل أو دراسة أو تجارة أو انجاب أطفال وزواج البنات إلى قيامهم بتأدية هذه الشعائر، وإلى تأثير هؤلاء الأولياء عليهم، هذا بالاضافة إلى الاعتقاد فى أنهم السبيل للتقرب والوصول إلى الله، فهم الذين يشفعون لهم عند الخالق، ويسألونه تحقيق دعائهم فى الدنيا والآخرة، فليس بينهم وبين الله حجاب، بل قد يصل الاعتقاد فيهم إلى درجة أكبر من ذلك، فيرى البعض أنهم هم الذين يحققون الأعمال، ويعينونهم على قضاء حاجاتهم، ورفع الظلم عنهم.

وقد روى الباحث مشهد السيدة العجوز التى اقتربت من مقصورة السيد البدوى وأخذت تشكو إليه ما أصابها على يد زوجة ابنها رغم ما تقدمه لها ولابنها من خير الأعمال التى يعرفها السيد البدوى، وتطلب منه الانتقام من هذه الزوجة الجاحدة.

الموالد فى العصر الفرعونى

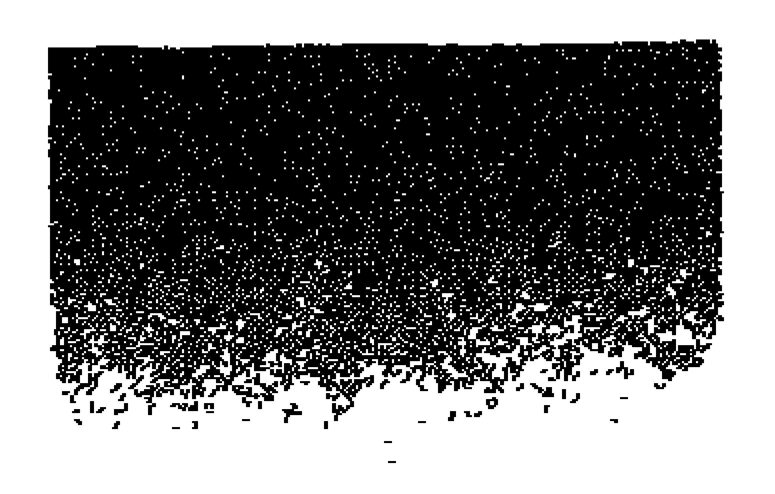
وعن تاريخ الموالد فى مصر: يرى الدكتور فاروق مصطفى ان الاحتفالات بالموالد والأعياد الدينية القديمة تختلف فى وظيفتها باختلاف كل عصر، فوظيفة الاحتفالات الدينية فى مصر القديمة كانت تؤدى من أجل هدف دينى وهو تقديس الفرعون نفسه، أما وظيفتها فى العصر الاسلامى فكانت تقام على أساس أنها أعياد واحتفالات دينية، وقد اختلفت هذه الوظيفة فى العصر الفاطمى فتعددت الاحتفالات بالموالد وكثرت، وكانت الوظيفة المستهدفة والمقصودة هى العمل على نشر الدعوة الفاطمية، وإلهاء الشعب عن التغيير الدينى الذى يجرى فى البلاد، واستخدمت من الوسائل والأساليب ما يساعد على تحقيق هذه الوظيفة واستمالة الشعب لحب الفاطميين، وقد استمر الهدف من إقامة الموالد لأسباب سياسية فى عصر

الأيوبيين والمماليك، رغم اختلاف الظروف الاجتماعية.

ولما قامت الحروب الصليبية تقلصت الاحتفالات، واقتصرت على بعض المظاهر الاحتفالية.

● ● ●

ويعود المؤلف للحديث عن الموالد في مصر القديمة حيث لا يمكن فصلها عن الدين، لأن الدين كان جوهر الحياة اليومية فيها، وساعدت الظروف السكانية على تعميم الأفكار الدينية وانتشارها في معظم مدن مصر القديمة، لأن سهولة الانتقال عبر النيل من الجنوب إلى الشمال ساعد على نقل الأفكار والعادات الدينية، وقد تتخذ بعض العبادات أسماء غير أسمائها في الجنوب، مما أدى إلى تعدد الآلهة واختلاف أسمائها.، وهذا ما أكده «أدولف ارمان» حيث أشار إلى أن العقيدة المصرية قامت على أساس تعدد الآلهة، ولكنها امتازت بالقدرة على توارثها للأجيال الجديدة، وان فكرة الألوهية في الأناشيد والأساطير الشعبية لم تتمسك بإله معين ليكون هذا الإله الخالد، فقد يكون كل من «رع» أو «آمون» أو «بتاح» الإله الخالد ولا يقتصر ذلك على المناطق التي عبدوا فيها مثل هليوبوليس ومنف وطيبة وغيرها، وإنما كان الاعتقاد الشعبي ان الإله الخالق هو «رع» و«بتاح» و«آمون». وهي مظاهر مختلفة لإله واحد، وليست للتعبير عن آلهة متعددة.



الباب الثانى

مصر أرض الديانات

اليهود فى مصر

☐ بناء اليهود للأهرام.. الكذبة التى أطلقها الاسرائيليين.

☐ الخيانة ونكران الجميل من جانب اليهود للمصريين القدماء.

الوجود اليهودى فى مصر: قديم.. ولكنه لا يصل فى القدم إلى عصر بناة الأهرام، فى الألفية الثالثة قبل الميلاد، ولم يكن العبرانيون - وهو الوصف التاريخى لليهود - قد ظهروا على وجه الأرض، ومع ذلك كان مناحم بيجن يتبجح عندما زار مصر فى عصر الرئيس السادات وزعم، وهو يتطلع إلى الأهرامات ان أجداده - العبرانيين - اشتركوا فى بناء تلك المعجزات الخالدة، والحقيقة ان العبرانيين لم يظهروا فى التاريخ إلا فى صحبة أبى الأنبياء ابراهيم عندما انتقل فى رحلته التاريخية من مسقط رأسه فى بلاد الكلدان. ثم ساح حول الهلال الخصيب، ثم عبر الصحراء إلى أرض كنعان فوجدها عامرة بالكنعانيين العرب الذين انبثق منهم الفينيقيون فى لبنان، والفلسطينيون فى فلسطين. وكان ذلك فى العام ١٨٠٠ قبل الميلاد.

أما وجودهم فى مصر.. فقد ارتبط بهجرة النبى يعقوب وأبنائه الأسباط بعد ان تعرضت أرض فلسطين للقحط. وقد سبقهم إلى مصر أخوهم يوسف الذى صار أمينا على خزائن الأرض أثناء سيطرة الهكسوس على الحكم فى مصر، وسقوط النظام الفرعونى.

فى صحبة موسى

ورغم ان بنى اسرائيل غادروا مصر فى صحبة النبى موسى، وهى رحلة الخروج التى ذكرها القرآن الكريم، وسفر الخروج فى التوراة، إلا ان اليهود عاودوا التسلل إلى مصر بحثا عن العيش الرغد، وهربا من الاضطهادات التى كانت تقع عليهم فى فلسطين، وكانوا يمارسون الزراعة فى الريف المصرى، ولكن أغلبهم كانوا يعملون جنودا مرتزقة فى الجيش، وذلك فى العصر الفرعونى المتأخر، عصر الضعف والأفول بعد عصر القوة الامبراطورية آيام التحامسة والرعامسة، وجاء من بعدهم خلف ضعاف تخلوا عن مسئولية تجنيد المصريين، واستجلبوا المرتزقة للانخراط فى الجيش، والدفاع عن الحدود.

وكان قرب المسافة بين مصر وفلسطين من العوامل التى شجعت على كثرة توافد اليهود إلى مصر، وفى القرن الثامن قبل الميلاد كانت دولة «آشور» قد ظهرت كقوة يحسب حسابها فى بلاد ما بين النهرين «العراق» وقام الملك «آشور بانيبال» باحتلال مصر بعد طرد ملوك النوبة، وأقام قاعدة عسكرية فى مواجهة أسوان لتتولى الدفاع عن حدود مصر الجنوبية، وحشد فيها عددا من اليهود الذين سباهم ونفاهم عن أرض فلسطين.

فى جزيرة الأفيال

هذه القاعدة العسكرية تسمى «الفنتين» وتعنى جزيرة الأفيال، وتقع إلى شمال الجندل الأول على نهر النيل، وهى تواجه مدينة أسوان الحالية، واسمها القديم «يب» ويعنى العاج الذى كان يستورد من السودان، وكانت أسوان تعبد الإله «خنوع» ويرمز إليه برأس كبش، ولايزال معبده قائما جنوبى أسوان، وشكل اليهود فى قلعة الفنتين جالية كبيرة تنامت بمرور السنين، وأقاموا لأنفسهم معبدا على غرار معبد أورشليم، إلى جانب المعابد الأخرى التى أقامها الفينيقيون وغيرهم من الجاليات الأجنبية، ولم يكن ملوك مصر

يتدخلون فى شئون هذه الجاليات.

ولكن أهل أسوان كانوا يعبرون عن تذمرهم واستيائهم لأن اليهود يقومون بذبح الكباش والماعز فى عيد الفصح، ويقدمونها قربانا إلى الإلهة «يهوه».. ويوقد عليها فى المحارق، وتحمل الريح دخان الطهى إلى أسوان، فيزداد أهلها غضبا، ويشتكون إلى السلطات المركزية فلا تتدخل تمسكا بمبدأ الحرية الدينية لكل الجاليات.

الحملة الفارسية على مصر

وظلت العلاقة بين المصريين ويهود الفنيقيين بين شد وجذب إلى أن فوجئت البلاد بالغزوة الفارسية بقيادة الملك «قمبيز» فى عام ٥٢٥ق.م وبدلا من أن يتضامن اليهود مع المصريين فى محنتهم: تكالبوا على خدمة الفرس المحتلين، وقيل فى تفسير هذا الانحياز ان اليهود يردون الجميل لأن «كورش» ملك الفرس ووالد قمبيز قام بتحرير اليهود من السبى البابلى، وأعادهم إلى أورشليم بعد سنوات النفى والتشريد عندما قام الملك «بختنصر» بهدم المعبد ونفى أعداد كبيرة من اليهود إلى بابل.

وكان المصريون يتوقعون من اليهود المقيمين فى الفنتين أن يتضامنوا معهم فى الثورات التى كانت تقوم بصفة منتظمة، خاصة أن اليهود عاشوا فى مصر فى هدوء وسلام، وكانوا يمارسون التجارة والزراعة والاقراض بفوائد ربوية تصل إلى ٦٠٪ تضاف إلى أصل الدين اذا لم يسدد فى الموعد المحدد.. وكان يهود الفنتين من الثراء بحيث يقتنون العبيد، ويلبسون الصوف، ويستعملون زيت الزيتون والبلسم، وقد شرح ذلك بالتفاصيل الدكتور مصطفى كمال عبدالعليم فى كتابه «اليهود فى العصر البطلمى».

الدرس الثانى فى الخيانة

وكان انحياز اليهود للفرس بمثابة صدمة للمصريين الذين تذكروا ما فعله اليهود مع الهكسوس أثناء احتلالهم مصر، وكيف

تواطأوا معهم ضد البلد الذى أواهم، وأسبغ عليهم نعمه، الأمر الذى جعل المصريين يتربصون ببنى اسرائيل، وينتقمون منهم حتى جاء النبى موسى لينقذهم من العذاب، ويخرج بهم إلى فلسطين.

فلما نجحت الثورة الشعبية المصرية فى طرد الفرس فى عام ٤١٠ق.م استدار المصريون للانتقام من الفرس، وكان أحد ملوك سايس - صالحجر قد نجح فى طرد الفرس، وهو الملك الوحيد الذى تشكلت منه الأسرة «٢٨» واسمه «آمون حر» ونجح فى تطهير البلاد من الاحتلال الفارسى، وبالرغم من ذلك ظل اليهود على اتصال وثيق بالفرس القابعين فى فلسطين، وكانوا يرسلون إليهم الجزية، ظنا منهم بأن الفرس سوف يعودون لاحتلال مصر، وعندئذ يجدون فى اليهود خير معاون لهم على إدارة البلاد.

تدمير المعبد اليهودى

ولكن أحلام اليهود لم تتحقق، فقد ظهرت الأسرة «٢٩» فى «تل منديس» «تمى الأمديد بالدقهلية» حيث مركز عبادة الإله الكبش خنوم، وشفى كهنة خنوم غليلهم من اليهود وتبين انهم قدموا رشوة إلى الحاكم الفارسى فى اقليم أسوان قبل انسحاب الفرس، واسمه «ويدرانج» فتكفل بتدمير معبد الفنتين، وكان هناك دافع دينى وراء هذا التدمير، فقد كان الفرس يعبدون النار، ويرفضون تدنيسها بحرق اللحوم فيها، ومن ثم وجه الحاكم الفارسى مبررا دينيا لتدمير المعبد، فضلا عن الرشوة التى قبضها.

ويتبين من هذا ان الفرس - وليس المصريين - هم الذين دمروا معبد الفنتين، ولم يرضخ اليهود لهذا الواقع الجديد، فجمعوا أموالا كثيرة، وانتدبوا الكاهن «يدوينا بن جماريا» للتدخل لدى السلطات الفارسية فى فلسطين للموافقة على إعادة بناء المعبد فى نفس مكانه، ولكن حكام يهوذا فى فلسطين طلبوا من الحبر الأعظم لليهود أن يرفض الموافقة على إعادة بناء المعبد تمشيا مع تعاليم الشريعة اليهودية الواردة فى سفر التثنية والتى تمنع بناء معابد خارج فلسطين، حتى لا تنافس معبد أورشليم، وتنزع عنه

صفة الانفراد، وتقلل من قيمته الدينية.

الجحود فى مقابل النعمة

وكانت الضربة قاصمة ليهود الفنتين، منذ هدرت حالتهم الاقتصادية والدينية، وتوارى اسمهم من التاريخ، ولا يعرف مصيرهم بعد تدمير معبدهم، وأغلب الظن انهم ساحوا فى بقية البلاد المجاورة واندثر ذكرهم إلى أن تم العثور على برديات تروى قصتهم وتفاصيل حياتهم الاجتماعية طوال القرون التى عاشوها فى جنوب مصر، وقد عثر على هذه البرديات فى العام الأول من القرن العشرين، وهى مكتوبة باللغة الآرامية التى كان يتكلم بها يهود مصر، وتعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وتروى وضع اليهود من خلال عهود ثلاثة من ملوك الفرس الأخمينيين بدءا من عصر كورش ولمدة قرنين.

●●●

ولم تكن نهاية الوجود اليهودى فى مصر، فقد ظلوا متواجدين فى الريف والمدن يمارسون حياتهم العادية مع المصريين، حتى اذا جاء الأسكندر الأكبر لفتح مصر، نراهم يتسابقون على الترحيب به دون مراعاة لشعور المصريين الذين وجدوا بلادهم تستسلم للفتح المقدونى، وكان هذا دأب اليهود دائما: يرحبون بكل حاكم قوى لكى يجدوا فى كنفه الحماية والسلام، بصرف النظر عن مشاعر البلد الذى احتضنهم، والشعب الذى أواهم وفتح لهم أبواب الرزق والعمل، فكانوا يقابلون هذه الأفضال بالخيانة والخذلان.

افتراءات اليهود على الأنبياء

□ اليهود يشوهون سيرة نبى الله إبراهيم وابنه اسحق.

الحديث عن تاريخ اليهود فى مصر الفرعونية، يدفعنا إلى الحديث عن أبى الأنبياء ابراهيم وزيارته الشهيرة لمصر، ثم هو رأس الشجرة التى تفرع منها بنو اسرائيل، وبنو اسماعيل، واسماعيل هو الجد الأعلى لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو ابن السيدة هاجر، وفى اسماعيل امتزجت الدماء الآسيوية من أبيه العراقى والدماء الافريقية من أمه المصرية هاجر، ومنه تناسلت سلالة العرب العدنانية التى يرتفع إليها نسب قريش ومنهم رسول الاسلام.

والصورة التى رسمها أحبار اليهود عن ابراهيم فى التوراة، تناقض تماما الصورة التى رسمها عنه القرآن الكريم حيث يتقدم ابراهيم زمرة الرسل المعصومين من الخطايا باعتبارهم نماذج بشرية راقية تقود العالم إلى مسالك الحق والخير والجمال، وهم المثل العليا التى تهتدى بها الانسانية وهى تشق طريقها نحو الكمال الخلقى، ولا يمكن لعاقل أن يتقبل الشكل الذى رسمه أحبار اليهود للأنبياء عندما عكفوا على كتابة التوراة أثناء فترة السبى البابلى، فقد أطلقوا لخيالهم العنان، وشوهوا الصورة التى استقرت فى وجدان الناس، ونزعوا عنهم القيم الخلقية، وهبطوا بهم إلى مستويات متدنية يأنف منها الانسان العادى، فما بالك بالنبى الذى

يتلقى الوحى من السماء، ويتطلع إليه الناس كما يتطلعون إلى النجوم(!!)

التوراة تراث شفوى

والمعروف أن أسفار «موسى» الخمسة، المتداولة بين الناس، لم يبدأ تجميعها إلا فى القرن السابع قبل الميلاد، أى بعد وفاة موسى بأكثر من سبعمائة سنة، وتبين انهم نسوه وسقط من ذاكرتهم، ومع هذا لم تدون الأسفار كتابة، بل ظلت تراثا شفويا متنقلا حتى استقر نصها فى حوالى القرن الرابع قبل الميلاد «من موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية» للدكتور عبدالوهاب المسيرى فماذا كانت صورة أبى الأنبياء كما تخيلها كتاب العهد القديم عندما هبط إلى مصر وبصحبته زوجته السيدة سارة؟

تكريم ابراهيم فى مصر

لقد جاء ابراهيم إلى مصر ليصيب شيئا من القوت بعد أن ضرب الجدب أرض كنعان. وقد عرف المصريون مكانة ابراهيم الدينية الروحية فانهالوا عليه بالهدايا التى تليق بمقامه، وأهداه ملك مصر جارية هى السيدة «هاجر» فاتخذ منها زوجة حققت له حلمه فى الانجاب، وكان اسماعيل ولكن هذا التكريم تحول على أيدى اليهود إلى سلوكيات منافية للأخلاق، حتى ان ابراهيم تساهل فى تسليم زوجته إلى ملك مصر ليستمتع بها، ثم قبض الثمن هدايا وعطايا، وقد جاء فى الاصحاح الثانى عشر من سفر التكوين: «وحدث جوع فى الأرض فانحدر ابراهيم إلى مصر ليتغرب هناك، لأن الجوع فى الأرض كان شديدا، فلما قرب أن يدخل مصر قال لساراى امرأته. أى سارة. انى قد علمت انك حسنة المظهر، فيكون اذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته، فيقتلوننى ويستقبلونك، قولى انك أختى ليكون لى خير بسببك، وتحيا نفسى من أجلك. فحدث لما دخل «ابرام» إلى مصر، أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى ابرام خيرا بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد

وإماء وأتن وجمال، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة ابرام، فدعا فرعون ابرام وقال ما هذا الذى صنعت بى، لماذا لم تخبرنى انها امرأتك؟ لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لتكون زوجتى؟ والآن هى ذى امرأتك، خذها واذهب فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له.

يتعارض مع عصمة الأنبياء

يعلق الدكتور صابر طعيمة فى كتابه «التاريخ اليهودى العام» على هذه الصورة المشوهة لأبى الأنبياء بقوله: لو أردنا مناقشة هذا النص، فإنه يتعارض تماما دينيا مع ما تصفه التوراة عن ابراهيم من أن ابراهيم بنى بيتا للرب وكان نبيا رسولا، ثم يجىء إلى مصر ليكذب على فرعون ويقول على زوجته انها اخته، ومهما يكن من ان التوراة قد تحدثت فى موضع منها عن ان سارة هى بالفعل أخت ابراهيم «الاصحاح العشرون من سفر التكوين» فإن العلاقة الزوجية هنا، هى الأقرب للصدق والحقيقة فى علاقة سارة به، ثم تفسر التوراة فى هذا النص أيضا جوانب قبيحة فى شخصية ابراهيم، فتصفه بأنه كان جبانا يقول لزوجته يقتلوننى ويستبقونك. بل ان فى النص معنى يجرد ابراهيم من رجولته فضلا عن أبائه وعظمته كنبى ورسول يتنزه عن هذه المعايب، هذا المعنى هو انه كان «ديوثا» على أهله، يعيش على ريعهم، وينعم بثمن امرأته.. «فصنع فرعون لابرام خيرا بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وأتن وجمال».

سب وقذف

ويتكرر هذا السب والقذف فى حق أبى الأنبياء حين يرد اللغط التوراتى فى الاصحاح العشرين من سفر التكوين عن خبر ارتحال ابراهيم إلى أرض الجنوب، واقامته فى أرض «جرار» التى تقع شرقى «خان يونس»، والمنطقة التى نزل فيها هى منطقة «بئر سبع» حيث تكرر قصة ابراهيم وسارة حيث جاء «أبيمالك» ملك جرار، وأخذ سارة، وقال له ابراهيم مثلما قال لفرعون انها اخته، فتقول التوراة بالنص: وقال

ابراهيم عن سارة امرأته هى أختى، فأرسل ابيمالك، وأخذ سارة، وقضت معه ليلة، ومثلما قدم الفرعون المصرى لابراهيم الخير الكثير بسبب امرأته سارة «أخذ ابيمالك غنما وبقرا وعبيدا واماء» وأعطاها لابراهيم، ورد إليه سارة امرأته. والمعروف ان السيدة سارة كانت قد تجاوزت التسعين من عمرها«!!» وتساءل الدكتور طعيمة: لا ندرى كيف؟ رغم شظف الحياة وعناء السفر، وطول الزمن، كيف استطاعت السيدة سارة ان تحتفظ بجمالها حتى عندما كانت فى الطريق إلى فلسطين فى المرة الثانية، ومن عجب انه - بعد عشر سنوات فقط - كما تقول التوراة فى فلسطين تشعر السيدة التى تعيش الوحدة والعقم أنها كبرت، وأنها لا تلد، وانها تبحث فى أعماقها عن غلام يملأ عليها الحياة ويؤنس وحدتها.

ومن عجب ان كتاب التوراة لم يجدوا حرجا فى تكرار الصنعة الأسطورية، فيذكرون عن النبى اسحق - ابن ابراهيم - انه وقع فى نفس المأزق الذى وقع فيه أبوه سواء فى مصر، أو فى أرض جرار، ذلك ان اسحق حين تزوج من «رفقة» التى كانت عاقرا وخرج من أرض كنعان إلى منطقة بئر سبع ورآها الملك «ابيمالك» وراقت فى عينيه، فقال عنها اسحق انها اخته.

وهنا تساءل الدكتور طعيمة للمرة الثالثة: لست أدرى كيف توافقت الصنعة التوراتية للمواقف التقليدية هذه، إلى هذا الحد الذى مثل فيه الولد دور الأب تماما، يقول الاصحاح السادس والعشرون من سفر التكوين: وكان فى الأرض جوع غير الجوع الأول الذى كان فى أيام ابراهيم، فذهب اسحق إلى «ابيمالك» ملك الفلسطينيين إلى جرار، وظهر له الرب وقال: لا تنزل أرض مصر أسكن فى الأرض التى أقول لك.. وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هى اختى، لأنه خاف أن يقتلوه اذا قال امرأتى لأنها كانت حسنة المظهر، ونظر الملك من كوة فإذا باسحق يلاعب رفقة، فدعا ابيمالك اسحق وقال: انما هى امرأتك فكيف قلت هى أختى؟ فقال له اسحق: لأنى قلت لعلى أموت بسببها، فقال ابيمالك: ما هذا الذى صنعت بنا لولا قليل لاضطجع أحد

الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبا، فأوصى ابيمالك جميع الشعب قائلا: الذى يمس هذا الرجل وامرأته موتا يموت.

●●●

تلك بعض ملامح الصور التى رسمها اليهود لأبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام، وابنه النبى اسحق عليه السلام، والتى تنافى الحقيقة النبوية التى نشأ عليها الأنبياء عندما صنعهم الله على عينه ليكونوا مصابيح للهدى والرشاد، فجعل منهم أحبار اليهود نماذج للسقوط الأخلاقى.

سيدنا موسى: مصرى أم يهودى؟

□ فرويد يقدم البراهين أن موسى مصرياً.

□ ديانة النبى موسى وثيقة الصلة بالمعتقدات المصرية القديمة.

هل كان نبى الله «موسى» مصريا أم اسرائيليا؟
قد يبدو الجواب مستحيلا اذا استرجعنا هذه العصور السحيقة التى اختلطت فيها الأجناس، وتزاحمت العقائد، وبعد أن تعرضت مصر لهجرات الأقوام الهاربين من القحط، والباحثين عن الرخاء فى أرضها الخصيبة، ولكن الجواب يبدو ممكنا اذا قمنا بالفرز بين الشعوب الآسيوية التى استوطنت مصر قوة واغتصابا، مثل الهكسوس ومثل أبناء يعقوب بن اسحق بن ابراهيم، ويعقوب هو «اسرائيل» الذى استدعاه ولده يوسف بعد أن صار أمينا على خزائن الأرض وهيأ له ولأولاده مقاما كريما فى بلد كريم، إلى أن مرت القرون، وساءت العلاقات بين بنى اسرائيل ونظام الحكم المصرى. فظهر موسى ليخرج ببنى اسرائيل، ويعبر بهم البحر، ويخلصهم من اضطهاد فرعون، إلا أن بعض الباحثين يرفض الربط بين سلالة ابراهيم، وبين موسى، والفاصل بينهما سبعمائة سنة فموسى فى رأيهم مصرى، نشأ فى البلاط الفرعونى، وقاد الجيوش فى حملات عسكرية على أثيوبيا، ومن هؤلاء المؤرخين القدامى «يوسيلافيوس» الذى عاش فى القرن الميلادى الأول، والفيلوس «فيلون» وكلاهما من يهود الاسكندرية، ولكنهما خالفا الاجماع اليهودى على عبرية موسى ومن الباحثين

المعاصرين «ول ديورانت» عالم الحضارات الشهير اذ يقول ان اسم «موسى» اختصار للفظ «أحموس».. وآن كلمة «موسى» تعنى الطفل، وكانت مسبوقة باسم أحد المعبودات المصريين مثل «تحوت موسى» وينطق تحوتمس، «ورع موسى» وينطق رمسيس، ولكن اليهود حذفوا الشق الأول من الاسم حتى ينزعوا عن بطلهم القومى أى انتساب لمصر.

موسى فى رأى فرويد

ومن العلماء المحدثين الذين بحثوا حياة النبى موسى: العالم النفسانى المشهور «سيجمون فرويد»، ففى تحليله لشخصية موسى فى كتابه المعروف «موسى والتوحيد» الذى كتبه عام ١٩٣٨ وانتهى إلى أن موسى كان مصريا وليس اسرائيليا مما أثار غضب الحركة الصهيونية، فهاجموه هجوما عنيفا، وحطوا من أهمية الكتاب وقيمته التاريخية، وقالوا انه نتاج عقل زحفت عليه الشيخوخة، وقالوا: لو لم يكن من تأليف «فرويد» لما وجد ناشرا يقبل نشره، وقال موريس كاهن أحد فقهاء التلمود: لو أن شخصا آخر ألف هذا الكتاب لكان خليقا أن نعده أفاقا مكابرا فلماذا كانت هذه الحملة الشرسة على فرويد؟

يفسر العلامة العراقى الدكتور أحمد سوسة هذه الحملة لأن فرويد عرض البراهين العديدة، والدليل تلو الدليل، على أن ديانة التوحيد التى جاء بها موسى هى ديانة «اخناتون» بعينها، وهى مصرية بحته ومصدرها مصرى، ولا علاقة لها ببنى اسرائيل ودور بنى اسرائيل، وان موسى لم يكن يهوديا، وانما كان مصريا، وأراد كتبة التوراة أن يجعلوا منه يهوديا لأغراضهم.

ومن جملة الأدلة التى يقدمها «فرويد» لدعم نظريته هذه: هو أن موسى جعل الختان من مقومات ديانته الأساسية، والختان ان هو إلا عادة مصرية قديمة اقتبسها منهم الفينيقيون والسوريون كما أيد ذلك «هيردوت» أبوالتاريخ، وقد ثبت قول هيردوت هذا بعد اكتشاف ذلك عمليا على أجساد المومياوات فى قبور المصريين

القدماء، وفى النقوش وعلى الجدران، وقد ورد فى «سفر هوشع» من التوراة ما يؤكد كون مصر موطنا لعادة الختان.

شريعة الختان.. مصرية قديمة

ومن ذلك يقول العلامة الأمريكى «بريستد» ان نشأة موسى فى مصر، وتسميته باسم مصرى جعلاه يحض مواطنيه على الأخذ بشريعة الختان وهو عادة مصرية قديمة جدا كانت مراعاتها عامة فى أيامه بين سكان وادى النيل، وهذا يعد برهانا قاطعا على انه كان يستقى تعاليمه مما كان يعرفه عن الديانة المصرية القديمة، ويروى فرويد أن هناك احتمالا قويا بأن موسى كان مختتنا، ثم ينتهى إلى القول بأن ديانة موسى هى نفس الديانة التى تدعو إلى عبادة الإله «أدوناى» الوارد فى التوراة بمعنى عبادة الإله «آتون» ويضيف فرويد ان تقديم الأضاحى والقرابين، الذى يعد من أسس الديانة اليهودية، عادة مصرية قديمة، كما أن تحريم لحم الخنزير عند اليهود مقتبس من المصريين الذين كانوا ينفرون من الخنازير.

لم يتوصلوا للنتيجة

ويعرب فرويد عن دهشته من أن المؤرخين الذين آمنوا

بمصرية موسى: لم يخرج أحد منهم بالنتيجة المنطقية التى تترتب عليها استنتاجات تاريخية خطيرة، ويرجع فرويد ذلك إلى «أن التراث الانجيلى كان سدا منيعا فى وجوههم، اذ ربما يبدو مريعا تصور أن موسى كان شيئا آخر غير كونه عبريا «يهوديا» ولذلك فإن اكتشافاتهم ان الاسم المصرى لم يكن عاملا يدعوهم إلى الحكم على أصل الرجل، ولكن لما كانت جنسية هذا الرجل العظيم تعتبر فى غاية الأهمية، فإن أية مواد جديدة تقدم إجابة يجب الاهتمام بها».

تحاملوا على اخناتون وفرويد

ويحدثنا الدكتور أحمد سوسة عن صهيونى متطرف

يدعى«ايمـايوئيل فليوفسكى» ألف كتابا بعنوان «أوديب واخناتون» هاجم فيه اخناتون وفرويد معا، وتحامل على اخناتون، وجرده من كل فضيلة، ووصمه بكل رذيلة، وحطم فيه الرمز الذى رأته البشرية فى اختاتون كأول من اهتدى إلى أعماق الأفكار الدينية، وأعظمها تجردا وهى «وحدانية الله» ثم تهجم على فرويد وقال عن كتابه ما هو إلا انتقاص لقدر موسى وأنكر أصالته اليهودية، وحرم الشعب اليهودى من زعيم قومى، وجعله مصريا.

أما الدكتور سامى سعيد الأسعد فيؤكد فى كتابه «الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية» صلة ديانة النبى موسى بالمعتقدات المصرية القديمة، ويظهر التشابه الكبير بين الترتيلة المعروفة لاخناتون إلى قرص الشمس «آتون» والعبارة رقم «١٠٤» من سفر المزامير من العهد القديم. وقد ورد فى قصة طريفة رواها المؤرخ اليهودى «يوسنيوس» ان فرعون كان فى أحد الأيام يداعب النبى موسى وهو لم يزل طفلا فى سن الثالثة، فأخذه بين ذراعيه وصار يرمى به فى الهواء، ولما أصبح موسى فى مستوى رأس فرعون: خطف التاج من على رأس فرعون، ووضعه على رأسه، فذهل فرعون لهذه الحركة، واعتبرها دليل شؤم عليه، واستشار حكماء قصره فى ذلك، وما قد يترتب عليها من نتائج فى المستقبل!!

شخصية خارقة

وفى تحليل شخصية النبى موسى، وما نسبه إليه كتبة التوراة من أعمال يقول الأستاذ «لودز».. ونظرا لفقدان الوثائق المعاصرة لزمن موسى، فقد أصبح من أصعب الأمور القول على وجه الصحة: من كان موسى؟ وما كان العمل الذى قام به؟ إلا انه لا يسعنا التهرب من الاعتقاد بأنه لابد أن تكون قد برزت خلال التقليد الطويل شخصية قوية تولت الزعامة، لأننا حين نرتفع إلى مستوى عال فى مجرى التكوين الحضارى، نجد أن العوامل الأساسية التى تؤثر فى الحياة الدينية عند الشعوب: لا تقوم إلا على يد شخصيات قوية ذات مواهب خارقة هى التى تقرر مصير

الدعوة التى تنطوى عليها هذه العوامل، إلا ان المحاولات فى سبيل صياغة شخصية أسطورية خارقة الطبيعة من موسى كانت غير ناجحة.. ان موسى يمثل رمزا أسطوريا ولكن هناك وراء هذا الرمز الأسطورى حقيقة واقعية، هى ان هناك شخصية قوية برزت على اثر الاضطهاد الفرعونى.

اذا كان فرويد قد قال ان موسى هو الذى أعطى الشعب فكرة الإله الواحد، فإن الاعتراض الوحيد الذى يعترض به فرويد على هذا التوكيد هو: «أن الكهنة نسبوا إلى موسى وقائع كثيرة تفوق حد المعقول حين تناولوا بالتنقيح والتعديل النصوص التوراتية التى هى فى متناول أيدينا فبعض المؤسسات، وبعض الشعائر الطقسية التى لا مراء فى أنها تعود إلى زمن أكثر تأخرا: قد صورت وكأنها شرائع سنها موسى، وهذا انما يهدف بجلاء ووضوح إلى إحاطتها بمزيد من النفوذ والهيب وهو حافز لنا على الريبة والشك فى هذه المعطيات».

● ● ●

تلك هى صورة «موسى» فى كتابات الباحثين القدامى والمحدثين، أما صورته فى القرآن الكريم فهو نموذج للانسان الكريم الذى صنعه الله على عينه، وأعده لرسالة كريمة فحواها التوحيد والعدل والانصاف، ومقاومة الظلم والطغيان، والتعفف عن المحرمات، ويكفى ما قالته ابنة «شعيب» عندما لمست فيه الطهر والأمانة، فضلا عن القوة: «يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين».

فرعون موسى.. من يكون؟

□ فرعون موسى ليس «رمسيس الثانى».. كما يدعى الكثيرون!

□ الكثير من الشخصيات المؤثرة فى التاريخ.. أغفل القرآن أسماءهم.

من يكون فرعون موسى؟ أى ملك مصر الذى استعبد بنى اسرائيل، وطغى فى الأرض حتى أهلكه الله غرقا، فلايزال الغموض يحيط باسم هذا الفرعون، ولم تسجل الوثائق المصرية اسمه رغم انها سجلت أسماء الملوك الذين حكموا مصر من خلال ثلاثين أسرة، وهو المسجل الذى وضعه المؤرخ السمنودى «مانيتون» فى القرن الثالث قبل الميلاد ومن المتناقضات أن تخلو الآثار المصرية من أية اشارة إلى الأحداث الهائلة التى وقعت فى عهد هذا الفرعون، وأقدمها غرق الجيش المصرى وهو يتعقب بنى اسرائيل بقيادة سيدنا موسى عليه السلام، ولاشك ان هذا التجاهل يثير شغف الباحث التاريخى لأن المعروف عن الفراعنة انهم يحرصون على تسجيل الحوادث ـ سواء كانت مهمة أو تافهة ـ على جدران المعابد أو فى لفائف البردى، فكيف بهم يتجاهلون تسجيل هذا الحادث الجلل«!!»

فى مقابل هذا الابهام التاريخى نرى القرآن الكريم يروى بالتفصيل وقائع المواجهات العاصفة التى تمت بين موسى وفرعون، منذ تلقى موسى الأمر الالهى بالذهاب إلى فرعون ليسمح بخروج العبرانيين من مصر، وحكى القرآن الكريم لقاء موسى مع سحرة فرعون على مشهد من الجماهير، والحوار الذى دار بين موسى

وفرعون، ومع ذلك لم يفصح القرآن عن اسم هذا الفرعون، ولا الزمن الذى عاش فيه، ومكانه فى سلسلة الملوك المصريين.

عظماء لم يذكر أسماءهم

وهذا التجاهل ليس بدعا فى السياق القرآنى، فما أكثر الأسماء التى تجاهل القرآن ذكرها، مثل اسم المرأة الصالحة زوجة فرعون التى تبنت موسى بعد خروجه من اليم، وربته فى كنفها، ومثل اسم العبد الصالح الذى التقاه موسى عند مجمع البحرين وقام بأعمال ربانية لم يستوعبها موسى وهو فى سن مبكرة، لأنها تدخل فى اطار العلم اللدنى الذى يختص الله به بعض عباده، ولم يذكر القرآن اسم مؤمن آل فرعون الذى يكتم ايمانه ويدافع عن الحق، ويلوم قومه لأنهم يريدون أن يقتلوا رجلا أن يقول ربى الله.

وحجب بعض الأسماء أو المعلومات: سمة واضحة فى القرآن الكريم، فهناك معلومات لا يضير جهلها، ولا ينفع ذكرها، لأن ما يهم القرآن هو استخلاص العبرة والموعظة، وليس سرد الحكايات والحوادث. لم يذكر القرآن اسم الطاغية الذى استعلى وتجبر وقال انه يحيى ويميت، فتحداه ابراهيم بأن الله يأتى بالشمس من المشرق، فليأت هو بها من المغرب، فبهت الذى كفر، ولم يذكر القرآن اسم العبد الصالح الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، فاستبعد ان تبعث من جديد، فأماته الله مائة عام ثم بعثه لكى يرى بعينه ان قدرة الله لا حدود لها، وقد اختلفت الرواة حول عدد أهل الكهف، وبذلوا فى البحث جهودا ضائعة، والعبرة فى قصتهم ليست فى عددهم، ولكن فى ايمانهم ثم عودتهم بعد أن مكثوا فى الكهف ثلاثة قرون وتسعة أعوام، ورد القرآن: «قل ربى أعلم بعدتهم لا يعلمهم إلا قليل».

من هو فرعون؟

أعود إلى أصل القضية: من يكون فرعون موسى؟ لقد شغل هذا الموضوع بال الباحثين والمنقبين فى أعماق التاريخ، واختلفت

أقوالهم واجتهاداتهم، ومنهم من لجأ إلى الدراسات التوراتية التى طرقت هذه الموضوعات بإسهاب، وهناك باحثون مصريون اجتذبتهم هذه الدراسات فبذلوا فيها جهدا مشكورا. وقد عثرت فى رفوف مكتبتى على كتاب صدر عن دار الشروق فى عام ١٩٨٧ من تأليف الدكتور سعيد محمد ثابت وهو أستاذ التوليد وأمراض النساء بكلية طب قصر العينى، وعنوان الكتاب «فرعون موسى.. من يكون.. وأين.. ومتى»؟ أى انه بحث فى ظروف الزمان والمكان التى عاش فيها هذا الفرعون.. وقد مهد لدراسته بعدد من الأبحاث التى تتناول حياة بنى اسرائيل منذ قدومهم إلى مصر فى زمن النبى يوسف بن يعقوب والآثار التى تركها بنو اسرائيل فى مصر، وأماكن الأحداث التى وقعت فى زمنهم، والمقارنة بين العقائد الدينية المصرية، وعقائد بنى اسرائيل، حتى اذا جاء على ذكر «الخروج» وشق البحر: لم يجد أمامه سوى مصدرين: الأول سفر الخروج والثانى: الآيات القرآنية التى تناولت هذا الحادث فى أكثر من سورة.

انعدام الوثائق التاريخية

وكان لابد للمؤلف أن يقترب من شخصية فرعون الخروج وصفاته وأعوانه والأحداث التى أحاطت به، وعندئذ وجد أمامه عقبة رئيسية تتمثل فى انعدام الوثائق التاريخية المباشرة الدالة على ذلك واللازمة لمطابقة ومقارنة بعض الاستنتاجات والاقتراحات التى أمكن الوصول إليها من الكتب السماوية، ذلك ان التاريخ لم يعط لنا أى شىء مما يمكن العثور كأثر أو دليل على تلك الحقبة، ولذلك فشل المؤرخون فى التعرف على كونية فرعون موسى وعليه فلقد كانت أولى الخطوات أن لجأ المؤلف إلى المصادر الدينية التى حفظ الله بها القصة كاملة، بعد أن فنيت تلك الحقبة بمعظم من فيها من البشر.

● ويستعرض الدكتور سعيد ثابت خصائص وأحوال هذا الفرعون كما وردت فى الكتب السماوية.

علوه واستعلاؤه فى الأرض: كان فرعون هذا من ملوك مصر العظماء وكان واسع الثراء، شديد البأس، عظيم الدهاء، ورد فى شأنه بالقرآن الكريم:

«إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا.يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين» «القصص ٤».

«ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى» «الزخرف ٥١».

ادعاؤه الألوهية المطلقة

لقد ادعى فرعون الألوهية المطلقة، وأخرج لنفسه من القصص والأساطير ما استطاع به أن يقنع أهل مصر بشتى طوائفها، فعبده طواعية دون تفكير فأضلهم وأضلوه، فاستحق واستحقوا أن يقال عنهم انهم كانوا قوما فاسقين «وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وانى لأظنه من الكاذبين» «القصص ٣٨».

وعن دليل عبادة أهل مصر له ورد فى القرآن: «فاستخف قومه فأطاعوه» «الزخرف ٥٤».

اختصاصه بصفة الأوتاد

ذكر القرآن عن فرعون انه ذو الأوتاد، وقد اختصه بهذه الصفة دون بقية ملوك مصر فقد ورد فى سورة الفجر «ألم تر كيف فعل ربك بعاد.. إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد».

وقد اختلف المفسرون فى ماهية الأوتاد، ولم يرد ذكرها فى أى من الكتب السماوية الأخرى، كما لم يرد تخصيص أو اشارة مباشرة لها بالتاريخ المعروف، وقد ورد فى القرآن وصف الجبال الشامخة بالأوتاد: «ألم نجعل الأرض مهادا. والجبال أوتادا» «النبأ ٦-٧».

ثم جاء من يطابق هذه الأوتاد بما هو موجود من آثار القدماء، فيدعى انها المسلات الفارعة المنحوتة من كتلة واحدة من الجرانيت ومغطاة بأطراف من الحديد ويدعى آخر انها الأعمدة والأساطين المصفوفة كأشجار الغابات فى أروقة المعابد، ويدعى آخر انها الصروح التى تقوم بين أيدى المعابد قوية راسخة كالجبال.

هل كان عقيما؟

● تبنيه لموسى واحتمال كونه عقيما.

ورد عن فرعون موسى انه قد تبنى موسى، هو وزوجته رغم علمه بأنه من العبرانيين بما اتسم به من صفات وملامح، وعلى رغم النبوءة التى شاعت على انه يولد فى العبرانيين طفل يقوض عرشه، ويزيل ملكه، وتتجلى قدرة الخالق فى نفاذ مشيئته، فيتقبل فرعون رجاء زوجته الصالحة، «آسيا بنت مزاحم» فيتبنى هذا الطفل ويربيه فى قصره على الرغم من انه سن قانونا بقتل أطفال العبرانيين الذكور.

ويتساءل المؤلف: كيف تسنى لزوجة صالحة أن تطلب من زوجها الجبار المتجبر أن يبقى على طفل من العبرانيين مجهول الأهل، فيقبل ويتبناه «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» «القصص ٩» ومن هذا يتضح ان فرعون وامرأته كانا عقيمين، فلا يجوز منطقيا أن يكون هذا الفرعون هو «رمسيس الثانى» الذى أنجب ما يزيد على مائة ولد وبنت!!

وأخيرا يلفت المؤلف نظرنا إلى حقيقة مهمة، وهى انه اذا كان موسى عليه السلام قد نشأ كفرد من أفراد قصر فرعون، منذ ذكر القرآن على لسان فرعون إلى موسى «ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين» «الشعراء ١٨» فلابد أن يكون موسى من آل فرعون أو ملئه وعماله. واذا كان فرعون قد تجبر وادعى الألوهية وقتل الكبير والصغير: فقد رزقه الله من الأهل والقرابة: المؤمن والمؤنة، والهادية والمهتدية، عسى أن يهتدى فيرى الحق حقا فيتبعه، ويرى الباطل باطلا فينبذه، فقد ورد عن آسيا امرأة فرعون

«وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة، ونجنى من فرعون وعمله. ونجنى من القوم الظالمين» «التحريم» ١١»

●●●

اذن فقد كان بلاط فرعون يزخر بالتيار الايمانى المضاد لتلك التيارات العنيفة من الكفر والباطل المتمثل فى فرعون وملئه وجنوده، وقد أفسدوه وزينوا له كل معصية حتى أصبح جبارا طاغيا، وكان على رأس هذه الحاشية الفاسدة رجل يدعى «هامان» وهو أحد الأقطاب الثلاثة الذين بعثوا إلى فرعون فقد ورد فى القرآن: «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون. فقالوا ساحر كذاب» «غافر ٢٣، ٢٤».

عيد آمون الجميل

□ عيد آمون لازلنا نحتفل به فى مولد القديس جرجس والعارف بالله أبوالحجاج .

□ أيام أعياد آمون .. أيام من الجمال الفرعونى.

ونحن نحتفل بعيد الأضحى المبارك نتذكر أيام الأعياد عند أجدادنا القدماء، وكانت من الكثرة بحيث لا يخلو يوم من أيام السنة من الاحتفال بعيد دينى أو ملكى شعبى، وكان أروعها عيد «أوبت» وهو اسم معبد الأقصر الحالى حيث ينتقل الإله «آمون» فى سياحة نيلية من معبد الكرنك إلى «أوبت» حيث تقيم زوجته الإلهة «موت» ويمكث لديها أكثر من عشرة أيام تحتشد فيها الجماهير فى مهرجانات وأعياد متواصلة تنحر فيها الذبائح، وتوزع اللحوم والفواكه والخمور على العامة القادمين من كل أنحاء البلاد.. فقد كان الاحتفال يقع دائما خلال شهر الحصاد، حيث يغمر الفيضان الأرض، وتتعطل الزراعة ويتفرغ الفلاحون للفرفشة والزأططة والاستمتاع بكل مباهج عيد آمون الجميل.

وهناك اجماع بين مؤرخى مصر القديمة على ان احتفالات عيد آمون ظلت باقية فى العصر القبطى فى صورة القديس جرجس، وفى العصر الاسلامى فى صورة العارف بالله أبوالحجاج، الذى يقبع مسجده فوق ربوة بداخل معبد الأقصر، ويحتفل بمولده فى منتصف شهر شعبان من كل سنة.

مراسم الاحتفال بالعيد

وكان الاحتفال بعيد آمون يبدأ من معبد الكرنك، حيث يقوم

الكهنة بإخراج القوارب الإلهية التى تصاحب سفينة آمون فى رحلته النيلية بين المعبدين، وتزدحم صفحة النيل بقوارب الأهالى القادمين من كل فج عميق لتشملهم بركات الرحلة المقدسة، وكما يحدث الآن: يتجمع الباعة الجائلون حول أعمدة معبد الكرنك الضخمة ليعرضوا على الناس سلعهم من البطيخ والرمان والعنب والتين الشوكى والطيور المذبوحة التى تم تنظيفها وطهيها، ويصعد الفرعون إلى مركب آمون، وهو أضخم المراكب وأعظمها يتقدمها رأسا «الكبش» يزينان مقدم المركب ومؤخرتها. ويصحبها مركبان أحدهما باسم الإلهة «موت» زوجة آمون والثانى للإله «ختسو» وتحمل هذه المراكب على الأكتاف، ويمر بها حاملوها فى أفنية المعبد وبين أعمدته، ثم يسيرون فى طريق الكباش وهم يرتدون مآزر طويلة ذات حمالات، وقد حلقوا ذقونهم، وكشفوا رءوسهم، ويسير أحد قارعى الطبول فى المقدمة ويغطى الكهنة أكتافهم بجلد فهد، ويحرقون البخور من مباخر مدلاة من أيديهم، ويرفعون بأيديهم مظلات مفتوحة ومراوح، وعلى طول الشاطئ يصطف أسطول من المراكب، تتقدمها المراكب الثلاثة المقدسة، وهى بمثابة معابد عائمة يتراوح طولها ما بين ١٢٠ و١٣٠ ذراعا، وتزين بزخارف فاخرة، وتصنع من خشب الصنوبر المجلوب من لبنان، وتحمل من الحليات الذهبية والفضية والنحاسية والفيروز واللازورد، ما تنوء بحمله العصبة أولو القوة، وقد بلغ وزن الذهب المستعمل فى صناعة السفينة الملكية أربعة أطنان ونصف، وزين هيكل المركب على غرار جدران المعابد، بالنقوش المحفورة التى تمثل الملك وهو يؤدى الشعائر التى اعتاد أداءها أمام آمون.

على صفحة النيل

ويقام على ظهر المركب، فى الوسط، بيت كبير تعلوه مظلة توضع على سطحها القوارب الصغيرة، والتماثيل، ويتقدم هذا

البيت مسلتان، وأربعة من صوارى الأعلام، وتنتشر فى كل مكان تماثيل أبى الهول، وكباش معلقة فى مقدمة ومؤخرة المركب ولم يكن من السهل أن تتحرك هذه المراكب وحدها، فتشد أولا إلى مجرى النيل بواسطة جيش من الجنود بملابسهم الرسمية ومسلحين بالحراب والبلط والدروع، يحيط بهم حملة الأعلام والشارات والبحارة، وقبل بدء التحرك يرتلون نشيدا لآتون، ويمسك الرجال المكلفون بسحب المراكب الحبال المفتولة، بينما الأهالى يساعدونهم والنساء تلعب بالصاجات والصلاصل، ويصفق الرجال بأيديهم ويقرعون الطبول بمصاحبة الأنغام الليبية، ويرقص الزنوج متشابكين ويثبون منتشين، ويمر بين الأهالى نافخو التفير.

وبعد أن تستوى المراكب المقدسة فوق صفحة النيل، تتحرك بصحبتها قوارب من كل الأنواع والأحجام، ويرى قارب صغير أنيق على شكل طائر له دفة على شكل رأس آدمى محملة بالمأكولات الطازجة والجافة، وعلى الشاطئين يتكدس الناس، وقد أقيمت الخيام والمشارب فى كل مكان، ويتدفق التموين من كل ناحية على هيئة قطعان من الثيران والعجول والغزلان والتيوس والماعز والطيور، بخلاف سلال الفواكه، وينطلق البخور لتطييب الهواء وتنقيته، وعندما تذبح الثيران تسلخ بسرعة فى السلخانات المقامة فى العراء، ثم تقطع وينقلها الحمالون إلى المطابخ ليتم طبخها وتوزيعها على الناس، بينما الجنود الليبيون يقرعون الطبول.

ضيف على زوجته

والهدف من هذه الرحلة النيلية هو أن يحل المعبود آمون ضيفا على مدينة الأقصر حيث تقيم زوجته الإلهة «موت»، وكان بعض الكاهنات يرافقنها من بعيد وفى أيديهم الصاجات، بينما يقرع زنجى طبلته الطويلة، وكان ضباط الشرطة يرتدون بذات منشاة

ويحملون العصى وهم يجهدون أنفسهم من شدة الصراخ لاصدار أوامرهم إلى الملاحين، ويعاونهم ثلاثة نوبيين لهم ملامح جامدة ويحملون هراوات غليظة يلوحون بها وهم يرقصون، كما يفعل أهل الصعيد أثناء التحطيب، وكان لابد من الاستدارة إلى الخلف لسماع ما يقوله رئيس كل فرقة، فيصيحون لابلاغ ما يقوله، فيزداد الجو ضجيجا.

وينفعل الناس فيتضرعون إلى الإله آمون، ويرفعون إليه التسابيح والابتهالات من أجل الملك، ويهبط فارسان من مركبتهما وهما يهللان ويهتفان باسم «آمون». أما جنود السرايا التى تسير عند الشاطىء فقد التزموا بأقصى درجات النظام والانضباط، انهم يحلمون الحربة والترس فى اليد اليسرى، والبلطة فى اليد اليمنى، ويتقدمون بخطوات منتظمة، وصدورهم إلى الأمام، ولا يبالون بما يصدر من الجماهير من جلبه.

ترنيمة لآمون

وأخيرا عندما يرسو الأسطول المقدس الصغير عند الأقصر يبدأ أحد الكهنة بترتيل الترنيمة التالية:

«انك تشرق فى كمالك يا آمون رع» عندما توجد فى القارب «وسرحات» أن القطرين بأسرهما يهللون لك والبلاد قاطبة فى عيد ابنك البكر الذى فتح بطنك.. يساعدك على الصعود مبحرا بالمجداف صوب «أويت» أعطه أبدا لا نهائيا بصفتك ملك القطرين أعطه سنوات أبدية احفظه على قيد الحياة فى ثبات ودوام فليتجل ممجدا.. ربا للسرور».

وربما تاهت هذه الترانيم فى صخب الجماهير، وبينما الكهنة يهمون برفع الحمل المقدس فوق أكتافهم، ويتقدمون نحو معبد الأقصر، كان يحيط بهم جمع غفير من الناس وقد عرضوا القرابين فوق المقاصير الخشبية، وبعد أن يدخل الإله وحاشيته

فناء المعبد، يبدأ الجمهور فى تناول الطعام والشراب واللهو، والراقصات يتمايلن على أنغام الطبل والصاجات، حتى يلامسن الأرض بأيديهن.

وتترك القوارب الإلهية ضجيج الجماهير لتخترق الغابة المظلمة حيث لا يسمع سوى إنشاد الكهنة، ثم تبدأ رحلة العودة بنفس المظاهر التى صاحبت رحلة الذهاب، وتنتهى أيام أعياد آمون، وينصرف الناس إلى بلادهم بعد أن طربوا واستمتعوا بهذا العيد الذى يخص أكبر الآلهة: آمون رع.

أطماع بنى إسرائيل فى سيناء

□ سـيناء دائمـا على رأس أولويات المشـروع الصهيونى.

□ سـيناء أرادها اليـهـود أن تكون اسـرائيل !

يجب أن نعترف بأننا مقصرون فى حق سيناء قديما وحديثا. أجدادنا نظروا إليها على أنها منجم للفيروز والنحاس، وقاعدة عسكرية لصد الغارات القادمة من الشرق. وفى العصر الحديث بقيت سيناء أسيرة فى قبضة سلطات الاحتلال البريطانى. وكانت مكاتب الجمارك فى «القنطرة» حتى تظل سيناء خارج نطاق الادارة المصرية. وظلت هذه العقلية مترسبة فى دماغ البيروقراطية الحكومية، إلى أن ظهر نظام الادارة المحلية فى عام ١٩٦٠ ودخلت أقاليم الأطراف الأربعة الصحراوية فى منظومة الحكم المحلى. ومع ذلك بقيت النظرة إلى سيناء محصورة فى اطار المناسبات، فتتسلط عليها الأضواء، ثم لا تلبث أن تنطفىء.

مشكلة سيناء الأزلية: ضعف الكثافة السكانية.. فأرضها براح.. وأهلها قليلون.. والطبيعة لا تعرف الفراغ.. فإذا وجد الفراغ، فإن هناك من يشغله، والطامعون فى سيناء معروفون.. وجاهزون.. عندهم المال الوفير.. والخبرة العلمية.. والسوابق التاريخية فى السطو على أراضى الغير، وزرعها بالمهاجرين القادمين من الشتات.

أطماعهم فى سيناء

والذى يجب أن نعيه ونستوعبه هو أن أطماع بنى اسرائيل فى

سيناء لم تخمد. فلها عندهم ذكريات دينية منذ تاهوا فى دروبها أربعين عاما بعد خروجهم من مصر بقيادة النبى موسى، وهى مرتبطة بفكرة الوطن القومى، ولذلك يطلقون عليها اسم «فلسطين المصرية». وقد اشتركوا مع انجلترا وفرنسا فى احتلالها خلال العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦، ولكنهم لم يمكثوا فيها طويلا.. ثم عاودوا الاحتلال فى يونيو ١٩٦٧، فنزفوا بترولها، وبنوا فيها مستوطنات أشهرها ياميت بالقرب من العريش، ولم يخرجوا منها إلا بالحرب فى أكتوبر ١٩٧٣، ثم بالمفاوضات التى انتهت بتحرير طابا عام ١٩٨٨.

مستعمرة فى سيناء

وكانت سيناء على رأس المشروع الصهيونى منذ أوائل مؤتمر «بال» فى ١٨٩٧ وعندما فشل هيرتزل فى انتزاع موافقة السلطان عبدالحميد على إباحة هجرة اليهود إلى فلسطينى: اتجهت أطماع هيرتزل إلى سيناء، وأعد مشروعا لإنشاء شركة تستعمر سيناء وتسلخها من الوطن الأم، وحظى المشروع بموافقة وزارة المستعمرات البريطانية، وطلبوا منه السفر إلى مصر لعرض مشروعه على اللورد كرومر، المعتمد البريطانى والحاكم الفعلى للدولة المصرية، وجاء هيرتزل سنة ١٩٠٣ وقابل اللورد، ثم بطرس باشا غالى وزير الخارجية، وبدأت دراسة المشروع، وكلفت لجنة متخصصة لاستكشاف سيناء، فطافت جبالها وصحاريها ومدنها وقراها، ومكثت فى بحثها ٤٣ يوما وانتهت إلى أن مشكلة سيناء تتركز فى ندرة المياه، وقلة السكان، فمجموع أهلها لا يزيدون على ١٦ ألف نسمة منهم أربعة آلاف هم كل سكان العريش. والمهاجرون اليهود جاهزون لملء هذا الفراغ السكانى.

عقد امتياز أبدى

وعندما جلس هيرتزل مع كرومر، لم يبدد الوقت فى الثرثرة والرغى وتبادل العواطف، وإنما قدم إليه عقدا بإنشاء مستعمرة فى العريش تمتد جنوبا حتى أبوزنيمة فيما بين الخليجين العقبة

والسويس، أى ثلثى مساحة سيناء. وينص البند الأول من العقد على أن تتنازل الحكومة المصرية عن هذه الأرض للشركة التى يؤسسها هيرتزل، وأن للشركة حق احتلال الأرض لمدة (٩٩) سنة، (وهى نفس المدة التى يتضمنها عقد امتياز قناة السويس) ويصبح المستعمرون من الرعايا المحللين، ويخضعون للقوانين واللوائح التى ستحكم الأراضى، وكذلك السلطات الأهلية، باستثناء الأحوال الشخصية فتقع فى اختصاص السلطات الدينية التى يعتنقها المستعمرون، ولابد من اعتراف الحكومة المصرية مسبقا بهذه السلطات الدينية، وتعفى أراضى المشروع مطلقا من أى ضرائب لمدة خمس سنوات، ثم تدفع بعد ذلك ايجارا يحل محل الضرائب بما يعادل ١:٢٠ من صافى دخل المستعمرة.

ويصرح للشركة بإنشاء الموانىء والمنائر وإقامة طرق السكك الحديدية وخطوط البرق والهاتف. وعندما يسمح بتطوير الاستعمار تأخذ الحكومة المصرية فى اعتبارها كل مطلب لإنشاء بلديات. وتلتزم الحكومة بعدم منح أى امتياز على الأراضى المتنازل عنها طوال مدة العقد، وبعد نهاية العقد يحق للشركة تجديده لمدة أخرى (٩٩ سنة) أى حتى نهاية القرن الحادى والعشرين.

أما عن بقية أرض سيناء التى لم تدخل فى نطاق المستعمرة اليهودية: تتعهد الحكومة المصرية بالامتناع عن منح أى امتياز عن الجزء المتبقى من شبه جزيرة سيناء، ويجوز للشركة الحصول على امتياز عن بقية سيناء بأسس الاتفاق الحالى. أى ان المشروع الأول هو مقدمة للاستيلاء على كل شبر من أرض سيناء(!!)

موضوع المياه

وبخصوص ندرة المياه: نص البند الرابع عشر على أن تكون مسألة توفير مياه النيل، موضوع اتفاق لاحق. بعد أن يتم الاستيلاء على الأرض.

وبقى مشروع استعمار سيناء سرا، إلى أن كشف عنه هيرتزل فى مذكراته التى نشرت فى نيويورك فى عام ١٩٦٦، وجاء نص

المشروع فى كتاب (المؤامرات الصهيونية على مصر) الذى وضعه زميلنا الراحل الأستاذ جميل عارف، وكذلك كتاب (النيل فى خطر) للكاتب الكبير كامل زهيرى.

وعندما فتح هيرتزل موضوع مد مياه النيل إلى سيناء، مع اللورد كرومر، لم يوافق عميد الاحتلال تلقائيا، وإنما طلب مهلة حتى يتعرف على رأى خبراء الرى، واستدعى الخبير الانجليزى «جارستين» من كينيا، وكلفه بدراسة مسألة نقل مياه النيل لرى المشروع الصهيونى فى سيناء. وأخذ هيرتزل يتوسل إلى كرومر، كما قال هو فى مذكراته، حيث جاء فيها: نحن لا نطلب من النيل أكثر من مياه السدة الشتوية التى تذهب إلى البحر، ولا يستفاد منها(!!)

توصية برفض المشروع

وعكف الخبير «جارستين» على دراسة النواحى الفنية للمشروع الصهيونى الذى يقترح إقامة خزانات لمياه النيل، وانتهى إلى أن اقتراح إنشاء أنفاق تحت قناة السويس يثير مصاعب فنية، ومشاكل ضخمة لأن تمرير (٥١) ألف متر مكعب من المياه فى الثانية الواحدة خلال النفق الواحد يتطلب مد ثمانى أنابيب على الأقل بحيث لا يقل قطر الماسورة عن المترين مما يؤدى إلى عرقلة الملاحة فى القناة. كما ان تخزين المياه سيؤدى إلى زيادة ملوحة الأرض. وفى حالة فشل الخزانات سوف توضع الحكومة المصرية فى موقف حرج، وستكون أمام خيارين: فإما أن تشهد خراب المشروع الصهيونى، وإما أن تحرج كتوافق على مد سيناء بالمياه على حساب الأرض المصرية. وكانت توصية الخبير الانجليزى صريحة بعدم قبول المشروع الصهيونى الذى كان هيرتزل يعتبره حجر الزاوية فى مشروع الدولة، وقنطرة للعبور منها إلى أرض فلسطين.

##ياميت.. الفيروز

ولم ييأس هيرتزل، فقد كان يطمع فى أية بقعة من سيناء ولو فى حجم طابع البريد حتى يرتكز عليها ثم يتوسع منها إلى حلم

الدولة الصهيونية. وعاد إلى كرومر ليقول له: اذا كان من الصعب استعمار سيناء بسبب المياه، فلا أظن ان تضن علينا بهذه البقعة الضئيلة شرق العريش.. ثم نهض.. وأخرج من أوراقه خريطة لسيناء، ووضع أصبعه على المكان وقال: هنا ياسيدى اللورد بالقرب من ساحل البحر.. (وربما خامره الأمل فى الحصول على الماء من البحر بعد تحليته وتعذيبه).

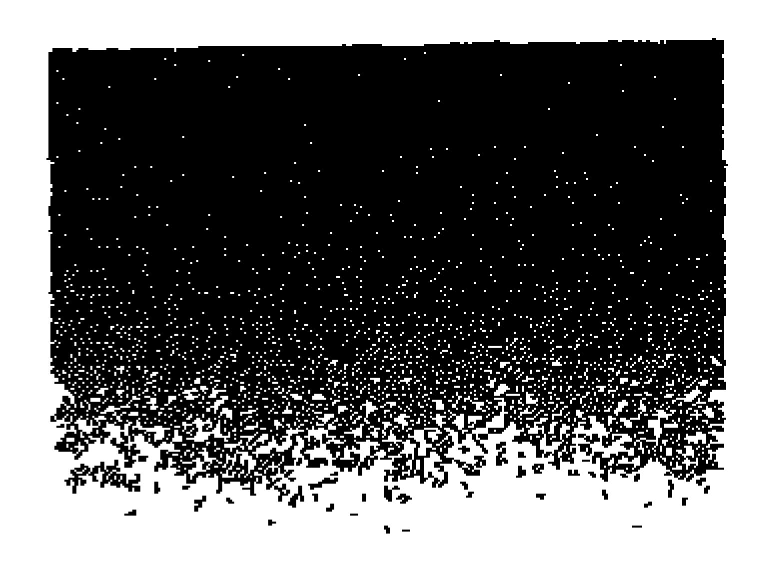
ورد كرومر: آسف.. لا أظن ان الحكومة المصرية يمكن أن توافق على ذلك.

يقول جميل عارف: قالها كرومر وهو لا يدرى ان المكان الذى حدده هيرتزل للمستعمرة، كان هو نفس المكان الذى أقامت عليه اسرائيل مستعمرة «ياميت» أثناء فترة الاحتلال بعد عام ٦٧ وكان الرئيس السادات أثناء مباحثات الانسحاب من سيناء قد عرض على مناحم بيجين أن تدفع مصر عشرة ملايين جنيه مقابل إخلاء ياميت وابقائها على حالها.. ولكن بيجين أصر على هدمها، ودكها بالديناميت، وتسويتها بالأرض.. حتى تظل سيناء فضاء بلا عمران(!!)

وبعد الجلاء تبنى زميلنا فى «الأهرا» محمود مراد مشروعا لإعادة بناء قرية «الفيروز» على أنقاض ياميت. وتحمس بعض رجال الأعمال للمشروع الذى كان بداية لنشوء مجتمع حضرى، ولكن ما لبث المشروع أن طواه النسيان بسبب صراعات الوزارات والاختصاصات.

●●●

ان انهاء أسطورة فراغ أرض سيناء لن يتحقق بالأغانى والأمانى، وإنما بالعمل الجاد على تطوير أهل سيناء، ونقلهم من حال البداوة إلى عالم الزراعة والصناعة وإدماجهم فى السبيكة السكانية المصرية التى يجب أن تنتقل من الوادى المعرض للانفجار السكانى، إلى فضاء سيناء حتى يشعر الطامعون أن سيناء صخرة تستعصى على البلع اذا فكروا يوما فى التهامها، وبشرط أن تكون مشروعات التعمير بعيدة عن أصابع اسرائيل المتخفية فى قفازات مصرية(!!)



الباب الثالث

ملوك وعلماء ورحالة..

رمسيس الثانى.. أشهر ملوك مصر القديمة

☐ استعادت مصر أمجادها وقوتها فى عصر رمسيس الثانى.

☐ أقام لنفسه المعابد فى كل مصر.. حتى أنه يصعب عدّها.

بعد ضيافة زادت على نصف قرن: يغادر رمسيس الثانى مقر ضيافته فى ميدان باب الحديد، ويرحل إلى مكان أكثر هدوءا، وأقل صخبا، ولاشك انه تعب من طول الوقوف على قدميه يستقبل الهابطين من محطة العاصمة، ويودع المغادرين، ويتنفس عوادم السيارات حتى ضاق صدره.

وليس بين ملوك مصر أجمعين من يضاهى رمسيس الثانى فى جلاله وهيبته، ويجمع المؤرخون العرب والأجانب على انه أعظم ملوك مصر القديمة، فيقول عنه «نقولا جريمال»: «هو بالتأكيد أشهر فراعنة مصر، ورمز حضارتها، شأنه شأن الأهرامات، فقد بلغت أمجاده عنان السماء، ففاقت أمجاد غيره من الفراعنة، وما نعرفه عن عصره لا تضاهيه معارفنا عن غيره من عصور مصر القديمة، وتركت بصمات واضحة فى تاريخ الشرق الأدنى يصعب محوها، كما كانت شخصيته الفريدة الفذة علامة بارزة فى عصر خرج على المألوف، فاشتهر بالمواجهات العنيفة التى احتدمت بين كبرى امبراطوريات الشرق».

أشهر ملوك مصر

ويقول الدكتور محمد جمال الدين مختار: يعد رمسيس الثانى

أشهر ملوك مصر القديمة، وأبعدهم صيتا، كما تعد حروبه آخر المجهودات الحربية التى بذلها ملوك الدولة الحديثة فى سبيل المحافظة على الوحدة بين بلاد المنطقة.

وعن مواصفاته الشخصية يقول سليم حسن ان شواهد الأحوال تدل على انه كان فى صباه أرشق وأجمل فتيان عصره، اذ تحدثنا صوره وموميته على انه كان طويل القامة، ممشوق القوام، عريض المنكبين، ممتلىء الساعدين قويهما، عضلى الساقين، مستدير المحيا، ارتسم على فمه الثبات والحزم، وبدت على شفتيه ابتسامة مفترة، أقنى الأنف، واسع العينين، ولسنا مبالغين اذا قررنا انه لا الشيوخة، ولا الموت نفسه، قد أفلحا فى تشويه تلك التقاسيم الفاتنة الخلابة التى عمرت قرابة قرن، وقد تزوج عدة نساء، منهن ثلاث من بناته، وأنجب من الذكور أكثر من مائة وعشرين، ومن الاناث ما يربى على الستين.

مصر تستعيد أمجادها

كان رمسيس الثانى هو ثالث ملوك الأسرة التاسعة عشرة، بعد أبيه سيتى الأول، وجده رمسيس الأول، ولابد أن رمسيس الثانى ورث عنهما الوصايا والتقاليد التى جعلت من مصر دولة قوية ومرهوبة بعد حالة الفوضى التى عمت البلاد أثناء فتنة «اخناتون» واستخدموا نفس العنف الذى عوملوا به أثناء سيادة الدولة الاخناتونية، ولكن الأخطر من ذلك هو تفكك عرى الامبراطورية المصرية التى خلفها تحوتمس الثالث. وتمرد الممالك الآسيوية على نفوذ مصر، وتحولت البلاد إلى ساحة للصراعات والفتنة، إلى أن ظهر الضابط المصرى الشجاع «حور محب». فأمسك بيده زمام الأمور، وضرب على أيدى العابثين، واستطاع أن يعيد إلى مصر أملاكها الضائعة. فلما عاجله الموت خلفه على العرش وزيره وولى عهده «رعمسيس الأول» مؤسس عصر الرعامسة العظام، ومن عاصمة ملكه فى شمال الدلتا سار على نهج سلفه، فأعاد مصر إلى سابق مجدها. وسار بالبلاد فى طريق الاصلاح، غير أن القدر

لم يمهله طويلا، فخلفه ابنه سيتى الأول، فأكمل رسالة أبيه فى تنظيم البلاد، وأعاد إلى مصر إعتبارها وهيبتها فى الخارج. وأشرك ابنه معه فى الحكم، فلما حضرته الوفاة، مضى إلى عالم الخلود مطمئنا على مصير البلاد، لأنه ترك خلفه شبلا كان يجمع بين الجندية والسياسة والتدين وأصالة الرأى فى تسيير أمور الدولة.. وذلك هو رمسيس الثانى الذى تولى الحكم فى العام ١٣٠٤ قبل الميلاد، وهو عالم بما ينتظره من الأعمال الجسام التى شرع أبوه فى القيام بها وأنجز كل ما كان يصبو إليه أبوه، يساعده على ذلك روح وثابة، ودماء فتية، ونفس طموح.

رد الاعتبار للسابقين

استهل رمسيس الثانى حكمه بإظهار مجد الفراعنة السابقين الذين عبث اخناتون بآثارهم، وكان أبوه قد بدأ فى رد الاعتبار لهؤلاء الملوك، فأقام لهم المعابد والمحاريب والتماثيل، وأعاد أسماءهم التى محاها «اخناتون» وادعاها لنفسه، ولم يترك مبنى صغيرا أو كبيرا مما خربه اخناتون حتى أصلحه، وسار رمسيس الثانى على نفس النهج، ورأى أن ينقذ البلاد من الفتنة الدينية، فتقلد بنفسه رئاسة كهانة الإله «آمون» الذى يحظى بحب الشعب، ثم اتجه إلى إقامة العمائر الدينية التى أصبحت فيما بعد مضرب الأمثال فى الضخامة والعظمة والأبهة، وأقام لنفسه وللإله «آمون» معبدا جنزيا يحتوى على قصر فاخر يطلق عليه علماء الآثار اسم «الرمسيوم» وبات من عجاب الدنيا التى تحدث عنها مؤرخو الاغريق، ولاتزال بعض بقاياه الضخمة تنطق بما كان عليه من بهاء وجمال، ولأن رمسيس الثانى كان مؤلها: فقد أقام لنفسه المعابد فى جميع أنحاء البلاد، وفى أمهات المدن: منف، وهليوبوليس، وطيبة، والعرابة، وتانيس، وزينها بالمسلات والتماثيل التى لا يحصيها العد ولعل أعظم معابده روعة وفنا معبد أبوسمبل الذى حفر فى جبال النوبة، وعلى ضفة النيل، وتشرق الشمس على طلعته يومين فى السنة: يوم ميلاده ويوم توليه العرش - وذلك

معابده الرائعة التى أقامها فى وادى السبوع وجرف حسين ومعبد الدر وبيت الوالى.

داء سرقة الأسلاف

ورغم كثرة التماثيل والمعابد التى أقامها رمسيس الثانى: فإنه لم يبرأ من داء السطو على آثار أسلافه من ملوك مصر الأقدمين، فكان يمحو أسماءهم ليطبع اسمه مكانها، الأمر الذى جعل المؤرخين ينتقصون من مكانته، وان كان الدكتور سليم حسن يخفف من وقع هذه السرقات، ويقول انها لا تعد شيئا بالنسبة لما أنجزه من أعمال معمارية ضخمة تعتبر من مفاخر الزمان.

شبهة السخرة

ويتساءل المؤرخون عن أسلوب تشغيل العمال المصريين أثناء بناء هذه المنشآت الضخمة، وهل كانوا يعملون سخرة، أم كانوا يتعاطون أجورا على جهدهم، ويلقون معاملة انسانية. ويقول سليم حسن ان رمسيس الثانى ترك لنا وثائق تثبت انه كان يعامل العمال معاملة كريمة. حتى ليقول فى احدى البرديات مخاطبا العمال: أنتم أيها الرجال الطيبون، يا من لا يعرفون التعب، وأنتم من تقولون إننا نعمل بعد التروى فنقوم بهذه الخدمات فى الجبال المقدسة. لقد سمعت ما يقوله بعضكم لبعض، وان فيكم لبركة، وانى «رعمسيس» الذى ينشىء الشباب بإطعامهم، والأغذية أمامك وفيرة، والطعام غزير حولكم، ولقد كفيت حوائجكم حتى تعملوا بقلوب محبة، وان المؤن أصبحت لديكم أثقل من العمل نفسه، لانى أعلم علم اليقين عملكم الذى ينشرح له صدر كل من يعمل فيه عندما يكون البطن مملوءا، فالمخازن أمامكم مكدسة بالغلال وفيها الخبز واللحم والفطائر وفيها الملابس والنعال، وكذلك العطور لتعطير رؤوسكم كل أسبوع، ولأجل أن تكون أخمص أقدامكم صلبة دائما، ولقد عينت خلقا كثيرا لتموينكم، وخصصت سماكين يحضرون لكم سمكا، وزراعا لكى ينبتوا لكم الكروم، وصنعت لكم أوانى واسعة،

وأوعية لتبريد الماء لكم فى فصل الصيف، والوجه القبلى يحمل لكم حبا للوجه البحرى، والوجه البحرى يحمل للوجه القبلى غلالا وفولا بكميات وافرة، ولقد قمت بعمل كل هذا لأجل ان تسعدوا وأنتم تعملون بقلب واحد.

سيادة العدل والحق

ولانزاع فى ان هذا الوصف الرائع لا يحتاج إلى تعليق، كما يقول سليم حسن، ولا يمكن لعامل أن يطلب عليه من مزيد، كما انه لا يصور لنا من فراعنة مصر جبابرة سخروا الناس لقضاء شهواتهم ومآربهم. ولدينا من الوثائق ما يدل على ان كل طبقات الشعب فى ريف مصر وصعيدها، مدنها وقراها، كانوا فى عيش رغيد. وان نظام «ماعت» الذى ينطوى على العدل والحق، كان سائدا فى طول البلاد وعرضها ويبقى ان أعظم أمجاد رمسيس الثانى هو تصديه لمملكة الحيثيين فى آسيا الصغرى، وانتصاره عليهم فى معركة تاريخية هى «قادش» وهو موضوع حديثنا القادم.

حقيقة اخناتون

□ البطانة الفاسدة هى التى أنهت عصر اخناتون.

□ هل كان اخناتون شاذاً.

لم يختلف المؤرخون فى كل أنحاء العالم حول شخصية تاريخية كما اختلفوا حول «اخناتون». فمنهم من رفعه إلى مرتبة الرسل والأنبياء والمصلحين الدينيين، وقالوا إنه أول من وضع أسس التوحيد، ونادى بعبادة الإله الواحد الأحد، وأن ثورته على المعبودات القديمة إنما كان هدفها تحرير الناس من وصمة التعدد، فاصطدم بكهنة آمون الذين احتكروا أسرار الدين، وجعلوا من أنفسهم طبقة ممتازة تنهب أموال الأوقاف التى كانت ترصد للمعابد، وتركوا الشعب يتخبط فى الضلالات والخزعبلات.

ومن المؤرخين من يرى فى اخناتون صورة مغايرة تماما للصورة الشائعة عنه فى أذهان الناس، ويقولون انه كان فاسدا فى أخلاقه، وارتكب من الموبقات والرذائل ما تعف عنه الحيوانات، وان نقمته على كهنة آمون إنما ترجع إلى أنهم حاولوا وقف عجلة الفساد التى كانت تسير بالبلاد نحو الهاوية، ولكنه استطاع بالبطش والقهر أن يقضى على خصومه، وينفرد بالحكم دون معارض. وتفرغ لتأليف الأشعار فى مناقب المعبود الجديد «آتون» وأهمل واجبه الوطنى فى الدفاع عن ممتلكات مصر الخارجية، وحماية الامبراطورية التى صنعها جده الأكبر تحتمس الثالث، فكانت النتيجة تبديد قوة مصر الخارجية، وخرجت عليها الدول التى كانت تدين لها بالطاعة.

سليل الملوك العظام

والعجيب ان الخلاف حول شخصية اخناتون لم يقف عند حدود وسطية، بل اندفع خصومه وأصدقاؤه إلى آماد بعيدة كادت تضيع معها حقيقة هذا الفرعون الذى جلس على عرش مصر فى نهايات الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٠ ـ ١٣٢٠ق.م) وهى الأسرة التى صنعت مجد مصر الامبراطورى، وأنجبت ملوكا عظاما من أمثال «أحمس» قاهر الهكسوس، وتحتمس الثالث الذى وصل بحدود مصر إلى الفرات، وترك لورثته ملكا عريضا وطيد الأركان، ولكنه تبدد وضاع على يد اخناتون حتى لم تقم لمصر بعدها قائمة، وتكالبت عليها الوحوش الضارية.

لقد بدأ الانحلال يدب فى أركان مصر منذ عهد أمنحوتب الثالث، والد اخناتون، فقد استسلم للشهوات والملذات، وغرق إلى شوشته فى المجون حتى غرقت معه مصر، وما ظنك بهذا الفرعون الذى كان يقضى كل وقته فى القصور بين الغانيات والراقصات من كل عرق ولون، ويبعث سفراءه إلى الدول الأجنبية ليجلبوا له كل ما يقع فى أيديهم من غيد حسان، وكان الحكام الأجانب يعرفون نهمه إلى النساء فيبعثون له مع الجزية أسرابا من النساء حتى انحطت صحته، وذبل شبابه، ولزم فراشه فى انتظار نهايته التعيسة، فلما بلغ العجز مبلغه أشرك معه ابنه اخناتون، وتوسم الناس خيرا فى هذا الشاب، ولكنه خيب آمالهم.

أخلاقه الشخصية

● فما هى حقيقة اخناتون؟

ان الصورة التى يرسمها العلامة سليم حسن لهذا الشاب مغرقة فى السواد والقتامة، وتتناقض تماما مع الصورة الشائعة فى أذهان الناس عن زعماء الاصلاح ودعاة الفضيلة.

يقول سليم حسن: من الغريب ان هذا المليك الذى قاد حركة الاصلاح الدينى، كان شاذا فى خلقه، شاذا فى عقله، منحدرا إلى

الحضيض فى بعض تصرفاته، أما شذوذه الجسمى فلا دخل له فيه، ولا ذنب له فى أنه خلق على تلك الهيئة التى لا تناسب بين أعضائها ولا انسجام، وتماثيله تدل على تركيب غريب شاهد بقدرة الله، وأما شذوذه العقلى فلمخالفته لأهل عصره فى عدم تشيعه لآلهة «طيبة» ومقته الشديد للإله آمون. وأما شذوذه الخلقى فهذا موضع الغرابة، وقد وصل فيه إلى مرتبة يتنزه عنها الحيوان الأعجم اذا صح ما قيل، فإننا لفى شك مريب فى تلك العلاقة بينه وبين أخيه «سمنكارع» اذا كان حبه له وتعلقه به خارجا عن نطاق العقل والمألوف.

ويستطرد سليم حسن: وان انحطاطه الخلقى ليتجلى كذلك فى زواجه من ابنته الثالثة «عنخس ان با آتون» التى أصبحت زوجة لتوت عنخ آمون فيما بعد، كما تلمس خشونته فى تحوله عن حبه لزوجته الجميلة «نفرتيتى» وسوء معاملته لها على حسب ما توحى به الآثار المكشوفة.

الانقلاب على آمون

هذا عن الجانب الشخصى لاخناتون، أما عن دعوته الاصلاحية، فقد نشأ اخناتون على مقت الإلة «آمون» مقتا شديدا، لدرجة أنه محا من اسم أبيه «أمنحوتب» اسم آمون، ثم ولى وجهه شطر الآلهة الأخرى فأنزل بها من التنكيل ما فعل بآمون، وزاد بأن محا لفظة «الآلهة» بصيغة الجمع فى كل المعابد حتى لا ينصرف الذهن إلا إلى إله واحد، والظاهر انه بدأ التفكير فى مذهبه الجديد عندما كان شريكا لوالده فى ادارة الملك لمدة تسع سنوات، ولم يستعمل وقتها العنف فى نشر مذهبه احتراما لعقيدة والده الذى كان يتعبد للإله «آمون - رع» ومن ناحية أخرى لم يكن أبوه يعارض ابنه فى عبادة «آتون» بدليل انه تركه يبنى لهذا الإله معبدا فى الكرنك، ولكن أباه أمنحوتب، وأمه الملكة «تى» خشيا عليه تحمسه لمذهبه الجديد، فأسديا له النصح بالهجرة من طيبة، والاستقرار فى مدينة يتخذها مركزا لنشر مذهبه الجديد، فبنى

عاصمة جديدة هى «اخناتون» أى آتون يشرق، فلما اكتمل بناؤها هاجر إليها وتبعه الأشراف وكبار رجال الدولة جريا وراء المغانم التى ينتظرونها فى صحبة الملك، وربما خوفا من بقائهم فى طيبة تحت سطوة كهنة آمون، وبدأت معابد «آتون» تنتشر فى طول البلاد وعرضها.

التمادى فى الباطل

ومن حقنا أن نتساءل عن تأثير هذه الثورة الاصلاحية على أخلاق اخناتون؟ وهل جعلته يتخلى عن مفاسده انسياقا مع أفكاره الدينية التى تستنكر الخطيئة، وتحض على مكارم الأخلاق؟

ويجيب سليم حسن: لم يتورع اخناتون عن الاستجابة لداعى الشهوة إن دعاه، وظل متورطا مع أخيه «سمنكارع» فى أقبح عادة عرفها الناس، ثم هو لا يخجل من أن يطلق على أخيه لقبه نسويا من ألقاب الملكة نفرتيتى، وهو (نفر نفرو آتون) أى الجمال الفائق لآتون، ولا يخجل من أن يمثل على لوحة محفوظة الآن فى متحف برلين، تدل على منتهى استهتاره بالأخلاق والآداب، يبدو فيها اخناتون ملاصقا لأخيه مطوقا خصره بإحدى يديه، ويداعب بالأخرى ذقنه فى توله وتدليل، وكل منهما يلبس تاج الملك، وهى صورة تبعث فى نفس المشاهد التقزز والاشمئزاز.

ولم تطق نفرتيتى صبرا على فعال زوجها، فهجرت قصرها إلى حى آخر فى أطراف المدينة يسمى «ظل رع»، وانتحت مع توت عنخ آمون فى هذا المكان المنعزل، وتركت قصرها لاخناتون وأخيه وزوجته، وهى الابنة الثانية له المسماة «مريت آتون». واغتاظ الملك من تصرف زوجته فأمر بمحو اسم «نفرتيتى» من كل مكان فى أنحاء القصر، ونقش بدله اسم ابنته «مريت آتون» مع ذكر نسبتها إليه دون أمها، مخالفا بذلك التقاليد الملكية التى كانت متبعة، وزاد الطين بلة عندما تزوج اخناتون ابنته الثالثة «عنخس ان با آتون» وأنجبت منه أنثى. ولم يكن زواج الملوك من بناتهم شائعا حتى ذلك الوقت.. فأى صلاح يرجى من ملك أو

مصلح دينى يتزوج من بناته(!!)

البطانة الفاسدة

هل نجح اخناتون فى إصلاح العقائد الفاسدة، وهداية الناس إلى الحق؟

يجيب سليم حسن: الواقع ان هذا الانقلاب الدينى جاء سابقا لأوانه، ولو انه يدل على تفكير راجح لفرعون مصر، ولقد تقبله الناس مرضاة لسيدهم، ولكنهم لم يكونوا مخلصين له مرتاحين إليه، لقد خشيت أمه الملكة «تى» مغبة نفور الناس من بدعته التى استحدثها، فذهبت إليه زائرة فى اخناتون (تل العمارنة) تقدم إليه النصيحة وقد لمست تحرج الأحوال فى داخل البلاد وخارجها، فأكرمها، ولكنه لم يستمع لنصيحتها.

لم تستطع تلك المبادئ السامية، وهذه الآراء الفلسفية العالية، ان تحفظ الامبراطورية المصرية من بواعث الوهن والتصدع، فقد رزق الملك بطانة سيئة مرتشية ضربت حجابا كثيفا بينه وبين الحقائق المؤلمة التى كانت تتورط الامبراطورية العظيمة فيها، فما كانت تطلعه إلا على الزيف من الأخبار السارة، أما المآسى وغضب الشعب ومخاوفه فلم تكن تصل للملك إلا من خلال بطانته، فنشأت هوة بينه وبين الحقيقة، فلم يجد اخناتون هذه البطانة المخلصة، فتزلزت أركان الامبراطورية وهو لا يدرى عنها شيئا، بل ان سخرية القدر جعلته يرسل إلى مختلف البقاع أخبارا تزعم انه فى غاية القوة، ولو درى ما تحت قدمه لأرسل جزءا من هذه القوات إلى بلاد آسيا لتحمى جزءا من الامبراطورية من الفناء والضياع.

أناشيد اخناتون فى مزامير داود

□ المقارنة بين أناشيد اخناتون ومزامير داود توضح التطابق بينهما.

□ الفكر الدينى مثل الماء والهواء تحمله التيارات إلى كل مكان.

خرجت ثقافة مصر وآدابها ومعتقداتها الدينية من نطاق المحلية إلى المحيط العالمى فى عصر القوة الامبراطورية، ولم تنحصر مؤثراتها الثقافية داخل حدودها الجغرافية وإنما امتدت إلى كل الأقطار والأمم حتى بلغت اليونان وأوروبا، وباتت تعاليم ايزيس وبتاح وآمون وآتون تتردد فى المعابد الأجنبية بنفس التقدير الذى تلقاه فى معابد منف وطيبة والاسكندرية، وصارت أناشيد اخناتون مكونا أصيلا فى مزامير داود التى يتعبد بها بنو اسرائيل.

هذه الحقيقة كشف عنها العلماء والبحاثة الغربيون، وتجدها مدونة فى الكتب التى أرخت الفكر الإنسانى فى عصوره القديمة وعلى رأس هؤلاء العلماء يتربع «بريستد» فى كتابه الجليل «فجر الضمير» الذى يعود بك حين يتحدث عن مزامير داود إلى عصر التوسع الامبراطورى حيث شمل سلطان مصر الأقطار الآسيوية والافريقية، ويراها بريستد أبرز حقيقة فى تاريخ الشرق فى القرن السادس عشر قبل الميلاد، وكان من أثر غزوات تحتمس الثالث خلال عشرين سنة ان ظلت السيادة المصرية بلا منازع، فكانت حدثا فريدا فى تاريخ العمليات الحربية.

وقد كانت هذه النهضة العسكرية مصحوبة باستيقاظ عقلى هز التقاليد المصرية من أساسها، وجعل رجال ذلك العصر يفكرون فى عالم من التفكير أوسع أفقا من قبل، فقد مضى على إله الشمس ٢٥٠٠ سنة وهو فرعون محلى أى فرعون حاكم لمصر، ولكن بعد سنة ١٦٠٠ق.م صار ذلك الفرعون سيدا على العالم المتحضر آنذاك، وكان تحتمس الثالث الفاتح أول شخصية فى التاريخ البشرى ذات اهتمامات عالمية وعلى ذلك يعتبره بريستد أول بطل عالمى ومن ثم كان له تأثير عميق فى عصره، وظهرت بوادر للعالمية فى لاهوت الدولة وخرجت مصر من عزلتها العريقة فى القدم فى أحضان واديها الضيق، واشتركت فى العلاقات العالمية التى كان لابد أن يحسب لها فى أديان ذلك العصر حساب فعال وصار العالم الخارجى مألوفا لسكان وادى النيل حتى قال تحتمس عن إله الشمس «انه يرى جميع العالم فى كل ساعة».

فى العقائد العبرانية

فلما جاء امنحتب الرابع «اخناتون» كان مذهب التوحيد قد صارت له السيادة على بقية الآلهة المصرية وتدخل أناشيد اخناتون فى صميم العقائد العبرانية ويتجلى بريستد فى تصوير أثر الفكر المصرى حتى يقول ان تعاليم الحكماء المصريين الاجتماعية كانت قد كونت جزءا من التقاليد الدينية لدى الفينيقيين والكنعانيين وبقيت بينهم عدة قرون قبل أن تظهر المسألة الاجتماعية وتشحذ عواطف الرجال ذوى الشعور الخلقى الحى من العبرانيين أمثال «عاموس» و«هوشع» فى القرن الثامن قبل الميلاد. وكانت أقوال النبى العبرانى هى أيضا مثلما كان يحدث فى مصر بالضبط فيرتفع فى تصريحاته إلى تصورات سامية تصور لنا أن رسالة فوق الخلقية موجهة لجميع العالم، ولا يغب عن أذهاننا - يقول بريستد - ان فكرة التبشير بعصر جديد قد نشأت بحذافيرها من التفكير

الاجتماعى الذى قام به رجال الفكر المصرى فى وقت لم تكن قد أشرقت فيه بعد على روح الانسان، تلك الصور للمثل العليا الانسانية فى أى بقعة من بقاع الأرض.

على أكتاف المصرى

لقد نظر المفكر المصرى الاجتماعى إلى ما وراء الأمور العالقة وتجاسر على الاعتقاد بحلول عصر عدالة مثلى، وعندما علق بذهن النبى العبرانى بهاء تلك الرؤية، وارتفع بها إلى أفق أعلى منها، فإنه كان فى الواقع يقف فوق كتفى المصرى القديم، وحرى بالعالم الحديث أن يدرك ان تلك الرؤية التبشيرية كان لها تاريخ يرجع إلى ما قبل الأمة العبرانية بأكثر من ألف عام.

لقد رسم مؤلفو «المزامير» العبرانيين صورة تدل على الحماية الإلهية المستمدة من تحت جناحى إله الشمس المصرى، ولابد أنهم كانوا على علم بأنشودة اخناتون العظيمة التى وضعها لإله الشمس ولابد أن الأصل المصرى القديم لتلك الأنشودة قد انتشر فى فلسطين وفينيقية قبل ظهور المزامير العبرانية بزمن طويل.. فقد انتهى اخناتون من اخراج أنشودته قبل منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ومن البديهى أن أعداءه الحانقين عليه كانوا يتركونها تنتشر فى مدة سبعة قرون، وهو الوقت الذى ابتدأ فيه العبرانيون يهتمون بها، وعلى ذلك يدعونا بريستد إلى التسليم بأن تلك الأنشودة انتقلت إلى آسيا فى عهد اخناتون نفسه، وبذلك أفلتت هناك من الدمار المحقق على أيدى أعدائه كهنة آمون.

التطابق فى الأفكار

والمقارنة بين أناشيد اخناتون ومزامير داود توضح لنا التطابق. فيقول اخناتون فى مناجاته عن الليل والانسان: وحينما تغيب فى أفق السماء الغربى فإن الأرض تظلم كالموت، فينامون فى

حجراتهم، ورؤوسهم ملفوفة، ومعاطسهم مسدودة، ولا يرى انسان الآخر فى حين أن أمتعتهم تسرق وهى تحت رؤوسهم وهم لا يشعرون بذلك.

وفى نفس المعنى يقول المزمور «١٠٤» صنع القمر للمواقيت والشمس تعرف مغربها، تجعل ظلمة فيصير ليل فيه يدب كل حيوان وعر.

ويقول اخناتون عن الليل:

كل أسد يخرج من عرينه ليفترس، وكل الثعابين تنساب لتلدغ، والظلام يخيم، والعالم فى صمت، فى حين أن الذى خلقهم فى أفقه.

ويقول نفس المزمور: والأشياء تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها.

ويقول اخناتون عن النهار والانسان:

الأرض زاهية حينما تشرق فى الأفق، وعندما تضىء بالنار مثل آتون، فإنك تقصى الظلمة إلى بعيد، وحينما ترسل أشعتك تصير الأرضان «مصر» فى عيد، والناس يستيقظون ويقفون على أقدامهم عند ايقاظك لهم، وبعد غسلهم لأجسامهم يلبسون ثيابهم ثم يرفعون أذرعتهم تعبدا لطلعتك، ثم بعد ذلك يقومون إلى أعمالهم فى كل العالم.

وتقول المزامير:

تشرق الشمس فتنصرف وفى مآويها يربض الانسان، يخرج إلى عمله وإلى شغله فى المساء.

النقاء والتطهر المصرى

وفى تعقيب للدكتور صابر طعيمة عن هذا التطابق يقول: ومن عجيب ان الجزء الأكبر من الأناشيد والأدعية والصلوات الاخناتونية قد أمكن للمسجلين الاسرائيليين أن ينقلوها بصورة

حافظت على النقاء والتطهر التى كانت تفيض من الروح المصرية فالسياق العام للمزامير يرتبط بحوادث وظروف مرت بها الجماعات الاسرائيلية، وكانت تقص روايات أو تتوقع نبوءات أو تنبه لمحظور، ولم تكن آيات المزامير فى مجموعها صادقة تماما فى تأثرها بالفكر التوحيدى الذى بشر به المصريون منذ عصر اخناتون، وظل للمصريين سبقهم الروحى فى مجال أعمال الضمير فى تعلقه بالفطرة، ونشدانه للحقيقة التى ناجاها اخناتون وارتبطت به روحه وجاشت بها مشاعره.

• • •

وأيا كان رأى خبراء العقائد والأديان تبقى الحقيقة الكبرى، وهى ان العقائد المصرية كانت مصدر إلهام لأبناء العقائد التى عاصرت الديانة المصرية أو التى جاءت من بعدهم بمئات السنين لأن الفكر الدينى مثل الماء والهواء تحمله التيارات المتحركة إلى كل مكان.

«حور محب».. فرعون الثورة على الفساد

□ حـور مـحب.. واضع حـجـر الأسـاس للدولة المصرية القوية.

□ وقف فى وجه الكهنة .. فكان له ما أراد.

تجتذب الدراسات التاريخية نجوما من خارج الحلبة التاريخية، ومن غير المتخصصين فى البحوث الأكاديمية، ومن هؤلاء قائد الجناح حسين ذوالفقار صبرى الذى قضى زهرة شبابه فى زمرة الضباط الأحرار، فلما قامت ثورة يوليو، عهدوا إليه - مع الصاغ صلاح سالم - بملف لقضية السودان التى فرضت نفسها على العهد الجديد، وانتقل الرجل إلى السلك الدبلوماسى، فلما أوى إلى الظل شغل نفسه بالدراسات التاريخية وأثمرت دراساته كتاب «حور محب فرعون الثورة على الفساد» الصادر فى عام ١٩٨٥ عن دار المستقبل.

وقد تفضلت ابنته السيدة نادية ذوالفقار فأهدتنى مؤخرا نسخة من الكتاب، فوجدت فيه جهدا ألقى فيه الضوء على شخصية من أشد الشخصيات الفرعونية غموضا، فقد اعتلى «حور محب» العرش دون أن تكون له شرعية الانتساب إلى السلالة الملكية، وإنما خرج من صفوف الشعب، واحترف العسكرية حتى بلغ ذروتها قائدا للجيوش فى فترة الاضطرابات التى عمت البلاد بعد فشل ثورة اخناتون، وعودة النفوذ إلى كهنة آمون الذين بسطوا سلطانهم ورفعوا إلى العرش بحلول ضعاف من أمثال توت عنخ آتون الذى لم يلبث أن غير اسمه من «آتون» إلى آمون، إلى ان جاء الدور على

«حور محب» ليسير فى ركب النفاق، وصورته الدراسات التاريخية الحديثة على انه التابع الوضيع لكهنة آمون، يأتمر بأمرهم، ويشاركهم حملة استئصال الديانة الأتونية، وهو الذى حطم مدينة «اخناتون» تل العمارنة التى بناها اخناتون لتكون عاصمة ديانة الشمس، بعيدا عن «طيبة» مركز نفوذ كهنة آمون وتنسب هذه الدراسات إلى «حور محب» انه جعل من تل العمارنة أنقاضا، وكل أثر لهذا الإله المنبوذ.

التاريخ يعيد نفسه

تلك هى صورة «حور محب» كما رسمها علماء المصريات فى أوائل القرن التاسع عشر. ولا أدرى السبب الذى دفع حسين ذوالفقار صبرى إلى استجلاء الأبعاد الحقيقية لسيرة هذا الفرعون «المفترى عليه» فيقول أن دافعه إلى ذلك ليس مجرد رغبة فى التصدى لاجحاف ألحقته به زمرة من المتخصصين، وإنما تحركنى دوافع لا تغالب. اذ أتلفت من حولى فأقول ما أشبه الليلة بالبارحة. فهل كان الباحث يقلب فى صفحات هذا الماضى البعيد، وعينه على الحاضر الماثل أمامه بعد الثورة فوجد بينهما من التشابه ما دفعه إلى استدعاء العبارة الشهيرة التى تقول ان التاريخ يعيد نفسه.

لم يترك حسين ذوالفقار لنفسه العنان للمقارنة بين الماضى والحاضر ولكنه انطلق على الفور لرد الاعتبار لهذا الفرعون، وفى جعبته دراسة أكاديمية قام عالم سويسرى شاب اسمه «روبرت هارى» وكان موضوعها يدور حول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة هل هو «رمسيس الأول» كما أجمعت جمهرة المؤرخين.. أم «حور محب» كما خيل لبضعة من قدامى الباحثين..

ملامح شخصية فذة

وبدأت سلسلة المفاجآت.. فإذا بالصورة المرسومة لذلك الفرعون المفترى عليه إنما هى نسيج من أخطاء فى التقرير، ناتجة

فى الأعم الأغلب عن عدم اهتمام جدى بشخصيته، بدت وكأنها عارضة مجرد أداة حركتها قوى أخرى من خلف ستار، حلقة ضمن سلسلة حلقات، انتقالا بتاريخ مصر من عصر إلى عصر.

بدأت صورة «حور محب» تتجسد بملامح شخصية فترة مغايرة لكل ما كان قد وصم به فلولاه لما تمكنت الحضارة المصرية من التماسك، ولولاه لما تهيأت للرعامسة - ملوك الأسرة التاسعة عشرة - تلك القاعدة الصلبة التى دفعت بالدولة المصرية مرة أخرى إلى الانطلاق.

سلسلة من مفاجآت شدت «روبرت هارى» إلى اهتمام، فيتحول برسالته فى الدكتوراة إلى محاولة استجلاء الغوامض التى كادت أن تطمس على شخصية «حور محب» فرعون مصر «المفترى عليه» ويعترف باحثنا المصرى انه اعتمد اعتمادا رئيسيا على ما اشتملت عليه تلك الرسالة التى نشرت فى جنيف بسويسرا فى عام ١٩٦٥ ولكنه لم يتقيد تماما بجميع ما توصل إليه الدكتور هارى من استنتاجات، فلقد كانت هناك فجوات واسعة لا يتأتى للمرء إلا أن يتكهن بما يحتمل إن كان. ولذا يصف دراسته بأنها قد تصيب وقد تخيب، ولن تصل إلى درجة الإصابة إلا أن تعثر على مر السنين بمزيد من آثار لها دلالتها.. فترفض أو تؤيد ما توصل إليه الباحث.

لماذا هذه الدراسة؟

يطرح الباحث على نفسه سؤالا: ما الذى يدفع به اذن إلى الاقدام على هذه الدراسة، وكان أحرى به أن يحجم لأنه ليس من المتخصصين؟

ويجيب: عذرى انى لست أول من فعل، فقد سبقنى إلى ذلك نفر من كتاب لم يدعوا قط بأنه من المتخصصين ويضرب مثلا بالافتراءات التى شوهت حركة «حور محب» وقدمها متخصصون عميت قلوبهم عن شواهد لا تحتمل لبسا، ليس لهم من هم إلا تجلية ذكرى شخصيات أضحت تثير التعاطف بغير حدود: اخناتون حطمت آثاره بنوازع من حق موتور، ثم توت عنخ آمون، عصفت به

المنية وهو بعد فى نضرة شبابه، فيدس رفاته إلى جب مغمور.
ويوجه الباحث عتابه إلى هؤلاء الناقمين على «حور محب» أما كان أجدر بهم أن يتريثوا فيتساءلوا اذا كان هو الذى فعل؟ أم أن تلك الاتهامات سطرت بعد وفاته بعشرات من سنين؟
ويسرد الباحث التطورات التى شهدتها مصر فى عصر الامبراطورية التى بلغت أوج سطوتها خلال حكم تحتمس الثالث - أعظم الفراعين على الاطلاق - إلا أن ظروف الصراع على السلطة التى حالت بينه وبين مقاليد الحكم طوال عهد الملكة حتشبسوت، ارتفعت بمكانة كهنة آمون إلى ذروة ثراء دنيوى وسلطة دينية كادت أن تطمس على نفوذ غيرها من مؤسسات دينية راسخة الأصول، وأصبح كهنة آمون دولة داخل الدولة، فيتحسسوا الطريق بعد وفاة تحتمس الثالث إلى بسط الوصاية على خلفائه من فراعين، إلى أن جاء امنحوتب الرابع «اخناتون» فاستحوذت عليه نوازع من ايمان مطلق بوحدة إلهية كونية، ود لو يفرضها على العالمين فى صورة قرص الشمس وكأنه الصورة الرمزية لجوهر ربانى مكنون، واحدا أحدا لا شريك له. ويتفجر الصراع عنيفا بين كهنة آمون، وبين الدعوة التى يدفع بها اخناتون حثيثا، فتثور ثائرته، ويعلنها حربا شعواء على الصور المتعددة لجمهرة الآلهة آمون.. وبعد رحيل اخناتون يطيح كهنة آمون فى البلاد دافعين بأعوانهم ومحاسيبهم إلى مراكز الصدارة فى كل مكان.

مصر يتقاذفها الأوغاد

سنوات طويلة انحطت خلالها الأحوال، وتجرأ جيران مصر على تحديها، وتردت مكانة مصر فأصبحت فريسة سهلة المنال يتربص بها الجميع، ويتقاذفها الأوغاد، لا هم لهم إلا الاثراء واستغلال النفوذ على حساب المصالح العليا والقيم الانسانية لأفراد هذا الشعب المكافح الصبور.
وهنا يظهر دور «حور محب» منذ اختاره توت عنخ آمون نائبا له على ادارة شئون البلاد، فيحاول انتشال مصر من الوهدة التى

ترددت فيها، ويصرف همته إلى مواجهة الأخطار الخارجية ينقض عليها معتمدا على مهارته الفذة، وخبرته العسكرية، ويشن بضع حملات محدودة الأهداف، وبعدها تفرغ لشئون البلاد الداخلية، فأرسى دعائم الأمن والاستقرار، وأعاد تنظيم الادارة وتشكيل الهيئات القضائية فى أنحاء البلاد، فلا تتوانى عن مطاردة الفساد، والضرب بيد من حديد على جميع من كانت قد سولت لهم نفوسهم انتهاز حالة الفوضى والتسيب فاستغلوا أرزاق الشعب وانتزعوا الكسب الرخيص..

أما أكبر مظاهر الخلل فكان اختلال القيم الدينية.. فأية جهود مضنية بذلها «حور محب» حتى تعود وتستقيم، بل أية معاناة حتى يتم التحول بأجيال تشربت الخسة والضلالة إلى جيل من أهل النزاهة والشرف.

ذاك كان قدر «حور محب» تحديات تصدى لها فقاد مصر إلى ثورة ضخمة بعيدة الأثر بعد تقويم واصلاح.. اننا نبخس هذا الفرعون حقه، بل ننتقص تاريخ مصر اذ نهمل الكشف عن مكانة الرجل وقيمة ثورته الشاملة التى تصدى من خلالها للفوضى التى تفشت فى أطناب البلاد، والانحرافات التى أصابت الأخلاق، وكادت ان تتردى إلى تصادمات دامية بين أحزاب متنمرة.

●●●

لقد ظلموا «حور محب» حين قالوا انه وثب على الحكم إثر انقلاب عسكرى، وإنما حملته إلى العرش موجة طاغية من امتنان شعبى أذعن لها كهنة آمون مرغمين، فما تمسح بأعتاب الكهنة وإنما تمكن بحكمة وروية أن يضعهم فى مكانهم الصحيح قائمين على خدمة الإله القومى ولكن دون افتئات على حقوق غيره من أرباب الأرضين. ولولاه لما عرفت مصر «عصر الرعامسة» ولا تلك الصحوة التى أعادت إلى البلاد أشعاعات من مجد كاد أن يخبو بريقه فيأفل ويندثر أعظم وأعرق الحضارات التى عرفها التاريخ.

من سيوة صار الإسكندر ملكا على مصر

□ شهرة آمون عند الأغريق كانت أضعاف شهرته عند المصريين.

□ أنا ابن مين؟!.. سؤال أراد الاسكندر أن يعرف له إجابة!

لاتزال الزيارة التى قام بها الاسكندر الأكبر لمعبد آمون فى سيوة لغزا يحير عقول المؤرخين، فإذا كان الهدف هو التماس البركة من كبير الأرباب المصريين «آمون» فقد كان فى وسع الاسكندر أن يحج إلى طيبة «الأقصر» المركز الروحى لعبادة آمون، وكان يستطيع وهو فى «منف» أن يخطف رجله إلى طيبة بدلا من اختراق الصحراء، وتعريض حياته للضياع فى البيداء مثلما حدث للملك الفارسى «قمبيز» قبل قرنين من الفتح المقدونى.

لم يكد الاسكندر يحط الرحال عند مصب الفرع الكانوبى فى البحر الأبيض المتوسط حتى بدأ فى تخطيط مدينة جديدة تحمل اسمه، وتكون حلقة الوصل بين تجارة الشرق والغرب، ومن هنا استأنف المسير فى الصحراء ليصل بعد عشرين يوما إلى واحة آمون «سيوة» ويلقى بنفسه فى أحضان المعبود الذى شاعت كراماته فى أنحاء العالم واكتسب شهرة فائقة فى الوحى لمن يقصده، ولا يضن بالنصح لمن يشعرون بالحاجة إلى النصح المقدس، والبداية العلوية ومن المفارقات الغريبة أن شهرة آمون سيوة بين الاغريق كانت أضعاف شهرته بين المصريين لدرجة ان الاغريق قرنوا بينه وبين كبير الآلهة عندهم «زيوس» فصار اسم معبود سيوة «زيوس آمون».

إحياء شأن المعبد

ويذهب العلامة سليم حسن إلى أن الإله آمون فى واحة سيوة لم يكن له شأن يذكر فى العهد المتأخر من تاريخ مصر، إلى أن جاء الملك «أوكوريس» وأخذ فى إحياء عبادة هذا الإله، وأعطاه طابعا مصريا بعد أن توطدت العلاقات بين مصر واليونان.

وترجع أهمية هذا المعبد لدى الاغريق إلى أنه كان يقع فى الطريق إلى مستعمرة «قورينة» وهى برقة حاليا، وتقع على الساحل الافريقى قبالة بلاد اليونان.. ومن هنا اكتسب المعبد أهميته من موقعه، فصار قبلة الملوك والشعراء من الاغريق وغيرهم. ومن المؤكد ان الاسكندر سمع منذ الصغر عن أسطورة البطلين الخرافيين «هيراقليس» و«برسيوس» وقد اكتسب كل منهما صفة الشجاعة، لأنهما كان يذهبان إلى آمون سيوة يطلبان منه النصح قبل أن يقدما على أعمالهما الخارقة.. ويقول «كلثيس» مؤرخ الاسكندر ان ذكرى هذين البطلين كانت أحد الأسباب القوية التى حملت الاسكندر على أن يقدم على هذه الرحلة تأسيا بقصة البطلين الاغريقيين، ولكى يتخذ من وحى آمون قوة دافعة إلى الاستمرار فى حملته العسكرية نحو الشرق.

الإسكندر ينتسب إلى من؟

هناك عامل شخصى وراء رحلة الاسكندر إلى معبد آمون سيوة، وهو رغبته الجامحة فى الانتساب إلى آمون، انتساب الابن إلى أبيه، ذلك أن الاسكندر كان يشك فى نسبه إلى أبيه «فيليب» وقد سمع من أمه «أولمبياس» ان الإله «زيوس» تخفى فى صورة أفعى، وخالطها، فكان الاسكندر ثمرة اللقاء، فأراد التثبت من هذا الادعاء من خلال وحى آمون.

ويبدو أن الشك فى نسب الشاب الاسكندر إلى أبيه فيليب قد صار أمرا مشاعا فى العالم الاغريقى وبات موضوعا خصبا لكتاب الأساطير بعد موت الاسكندر.. وراجت «أسطورة الاسكندر» بين

أدبيات العصر حتى من قبل موت الاسكندر. وفى ذلك يقول المفكر اسماعيل مظهر فى كتابه «مصر فى قيصرية الاسكندر» كان من الطبيعى أن تلفت شخصية الاسكندر الأنظار إليه بعد أن استطاع بغزواته وحروبه أن يهز أرجاء العالم القديم، لهذا نجد ان أسطورة الاسكندر قد كتبت وذاعت فى كل لغات الدنيا القديمة من الهند إلى بحر الظلمات، وتضمنت قصصا خرافية أصلها بابلى.. وجمعت بين الأسطورة والتاريخ. ففى النسخة الفارسية نص على الاسكندر ابن «دارا» ملك الفرس، ثم انتقل بعد ذلك فصار نبيا يعمل على هدم الأصنام وتقويض الوثنية، ثم أصبح عند كهان النصارى ناسكا قديسا.

وقد نقلت هذه الخرافة إلى أوروبا ويروى الجزء الأول منها مولد الاسكندر ومخاطراته فى شبابه، وفيه أن خطر الاسكندر وقدره العظيم إنما يعودان إلى أن أباه الحقيقى هو «نختنبو» آخر ملوك مصر الفراعنة الذى طرده الفرس من بلاده، وكان من كبار السحرة بحيث يستطيع أن يجعل من الشمع صورا لجيوش أعدائه وأساطيلهم، ويستطيع بسحره أن يوجه حركاتهم كيفما يشاء، فلما طرد هرب إلى مقدونيا.. فاستقدمته «أولمبياس» أم الاسكندر، وكانت عاقرا، فوعدها بأن «زيوس - آمون» سوف يزورها متقمصا صورة أفعوان، ثم استخفى «نختنبو» فى هذه الصورة، وخالطها، فولدت الاسكندر، وحينئذ أكل الشك صدر زوجها الملك فيليب، ولم يؤمن بصحة ما سمع، إلا بعد أن تجلى له الأفعوان مرة أخرى.. وأشيعت بنوة الاسكندر للالهين العظيمين.

أنا ابن مين؟

ونفهم من كل هذه الأقاويل - الصحيح منها والمختلق - ان الاسكندر عاش حياته وهو يشك فى نسبه إلى أبيه الذى لقى مصرعه فى حادث غامض. ومن المؤكد أن هذه الضغوط النفسية كانت فى مقدمة الأسباب التى دفعته إلى المجازفة باختراق الصحراء، والمثول بين يدى آمون لكى يستنطقه فى داخل قدس

الأقداس، ويحصل منه على الجواب الذى يريح فؤاده: أنا ابن مين؟؟!

لقد ذهب الاسكندر إلى معبد آمون سيوة، لأنه دون بقية المعابد الآمونية الذى يتحدث فيه الوحى، ويجيب على تساؤلات الحيارى والمصدومين والباحثين عن الحقيقة فى خضم الظلمات والشائعات. ومن المؤكد أن كهنة المعبد كانوا يعرفون عن الاسكندر ضعفه الإنسانى بسبب الشك فى نسبه، فقدم إليه الكهنة بعض الكلمات التى تشفى الغليل، وحجبوا عنه ما لا يعرفونه عن عالم الغيب، فالمتكلم لم يكن سوى كاهن أفاق يبيع بقدر ما يقبض. مثل ضاربة الودع التى تبيع لك كلمات التقطتها من حديثك.

فى مسرح العرائس

لم يسمح الكهنة بدخول قدس الأقداس إلا للاسكندر وحده، فوجد نفسه أمام وثن مصنوع من الزمرد والأحجار الكريمة، وكان الوثن يتحرك بطريقة العرائس التى تحركها خيوط يمسكها الكاهن. وعندما يشد الحبل يتحرك الوثن، ولم يكن أحد من رجال تلك العصور يدور فى خلده أن يكون الكاهن غشاشا، ذلك ان الأداة التى يستخدمها الإله.. مسيرة وليست مخيرة. وعندما يتحرك الوثن تتحرك شفتا الكاهن بالكلام.

يصف «كلثيس» المؤرخ الذى صحب الاسكندر إلى الهيكل: لم يؤذن لغير الملك بالدخول إلى المعبد فى ثيابه العادية، أما البطاقنة فأمروا بتبديل ثيابهم، ووقف الجميع فى الخارج يستمعون الوحى، ماعدا الاسكندر فإنه دخل المحراب، وكان أول سؤال للاسكندر: هل الإله أبوه سوف يهبه حكم الأرض جميعا؟ فكان الجواب: نعم سيتحقق لك هذا، وكان السؤال الثانى عما اذا كان الذين اشتركوا فى قتل أبيه فيليب قد عوقبوا؟ فيصيح المتكلم: ان هذا السؤال كفر لأن الإله أباه لا يمكن أن يؤذى.

شرعية الإسكندر فى الحكم

هل كان كهنة آمون صادقين فى اعترافهم بنسب الاسكندر إلى

أبيه آمون؟ يقول سليم حسن: كان كهنة واحة سيوة المثقفون فى كل العقائد الدينية مجبرين بحكم تقاليدهم على أن يعترفوا بأن الاسكندر ابن إلههم، وانه ولد من اختلاط جنسى حدث مع والدته ويقول ان سلوك الكهنة لم يكن عليه غبار، فالمسألة قد مثلت أمامهم بمثابة قضية منطقية غاية فى البساطة، وذلك انه كان لا يمكن أن يكون فى مصر ملوك شرعيون إلا اذا كانوا من أسرة «رع» أو أولاد «آمون» مباشرين أو غير مباشرين، فالواقع ان الاسكندر هو الملك الشرعى لمصر لأن الآلهة قد سمحوا له بأن يستولى عليها بعد أن قهر الفرس بأعجوبة، ومن ثم فإنه ينتسب إلى أسرة «رع» وانه ابن «آمون رع»، ولا يقل فى ذلك عن الملوك الذين سبقوه، فإذا قيل ان والد الاسكندر وأمه أجنبيان، فإن فطنة الكهنة كانت قادرة على حل هذه الاشكالية، فقالوا ان تاريخ مصر الحقيقى لا يقدم لنا إجابة، ولكن السوابق تثبت أن ملوك الأسرة الرابعة جاءوا من والد وأم من البشر، ولكن «رع» قد خالط الأم فأصبح أولادها من نسله.. وهكذا أفتى الفقهاء بشرعية الاسكندر رغم أصوله الأجنبية ليكون ملكا على مصر.

«هيباشيا» فيلسوفة الإسكندرية الجميلة

□ الصدام بين الوثنية والمسيحية.. قتلها.

□ جمعت بين الجمال والثقافة.. وعاشت راهبة في الفلسفة.

هل صحيح أن «الفلسفة» علم «رجالى» لم تبرع فيه المرأة لأن عقلها أقل من عقل الرجل، ولأن تفكيرها يغلب عليه الانفعال والعاطفة، ويسيطر عليها الاندفاع والتهور، مما يجعلها عاجزة عن التفكير العميق، وهو أول شروط التفلسف(!!)

إن الذين يرددون هذه الفكرة، يشهرون سجلات الفلاسفة الحافلة بمئات الرجال، ولا يعثرون على اسم فيلسوفة ارتفعت قامتها إلى مستوى سقراط أو أفلاطون أو فيثاغورس، حتى استقر هذا الوهم فى وجدان مؤرخى الفكر، ودفعهم إلى اخراج المرأة من أى مجال يحتاج إلى الرؤية الصائبة، والتدبر الحكيم، وحصروها فى المجال الأنثوى المقصور على الانجاب، ولكن البحث والتدقيق فى تاريخ الفكر الفلسفى، يدحض هذا الوهم، ويثبت أن قدرة المرأة على التفلسف لا تقل عن قدرة الرجل، ولقد عثرت فى رفوف مكتبتى على كتاب (نساء فلاسفة) للدكتور إمام عبدالفتاح إمام، الذى عمل ردحا من الزمن رئيسا لقسم الفلسفة بجامعة الكويت، وهذا الكتاب واحد من سلسلة كتب أصدرها الدكتور إمام تحت عنوان (الفيلسوف والمرأة) تناول فيها دور المرأة فى الفكر الفلسفى جميع العصور القديمة والحديثة.

المرأة رجل ناقص

ويستهل المؤلف دفاعه عن تفلسف المرأة بمناقشة المقولة التى تنتقص من القدرة العقلية للنساء، فيقول ان هذه الفكرة الساذجة من مبتكرات أرسطو ـ المعلم الأول ـ الذى كان يرى أن المرأة (رجل ناقص) ويزعم ان الطبيعة «التى لا تعمل شيئا باطلا» هى التى جعلت المرأة على هذا القدر من الدونية، وليس للعادات أو التقاليد أو أفعال المجتمع الذكورى، دخل فى تحديد هذه الدونية.

ويقول الدكتور إمام ان هذه الفكرة الخاطئة شاعت فى العالم الغربى، وتلقفها العالم العربى بغبطة ـ لحاجة فى نفسه ـ وراح يضفى عليها شيئا من القداسة رغم ما تنطوى عليه من ضلال. ويرى أننا اذا أثبتنا ـ عن طريق شواهد التاريخ ـ ان هناك امرأة واحدة تفلسفت، أو برهنت على رجاحة العقل، وصواب الفكر عندها: فإننا نهدم بذلك آلاف الأمثلة الإيجابية التى يقول بها أصحاب الفكرة الأرسطية المتخلفة التى تغمض العين عن رؤية نماذج مضيئة لنساء راجحات العقل، صائبات الفكر.. سديدات الرأى. ومنهن عشرات النساء اللاتى اشتغلن بالفلسفة أثناء ازدهار الفلسفة اليونانية.. فماذا كان نصيب مدرسة الاسكندرية الفلسفية فى هذا الخضم العميق؟!

فيلسوفة الإسكندرية الجميلة

وهنا نتوقف طويلا أمام واحدة من أبرز النساء اللاتى ازدان بهن تاريخ الفكر الفلسفى فى القرن الرابع المسيحى، ولايزال اسمها محاطا بالتقدير فى المجامع العلمية ودوائر المعارف.

إنها «هيباشيا» فيلسوفة الإسكندرية التى جمعت بين جمال الخلقة، وجمال الخلق، ورجاحة العقل، وشاء قدرها العاثر أن تظهر فى الوقت الذى فقدت فيه مدرسة الإسكندرية الفلسفية رونقها، وأغلقت أبوابها الوثنية، لتفسح المجال أمام الفكر المسيحى بعد أن اعترفت الدولة الرومانية بالمسيحية دينا رسميا، وبات

الصدام بين الوثنية والمسيحية أمرا محتوما .. وكان على «هيباشيا» أن تذهب ضحية هذا الصدام.

الفصاحة والتواضع والجمال

تلقت «هيباشيا» مبادىء العلوم عن والدها «شيون» الذى كان يقوم بتدريس الرياضيات والفلك فى المتحف، ثم دخلت عالم الفلسفة على مذهب مدرسة الأفلاطونية الحديثة التى نشأت فى الاسكندرية وانتشرت فى العالم الأوروبى، وكان لها تأثيرها فى الفكر المسيحى ثم الاسلامى فيما بعد. وتصف دائرة المعارف البريطانية «هيباشيا» بأنها فيلسوفة مصرية وعالمة فى الرياضيات، وكانت المرأة الأولى التى لمعت فى ميدان الرياضيات، واجتمعت لها الفصاحة والتواضع والجمال مع قدراتها العقلية الممتازة، فجذبت عددا هائلا من المعجبين بها. ويقول سقراط المؤرخ عنها: بلغ من رباطة جأشها، ودماثة أخلاقها الناشئين عن عقلها المثقف: أن كانت تقف أمام قضاة المدينة وحكامها، دون أن تفقد - وهى فى حضرة الرجال - مسلكها المتواضع المهيب الذى امتازت به عن غيرها، والذى أكسبها احترام الناس جميعا.

كانت «هيباشيا» تلقى محاضراتها فى المتحف أو المكتبة، فيهرع الناس إلى سماعها، ويتزاحم الشباب على محاضراتها فى الفلسفة، ربما للتزود من علمها، وربما للتمعن فى جمالها. فقد كان جمالها الأسطورى من عوامل الجذب، فلم تسلم من مضايقات ومطاردات الرقعاء من الشباب الطامعين فى أنوثتها، فكانت تصدهم بالطريقة التى تعلمتها من فلسفة أفلاطون، وهو مقاومة الشهوة بالحكمة والعلم والمعرفة، وتقول لهم ان قيمة الانسان ليست فى جمال ملامحه، ولكن فى جمال أخلاقه، فيشعرون بالخجل من أنفسهم، ويروى المؤرخون فى ذلك وقائع وأحداثا اضطرت إلى فعلها حتى يقف الشباب عند حدود الأدب.

ومن دلائل عبقرية هذه الفتاة أنها تعلمت على نفقة الدولة، وذلك شىء فريد، خاصة اذا عرفنا أن النساء لم يكن يتمتعن

بمجانية التعليم. أما الاستثناء الثانى ـ كما يذكر الدكتور إمام عبدالفتاح ـ فهو أنها عملت بالتدريس فى الجامعة وهى فى الخامسة والعشرين من عمرها، وهى استثناء واضح خاصة أن حكومة الاسكندرية كانت مسيحية (أو شبه مسيحية) فى ذلك الوقت، فى حين كانت «هيباشيا» على ديانة اليونان، مما يدل على أنها كانت متفوقة، فنعمت بالامتيازات تقديرا لعلمها وعبقريتها.

وجاءت النهاية المأساوية لهذه الفيلسوفة الجميلة نتيجة الظروف التى دفعت المسيحيين إلى مطاردة بقايا الوثنية، وتصفية الحساب مع الوثنيين الذين اضطهدوا المسيحيين، وأذاقوهم العذاب فى القرون السالفة، وكما يقول الدكتور إمام: كان المسيحيون الأول ينظرون إلى «هيباشيا» على أنها تجسيد للعلم والثقافة والفلسفة بصفة عامة، وهى أمور تتحد فى نظرهم مع الوثنية فى هوية واحدة. ثم إن «هيباشيا» كانت فى رأيهم ترتبط بعلاقة وثيقة مع حاكم المدينة الوثنى «أورستيس» الذى كان على عداء مستحكم مع كبير الأساقفة «كيرلس» السكندرى، فأصبحت هى النقطة المحورية فى التوترات وأمور الشغب التى وقعت بين المسيحيين وأعدائهم، والتى اجتاحت الاسكندرية أكثر من مرة.

ففى ليلة مظلمة من ليالى شهر مارس ٤١٥م، اعترض الثائرون عربة «هيباشيا»، فأوقفوها، وأنزلوها ثم جروها إلى كنيسة قيصرون ونزعوا ثيابها، ثم انهالوا عليها طعنا وتقتيلا.. وماتت الفتاة التى عاشت للفكر وحده، بعد أن رفضت الزواج، وترهبنت فى محراب الفلسفة، وعاشت حياة روحية تستهدف البحث عن الحقيقة، واعتنقت الحب الروحى لا الجسدى، وربما كانت قصتها نموذجا احتذى به عشرات العذراوات فيما بعد.

من بقرة السماء إلى بنات الحور

□ الانسان يعتمد على مشاعره لا عقله فى تفسير ما لا يفهمه .

□ النيل إله الخير.

من الصور التى لاتزال راسخة فى خزانة الذكريات منذ عهد طفولتى: تلك الصورة التى لا تحدث إلا فى أيام الشتاء عندما تتلبد السماء بالغيوم الداكنة، وتتصادم السحب ثم تدوى برعد مخيف، فتتخيل عقولنا الصغيرة أن معارك صاخبة تدور فى السماء بين كائنات رهيبة تلتف حول بقرة السماء وهى تعانى المخاض إلى أن تضع عجلها، وعندئذ تهطل الأمطار فنشعر بالارتياح لنهاية المعركة حتى لو كان الثمن تحويل حوارى القرية إلى أوحال. وربما تطلعنا إلى السماء عسانا نرى عجل السماء من خلال تكوينات السحب وهى تتجمع وتفترق.

وكانت نفس الخيالات تنتابنا عندما يتعرض القمر للخسوف، ويختنق نوره، فنصعد إلى أسطح البيوت، ونبدأ فى الدق على الطبول أو على الصفائح الفارغة، ونناشد «بنات الحور أن يدعن القمر يدور». أو نطلب من بنات الجنة «أن يتركن القمر يتهنى». ولم تكن ثقافتنا الساذجة ترى أى رابطة بين بنات الحور.. «وحورس».. الابن الشرعى للإله أوزوريس من زوجته وأخته الإلهة ايزيس.. وانه الرمز الملكى الذى تخيله المصرى القديم فى صورة «صقر» له عينان إحداهما تمثل «رع» إله الشمس، والثانية «حورس» إله القمر.

الآلهة السماوية والأرضية

لقد تطلع المصرى القديم إلى السماء وهو يحاول تفسير الظواهر

الطبيعية التى تحاصره فجأة مثل الأمطار والرياح والرعد والبرق والخسوف فاعتقد أن كل هذه الكائنات ليست إلا آلهة كبرى، بل هى أكبر الآلهة التى تهيمن على العالم، وأن عليه أن يقدسها ويعبدها إذا كان ينشد الراحة والسعادة لنفسه ولأهل بيته وممتلكاته، وأن يتوسل إليها إذا دهمه المرض أو الخطر، وقد تلفت حوله فوجد بعض الحيوانات المقدسة مثل التمساح والثعبان والأسد.. وهو يراها قادرة على إيذائه والفتك به، فلم يجد مناصا من الركض إليها، وعبادتها لعله يأمن شرها، كما وجد بعض الحيوانات النافعة له مثل التيس والبقرة والثور، فأدخلها فى زمرة الآلهة الصغيرة التى لا ترقى إلى مستوى الآلهة الكبرى السماوية. فهو لا يتورع عن ذبح البقرة ليأكل لحمها، ويقتل التمساح والأفعى ولا يرى فى هذا عملا يغضب الآلهة، فليس الإله مجسدا فى كل بقرة وتمساح وأفعى.. ولكنه يرمز إلى النوع وليس إلى الحيوان الفرد.

بقرة السماء

لقد اكتشفت أن تشبيه السماء بالبقرة لم يكن من وحى خيالنا الطفولى القروى، وإنما هو من موروثات الثقافة الفرعونية وصل إلينا فى القرن العشرين عن طريق التواتر جيلا بعد جيل، ولم يصل إلينا عن طريق معلم أو كتاب أو صحيفة، وإنما عن طريق التلقين الشفاهى من جيل إلى جيل رغم تعاقب القرون، وتوالى الأديان.

وحول نشأة الديانة المصرية يقول العلامة الألمانى «أدولف إرمان» إذا أراد رجل من عامة الشعب أن يفكر فى شىء لا يدركه، ولا يستطيع فهم عناصره: فهو لا يستعين فى تفكيره بالمنطق، بل يعتمد على الخيال، فهو لا يحاول أن يبحث مدققا فى ماهية السماء، وما هو كنه الأرض، بل يعمد بما له من شاعرية متوثبة أن يقارن السماء بشىء مما تعوده فى بيئته دون أن يتساءل عما إذا كان هناك أى تقارب بينهما، فهو يسمى السماء «بالبقرة». وفى ذلك لم يفكر مطلقا أن يحقق هذه المقارنة تحقيقا دقيقا، بمعنى أنه لا يتساءل: إذا كانت السماء تشبه بطن البقرة: فأين الشعر

الذى يكسوها؟ وأين الثدى؟ وأين مكان أرجلها الأربع، بل أكثر من ذلك نجد أن هذا التشبيه قد ثبتت أقدامه فى اللغة، وتعوده الشعب، ومن ثم تلقاه الفن، وأصبح الفنان لا يحاول رسم السماء إلا على إنها بقرة جميلة، دون أن يفكر فى حقيقة هذا الفضاء اللانهائى الذى يبدو للرائى كقبة عظيمة، وبهذا أصبح من المعتاد التحدث عن السماء على أنها بقرة، ورسمت باستمرار على هذا الشكل، وتعودت عقول البسطاء السذج على هذا التمثيل سواء فى اللغة أو فى الفن، واعتقدوا بالفعل أن السماء هى البقرة دون أن يحاولوا السؤال عن الشعر الذى يغطى بطنها، وعن مكان الثدى، ولم هذا التساؤل؟ مادامت المقارنة قد أعجبته، ومادامت البقرة من أجمل الحيوانات التى يحبها المصرى.

ربة السماء حاتحور

وهكذا أثرت شاعرية المصرى القديم، وغريزته الفنية على تصوراته الأخرى التى تخيلها عن العالم، وعن الآلهة التى تسكنه، فإذا حدث تطور فى الديانة المصرية، وجاء عصر تخيلوا فيه السماء على هيئة امرأة قد انحنت فوق الأرض: فإنهم يعطونها رأس البقرة، أو على الأقل يزينون رأسها الآدمى بقرون بقرة.. وهى ربة السماء «حاتحور».

وإذا كان المصرى قد تخيل السماء فى صفة الأنوثة، فإنه تخيل الأرض على أنها ذكر، والسبب فى ذلك أن كلمة السماء فى اللغة مؤنثة، والأرض مذكر، فصور إله الأرض «جب» مستلقيا على بطنه وقد نبتت المزروعات فوق ظهره، أما المرأة التى تنحنى فوق إلهة السماء «نوت» فقد اعتبرها زوجته، وأما الفضاء الذى يفصل بين الإلهين الزوجين فهو الإله «شو»، وتعنى فى اللغة «الفضاء». وقد صورته اللغة والفن على أنه رجل يقف فوق الأرض، ويسند بيديه إلهة أو بقرة السماء.

السماء فوق الجبال

ولما كانت تنقلات المصرى كلها بواسطة سفينة تقطع النيل من

أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب: فقد تخيل أن الشمس والقمر والنجوم تتحرك أيضا فى السماء فوق سفن، وفى هذه الحالة لابد أن تكون السماء بحرا خضما «هى الماء البارد» أو «البحر الذى يجرى تحت بطن البقرة الإلهة نوت». وهكذا نرى كيف انسجمت هذه التصورات بعضها مع البعض الآخر، وإذا كانت السماء عبارة عن بحر كبير، فقد بقيت فى خيال المصرى هى بطن البقرة، أو بطن الإلهة نوت، أما المطر فكان يأتى بطبيعة الحال من تلك «المياه الحية الموجودة فى السماء».

وهناك تصور آخر للسماء ينتمى إلى العصور الفرعونية الحديثة، ويتخيل المصرى فيه السماء قائمة فوق أربعة جبال، كل جبل منها يقع فى ركن من أركان العالم الأربعة، وأحيانا يتصوروها محمولة على أربعة أعمدة أو على أربع قوائم، بينما توجد الأرض مستلقية على ظهرها.

أما الأرض فقد صورها وقد أحاط بها محيط كبير «الدائرة الكبرى» وقد انقسمت الأرض إلى قسمين: أحدهما جدب «الأرض الحمراء» حيث يسكن البرابرة المتوحشون الذين يعيشون على الأمطار. والقسم الثانى فهى «الأرض السوداء»، ولم يتخيل أن هناك أرضا سوداء غير أرضه حيث تسكن الآلهة، والتى وهبها الله نيلها الفياض «الذى يجلب الخير للناس» واعتقد أن فيضانه يأتى إليه من الدنيا السفلى، فمصدره من «الماء الحى الموجود فى الأرض». وينبع من فتحتين تقعان بين صخور الشلال الأول.

وعن عبادة المصرى القديم للنيل: يرى «إرمان» ان المصرى أفسح لخياله المجال نحو تقديس النيل، تلك القوة التى تأتيه بالأعجوبة السنوية، والتى تهيمن على حياته، فلا غرابة إذا كان قد جعله واحدا من آلهته العظمى، ومع ذلك عومل النيل معاملة أخرى، فلو أنهم اعتادوا تقديم القرابين له، وتأليف الأناشيد لتمجيده: إلا أنهم لم يضعوه فى ذلك المستوى الذى وضعوا فيه آلهتهم الأخرى، وإذا كانوا قد لقبوه فى بعض أناشيدهم «بأبى الآلهة». فإن هذا اللقب قد استعاره من الإله «نون» رب المياه الأزلى، والسبب أنه قد ذكر فى نص

دينى على أنه «هو الذى يذهب فى وقته ويأتى فى وقته، الذى يحضر المأكل والمؤن، وهو الذى يأتى بين الأفراح، المحبوب جدا، رب الماء الذى يجلب الخضرة، يتفانى الناس فى خدمته، ويحترمه الآلهة، هو إله صغير خلقه «رع» من أحسن عناصره.

وفى مكان آخر قالوا عن النيل، وقد أعطوه بعض صفات أوزيريس: «كل من يرى النيل فى فيضانه تدب الرعشة فى أوصاله، أما الحقول فهى تضحك، وأما الشواطىء فتكسوها الخضرة، وتتساقط هدايا هذا الإله، وتعلو الفرحة وجوه البشر، أما قلوب الآلهة فتخفق من السعادة».

ومن الغريب أن النيل قد تبوأ بين الآلهة منصب الخادم لهم، فصوروه على جدران المعابد فى زى بحار أو صياد سمك على هيئة بشر نصفه أنثى، والنصف الآخر ذكر يقدم منتجاته إلى الآلهة الأخرى وله ذقن وثديان كبيران.

العالم السفلى

وهناك قسم ثالث للعالم غير السماء والأرض، وهو العالم السفلى حيث يخيم الظلام ويعيش الموتى، وتغيب فيه الشمس فى المساء، وتعبره طوال الليل لتشرق فى الصباح التالى، ومعنى ذلك أن هذا العالم السفلى لابد له من نهر عظيم تجتازه سفينة «رع» كما تجتاز السماء فى النهار، وقد رأى المصرى فى العالم السفلى سماء أخرى تعادل سماء الأرض، ولو أنها تمتاز بالظلام «تصعد إلى السماء العلوية وتنزل إلى السماء السفلى».

وكانت الشمس أهم ما استرعى نظر المصرى فى السماء، فعرف الإله «رع» أهل مصر فى الشمال والجنوب، فتخيلوها ذلك القرص الأحمر المتوهج الذى يعبر السماء فى قاربه، ثم لعب الفن، وما امتاز به العقل المصرى من خيال خصب، دوره المهم فى تصويره هذا الإله على أشكال مختلفة، فمرة هو الجعران الذى يدفع قرص الشمس أمامه، ومرة هو العجل الذهبى الذى تلده أمه بقرة السماء فى الصباح، وينمو فى النهار حتى يصبح نورا إلى أن يختفى العالم السفلى أثناء الليل.

«شنودة» مؤسس الكنيسة الوطنية المصرية

□ كنيسة الأسكندرية اتجهت جنوبا حيث الفلاحين والعمال البسطاء.

□ كانت كنيسة الأسكندرية هى المعبر عن الشعب المصرى!

□ الكنيسة قادت النهضة الوطنية بمزج الحاضر بالقديم!

لم تكن كنيسة الإسكندرية منذ نشأتها، حصنا للديانة المسيحية فقط، بل كانت قلعة للدفاع عن الوطنية المصرية ضد التيارات الأجنبية التى هبت عليها من روما وبيزنطة، ولعبت هذه الكنيسة دورا تاريخيا فى إذكاء روح المقاومة المصرية ضد الاحتلال الاغريقى والرومانى، مما جعلها هدفا للاضطهاد فى العهدين الرومانى والبيزنطى، فقد وجدوا فى المسيحية تحديا سافرا للمعتقدات الوثنية التى كانت تسود الإسكندرية، وكان القديس مرقص أول المبشرين بالمسيحية فى مصر، وأول الشهداء، حيث هاجمه الغوغاء الوثنيون وجروه بالحبال إلى معبد سيرابيس مركز الوثنية الاغريقية وفتكوا به.

كانت الاسكندرية، عند ظهور المسيحية، اغريقية أكثر منها مصرية، وكانت اللغة اليونانية ـ وليس القبطية ـ لغة الغالبية من المصريين، وتأثرت المدرسة اللاهوتية المسيحية بالفلسفة الاغريقية التى كانت لها السيادة على دول حوض البحر الأبيض المتوسط، وبقى الريف المصرى محافظا على تراثه القديم وجعل من هذا التراث خطا للدفاع عن الأمانى القومية، والتطلع إلى الاستقلال عن الهيمنة الأجنبية، ومنذ نهاية القرن الرابع الميلادى بدأ النفوذ البيزنطى ينحسر أمام المد المسيحى، وأخذت المعابد الوثنية تغلق

أبوابها وتتحول إلى كنائس، وظهرت بوادر الإحياء القومى فى الفن والأدب، وحيازة الكنيسة لمساحات شاسعة من الأرض تقوم على زراعتها الأديرة ورهبانها، وتمنح الحماية للفلاحين الفقراء كما يتضح من سيرة الأنبا شنودة الأتربى مؤسس الدير الأبيض فى اقليم سوهاج.

رئيس الموحدين

عن سيرة الأنبا شنودة يقول الدكتور زكى شنودة فى موسوعة تاريخ الأقباط أن شنودة من مواليد قرية شندويل بمديرية جرجا، وكان خاله الأنبا «بجول» قد أسس الدير الأبيض فى الصحراء الغربية المقابلة لاخميم، وبعد وفاة الخال خلفه ابن اخته شنودة، ويلقب برئيس الموحدين، ويذهب البعض انه المؤسس الحقيقى للكنيسة القبطية لأنه بذل مجهودا عظيما فى محاربة الوثنية واقتلاع خرافاتها من الكنيسة، وكان واعظا بليغا، وكاتبا مقتدرا، وترك من الرسائل باللغة القبطية ما يعتبر تراثا أدبيا ثمينا.

مؤسس الكنيسة الوطنية

وتحت عنوان «شنودة مؤسس الكنيسة الوطنية المصرية» كتب الدكتور سيد أحمد على الناصرى، بحثا نشر ضمن فصول كتاب «الدور الوطنى للكنيسة المصرية عبر العصور» الصادر فى سلسلة «تاريخ المصريين» تحت إشراف الدكتور عبدالعظيم رمضان، وفيه يقول ان الأنبا شنودة ظهر فى عصر ساد فيه شعور المصريين بالضياع بعد أن ابتعدوا عن جذورهم الحضارية، ولم يكن فى استطاعة المصريين زعزعة الاحتلال الأجنبى إلا بإحياء تراثهم وحضارتهم. ومنذ القرن الخامس اتخذت كنيسة الاسكندرية لنفسها طريقا مستقلا أدى إلى طردها من مجمع الكنائس الذى عقد فى فلقدونية عام ٤٥١م، وبعدها أدارت كنيسة الاسكندرية ظهرها إلى كنيسة القسطنطينية وكنائس البحر الأبيض المتوسط، وبدلا من أنها كانت تتجه شمالا إلى عالم البحر المتوسط:

استدارت لتتجه جنوبا حيث العراقة والحضارة وجموع الفلاحين الفقراء والبسطاء المعادين لتيار الحضارة الاغريقية لتستمد منهم العون والتأييد، بل ان كنيسة الاسكندرية خلعت الثوب الاغريقى وبدأت ترتدى الثوب المصرى الوطنى، فنبذت اللغة الاغريقية - لغة الشعائر والصلوات فى كنيسة القسطنطينية - وأحلت محلها اللغة القبطية، وذلك على يد القديس شنودة رئيس الدير الأبيض.

إحياء حضارة الماضى

لقد تحولت كنيسة الاسكندرية منذ طردها من مجمع فلقيدونية لتعبر عن الأمانى الوطنية للمصريين، وتتبنى قضيتهم وفكرهم ولغتهم الجديدة التى تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وأصبحت ممثلة لأمانيهم الوطنية فى الاستقلال والتحرر، وبعث حضارة الماضى التليد بمفهوم وفكر دينى جديد، فبينما كان فلاسفة كنيسة الاسكندرية فى القرنين الأول والثانى مثل أوريجان وكليمان لا يعيرون الفكر المصرى الوطنى أى اهتمام، لأنهما عاشا وفكرا فى مدينة الاسكندرية التى لم يعتبرها سكانها إنها مدينة مصرية، بل متاخمة لمصر، ولم يغادراها قط للتجول فى مدن مصر، وكتبا أبحاثهما باللغة اليونانية التى لم يكن يعرفها إلا فئة قليلة من السكان المنحدرين من أصول اغريقية: نجد كتاب المسيحية منذ القرن الخامس يتجهون إلى التراث القومى المصرى لإنتاج أدب قومى قبطى بلغة وطنية، بل تأثروا فى ذلك بالديانة المصرية الوثنية مثل كتاباتهم عن رحلة الروح إلى العالم الآخر، وكذلك فى تعاليم الأديرة، وفى أعمال وكرامات النساك والزهاد مثل صراعهم مع الأرواح الشريرة، والتغلب عليها وطردها، وكلها تحمل جذور معتقدات شعبية مصرية عريقة الجذور مستمدة من الريف الذى ظلم كثيرا فى عهود الرومان والروم، وذلك لأن أغلب الذين كتبوا هذه الأعمال كانوا رهبانا من أبناء الفلاحين المصريين البسطاء، ولذا اعتبر بعض النقاد ان هذا الأدب الكنسى أقرب إلى الأدب الشعبى، أو أدب الطبقات الدنيا فى السلم الاجتماعى.

الانفتاح على الحضارات

ويرى الدكتور الناصرى ان ذلك الإتجاه لا ينعكس فحسب فى الأدب الكنسى، بل نجده أيضا فى الفن القبطى الذى استعار كثيرا من الفن المصرى القديم، كما استعارت العمارة القبطية الكثير من الطرز والأساليب المعمارية التى كانت سائدة فى ولايات الامبراطورية الرومانية الشرقية مثل: الفارسية والسوريانية والأرمينية والتدمرية إلى جانب تيار الفن الهلينستى والرومانى، وأصبح الفن القبطى «توليفة» من هذه الفنون الممزوجة بالفن المصرى، وهذا لا يدل فحسب على الإتجاه نحو الانفتاح على الحضارات المجاورة، بل يدل على أن النهضة الوطنية المصرية التى قادتها الكنيسة لم تكن «عنصرية» بل فتحت نفسها لتضم إليها الأقليات غير المصرية التى تأقلمت وعاشت مع المصريين وامتزجت بهم، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح للفن المصرى القبطى ملامح ثابتة ومعروفة، وكما كان الفن الفرعونى الوثنى ملتزما بقواعد ونظم فنية مستمدة من العقيدة الدينية، ولا يجوز له الخروج عنها: نجد الفنان القبطى أيضا ملتزما بقواعد وأصول مستمدة من العقيدة، كما نلحظ ذلك فى فن الأيقونات والرسم على الجص وغير ذلك من أعمال الفنون.

أبنائى الأعزاء

فى تلك المرحلة من تاريخ مصر: يميز المؤرخون بين قطاعين من السكان، فغالبية مصرية خالصة من الفلاحين البسطاء، محدودى الثقافة، ولا يتحدثون اللغة الاغريقية، ويتمسكون بلغتهم الجديدة، القبطية بلهجاتها الأربع: الصعيدية والأخميمية والفيومية والبحيرية، ويعتنق أغلبهم المسيحية، وبين أقلية وثنية مثقفة ثقافة عالية، وتتحدث الاغريقية، وتقرأ مؤلفاتها الأدبية الكلاسيكية كنوع من الاستعلاء والتمدن الحضارى، وتسكن فى المدن خاصة الاسكندرية - معقل الوثنية الحصين - وهذه الطبقة

الأخيرة هى التى هاجمها القديس شنودة، وحمل عليها بشدة لأنها تملك الأرض والثروة، بينما هم يمثلون غالبية الفلاحين الفقراء البسطاء، لأنه هو نفسه ابن فلاح فقير، ولد فى أخميم وكانت فى ذلك الوقت إحدى عواصم الأقاليم المصرية المتأغرقة، مما أتاح له الإلمام بقدر ضئيل من اللغة الاغريقية الدارجة، لكنه لم يعشقها، بل تمسك بلغة أجداده الفلاحين المصريين، فجعل من القبطية - لأول مرة - لغة الطقوس والشعائر والصلوات داخل ديره الشهير بالدير الأبيض، وذلك منذ تولى رئاسة الدير وحتى وفاته فى عام ٤٥١م، وكان كل أتباعه من الفلاحين الفقراء بعد أن فتح أبواب الدير للتائبين - الخطاة والعصاه والخارجين عن القانون، وتحول إلى المسيحية على يديه عدد كبير من الوثنيين، وكان ينادى كل أتباعه «بأبنائى الأعزاء». وكان شجاعا لم يتردد فى مهاجمة السلطة الرومية البيزنطية الحاكمة، وعملائهم من رجال الاقطاع وشاغلى المناصب العليا وقادة الحاميات. وبذلك كان أول صوت وطنى مصرى يخرج لأول مرة من أعماق الوادى منذ الفلاح الفصيح.

شخصية مصر الوطنية

ونتيجة لهذه الصحوة المتأخرة اكتملت شخصية مصر الوطنية فى القرن الخامس، فالمعبد الفرعونى تحول إلى كنيسة أرثوذكسية، وأصبحت الكنيسة المصرية كنيسة وطنية مصرية قادرة على التصدى لكنيسة القسطنطينية التى حاولت فرضها على مصر بالقوة، وازدادت الهوة بين مصر - الأمة والكنيسة - وبين الامبراطورية البيزنطية، وحتى الفتح العربى الذى أنهى إرتباط وتبعية مصر للقسطنطينية، وأعاد إلى الكنيسة المصرية الأرثوذكسية حقوقها وسيادتها.

ولم تكن هذه اليقظة المتأخرة للمصريين لتحدث لولا المبادىء التى وضعها القديس شنودة الأتريبى.

المرأة المصرية قديما وحديثا

☐ شفيقة محمد.. شهيدة روت بدمها شجرة الحرية المصرية .

☐ رفع القدماء المرأة إلى مرتبة «الألوهية».

تحتفل مصر كل عام فى يوم (١٦ مارس) باليوم القومى للمرأة، ففى مثل هذا اليوم من عام ١٩١٩ شهدت مصر لأول مرة فى تاريخها مظاهرة النساء احتجاجا على اعتقال ونفى الزعيم سعد زغلول، فلم تتخلف المرأة عن الرجل فى مقاومة الاحتلال البريطانى، وخرجت المظاهرة من جاردن سيتى إلى بيت الأمة وهى تضم ٣٠٠ سيدة من فضليات المجتمع وسرن ماشيات تتقدمهن ستة أعلام مكتوب عليها شعارات تطالب بالاستقلال وطرد الاستعمار، وتصدت لهن جحافل القوات البريطانية وهن صامدات. وطوال الأيام التالية تكررت مظاهرات النساء حتى كانت المظاهرة الكبرى يوم ١٠ ابريل فاقتحمت دار المعتمد البريطانى فى قصر الدوبارة، وتقدمت شفيقة محمد، المدرسة ذات العشرين ربيعا فاخترقت الحصار وسلمت المعتمد احتجاجا مكتوبا، وما ان غادرت غرفته، وخرجت إلى ساحة السفارة، حتى انهالت عليها طلقات الرصاص، فكانت أول شهيدة روت بدمائها شجرة الحرية إلى جانب مئات الرجال.

وقد ترجم شاعر النيل حافظ ابراهيم موكب النساء فى قصيدة رائعة مطلعها:

خرج الغوانى يحتججن ... فمشين فى سمت الوقار
ورحت أرقب جمعنه ... ودار «سعد» قصدهنه

مرتبة الألوهية

ونحن نقلب صفحات التاريخ المصرى: تصادفنا المرأة وقد احتلت مكانا رفيعا فى المجتمع، لم تصل إليه النساء فى المجتمعات القديمة، فهى شريكة الرجل فى عملية الخلق، ولولاها ما كان مولود، لأنها الكائن الذى يحتضن البذرة حتى تنمو فى أحشائها ثم تخرجها إلى الوجود خلقا سويا، وعن طريقها تتجدد الحياة، ويعمر الكون، مثلما تتفتح الأرض الخصبة عن نبت وخضرة. ولذلك رفعها القدماء إلى مرتبة الألوهية. ونجد ذلك فى شخصية «ايزيس» زوجة «أوزوريس» وأم حورس. فقد طبقت شهرتها آفاق العالم على مر العصور والأجيال، وإذا كان العالم الرومانى قد أقام لها المعابد، فلايزال بعض الجماعات فى أوروبا وأمريكا تمارس عبادتها، لأنها رمز الوفاء والاخلاص وهى التى جمعت أشلاء زوجها الحبيب بعد أن مزقه أخوه الشرير «ست» حتى عادت إليه الحياة كما يعود النيل إلى فيضانه، وتعود الأرض إلى خصبها.

امرأة تقود النضال

ولا تخلو صفحة من صفحات تاريخنا القديم من اسم امرأة عالية القدر والمقام. وأتوقف دائما أمام (إياح حتب) التى ظهرت فى فترة من أشد فترات التاريخ حرجا، عندما ضاق الناس من فظائع «الهكسوس» الرعاة الأجلاف الذين سيطروا على مصر طوال قرنين، وأسقطوا نظامها السياسى، وفتحوا أبواب البلاد لبنى اسرائيل. ومن أعماق الصعيد تولدت شعلة التحرير للخلاص من هذا الاحتلال البغيض، ودفعت «إياح حتب» زوجها العظيم الأمير «سقنن رع» ليقود الجيش الوطنى لطرد الهكسوس، وظل يطاردهم حتى تحصنوا فى عاصمتهم «أواريس - صان الحجر». وعندئذ تدخلت يد الخسة والدناءة فاغتالت الأمير البطل وهو فى حومة الوغى، ولم تستسلم الأميرة المصرية الشجاعة، ودفعت ابنها «كامس» ليحمل راية النضال الوطنى بعد أبيه حتى آخر نبضة من

حياته، ولم تستسلم «إياح حتب». وقدمت ابنها الثانى «أحمس» لكى يواصل مسيرة أخيه وأبيه، حتى كتب له النصر المؤزر، وطهر البلاد من رجس الهكسوس، واستعادت مصر وجهها المشرق بفضل امرأة نبتت من التراب الشعبى.

وسام الذبابة الذهبية

وتتويجا لهذا النصر منح أحمس أمه «الملكة إياح حتب» وسام الذبابة الذهبية، وهو أعلى وسام فى الدولة المصرية، وبذلك أصبحت المرأة الوحيدة فى تاريخ العالم القديم كله التى تحمل هذا الوسام العسكرى، والذى يقول عنه المؤرخ الراحل مختار السويفى انه لا يمنح إلا لأعظم قادة الجيوش الحربية، وذلك اعترافا بكفاح هذه المرأة المصرية العظيمة، وقدرتها على إدارة شئون الدولة، وفضلها فى بث روح الوطنية المصرية فى طول البلاد وعرضها.

من بنات الشعب

ومن النساء الشهيرات فى العصر الفرعونى الملكة «تى» ولم تكن سليلة الملوك، وإنما من بنات الشعب، وجاءت من أبوين يعيشان فى أخميم. وكان أبوها ضابطا بالجيش، وترقى حتى حصل على رتبة «قائد العجلات الحربية» - أى سلاح الفرسان - أما أمها فكانت كاهنة فى معبد الإله «مين». مما أتاح للفتاة أن تحصل على قدر من الثقافة. ولما كانت تتمتع بقدر كبير من الجمال فقد اختارها الملك «امنحوتب الثالث» - الأسرة الثامنة عشرة - زوجة له، معارضا بذلك التقليد الفرعونى الذى كان يقضى بأن تكون الملكة من ذوات الدماء الزرقاء، وأثبتت الملكة «تى» أنها كفء لهذا الزواج الملكى، وكانت صورة مشرفة لزوجها الذى كان يدير الامبراطورية المصرية بعد أن اتسع نفوذها وسلطانها فى منطقة الشرق الأوسط، فلما تدهورت صحة زوجها قامت هى بدور الوصية على شئون الامبراطورية حتى قام بالحكم ابنها «اخناتون»، فلم تسايره فى ثورته الدينية ضد عبادة الإله آمون، وظلت قابعة فى عاصمة ملكها

«طيبة» ولم ترحل معه إلى تل العمارنة حيث أقام اخناتون مع زوجته الجميلة نفرتيتى، ولأنها كانت بعيدة النظر، وترى أن هذا الانقلاب ستكون له عواقب وخيمة على وضع مصر السياسى والدينى. وقد تحققت كل ما كانت تتوقعه، فقد انهارت الامبراطورية. وحدث الانقلاب المضاد، وعادت السيادة لكهنة آمون، وانقشعت عبادة اخناتون.

درة النساء

وهناك الملكة «حتشبسوت» ومعناها: درة النساء الشريفات. وكانت تتمتع بشخصية متحكمة قوية، وتتشبه بالرجال فى زيها، وجلست على عرش الرجال وصية على أخيها الصبى «تحتمس» وانحازت حتشبسوت إلى تيار السلام الذى كان يعارض رجال المؤسسة العسكرية، وهناك نص مكتوب على جدران معبد الدير البحرى تقول فيه «يعلم الإله أننى سوف أحكم الأرضين وليس لى أعداء فى أى أراض أخرى». وبعد أن ساد السلام خرجت القوافل والأساطيل تحمل المصنوعات المصرية إلى البلاد الأجنبية، وتعود بما تحتاجه مصر من سلع.

وهى التى انشأت معبد الدير البحرى الذى أقيم فى حضن الجبل على الشاطىء الغربى للنيل فى مواجهة الأقصر، وهو معبد فريد فى تصميمه وليس له نظير فى العالم القديم، وعلى جدرانه دونت حتشبسوت وصفا لبعثتها البحرية الشهيرة إلى بلاد «بونت» - الصومال - وكانت البعثة تضم عددا من الرسامين والفنانين الذين قاموا بدور الصحفيين لوصف مشاهد الرحلة على حد تعبير الأستاذ السويفى.

ذات الحب العظيم

أما جميلة الجميلات «نفرتيتى» فقد جلست على العرش بعد وفاة زوجها «اخناتون». وتولت الوصاية على «توت عنخ آمون». ومن الأوصاف التى خلعها عليها زوجها «إنها مليحة المحيا، مبهجة

بتاجها، تلك التى اذا أصغى الانسان إلى صوتها طرب، إنها سيدة الرشاقة، ذات الحب العظيم، الجديرة بالمرح، ذات الحسن، حلوة الحب، جميلة الوجه، رائعة الجمال التى يحبها الملك، سيدة السعادة، وسيدة جميع النساء.. نفرتيتى.. الجميلة جمال آتون».

وتدل جميع النقوش التى صورتها مع زوجها وبناتها الست على مدى الحب الأسرى والروابط العائلية التى كانت تحكم العلاقات داخل هذه الأسرة الملكية، وكانت تلك طبيعة الأسرة المصرية فى جميع مستوياتها. فقد كانت العلاقة العائلية مقدسة لأنها الأساس الذى قام عليه المجتمع المصرى، وحقق له التماسك والترابط فى جميع العصور.

بوركهارت: رحالة إنجليزى فى عصر محمد على

☐ رغم احتضان محمد على له.. فانه يراه حاكم ظالم.

☐ كان بوكهارت صوت معبر عن أحوال المواطن المصرى خمسة فقط!

يعرف كتاب التاريخ المصرى الحديث اسم «بوركهارت» الرحالة الانجليزى الذى جاء إلى مصر فى مطلع القرن التاسع بتكليف من الجمعية الافريقية فى لندن لدراسة أحوال مصر السياسية بعد أن فقدت انجلترا نفوذها فى مصر، ولم تفقد اهتمامها بالتطورات الجديدة بعد أن آل حكم مصر إلى محمد على، وهزيمة أصدقائهم المماليك. ومكث «بوركهارت» خمس سنوات فى مصر تجول خلالها فى كل أنحاء البلاد من شمالها إلى بلاد النوبة، واختلط بالأوساط الشعبية، وترك لنا دراسات علمية أهمها كتابه عن العادات والتقاليد المستقاة من الأمثال الشعبية التى يرددها المصريون للتعبير عن أحوالهم الاجتماعية. وأنفق الرحالة بوركهارت كل أيام إقامته فى مصر فى البحث والتقصى، إلى أن سقط صريع المرض ولم يتعد الرابعة والثلاثين من عمره، ودفن بالقاهرة تحت اسم «الحاج ابراهيم بن عبدالله» بعد أن صار مسلما.

ولم يكن بوركهارت إنجليزيا، فهو سليل أسرة سويسرية نبيلة، وتلقى تعليمه فى لوزان على أيدى مدرسين خصوصيين، ثم درس القانون والفلسفة والتاريخ فى الجامعات الألمانية، وبعد عودته إلى لوزان وجد أن الأوضاع السياسية لا تشجع على البقاء، فهاجر إلى

لندن، وعانى شظف العيش حتى أنه اضطر إلى الصوم، والاكتفاء بالخبز والجبن لمواجهة الفقر والحرمان. وابتسمت له الظروف عندما التقى بالسير «جوزيف بانكى» رئيس الرابطة الافريقية التى تأسست عام ١٧٨٨ فرشحه لمتابعة دراسته فى جامعة كمبردج حيث تعلم اللغة العربية وتلقى دروسا فى علوم الفلك والطب والكيمياء والجراحة. ولم يكن هذا التكوين العلمى إلا بقصد تهيئته كى يشد الرحال إلى الشرق ليمد الجمعية البريطانية بالمعلومات التى تخدم مصالح الامبراطورية، فتوجه إلى مالطة ومنها إلى حلب ومعه توصية من شركة الهند الشرقية، ومكث فى حلب ثلاث سنوات، فأتقن اللغة العربية. وتعرف على أسلوب حياة الشرقيين، وارتدى الزى الشرقى واعتنق الإسلام.

متعة التجول فى الشرق

فى عام ١٨١٢م غادر بوركهارت دمشق متوجها إلى مصر عن طريق فلسطين، متنقلا على الدواب، وأحيانا على القدمين، ورغم المشاق فإنه يعترف بأن السفر إلى الشرق أكثر متعة من التجول فى أوروبا حتى لو كان الإنسان وحيدا، ويرى ان وطأة الشمس الحارقة ولدغ الحشرات له سحره الخاص.

يقول الدكتور ابراهيم أحمد شعلان فى ترجمة حياة بوركهارت أنه لم يكد يلتقط أنفاسه بعد وصوله إلى القاهرة، حتى شد الرحال إلى الصعيد الأعلى، وتوغل حتى بلغ النوبة حيث رصد معابد رمسيس الثانى، ثم ذهب إلى الحجاز حيث التقى بعزيز مصر محمد على فى الطائف ثم وصل إلى مكة وأدى فريضة الحج، ثم سافر إلى المدينة المنورة، وهناك أصابه مرض الحمى، فنقل عائدا إلى مصر حيث وافته المنية فى عام ١٨١٥.

معارض لسياسة محمد على

كان لبوركهارت رأى واضح من سياسة محمد على، علما بأنه كان يتمتع بحمايته، ويحمل توصية منه ومن ابنه ابراهيم باشا

ساعدته كثيرا فى تجواله ببلاد النوبة والسودان.

ففى الدراسة التى أجراها بوركهارت على الفلاحين فى (اسنا) كشف فيها عن الوضع المزرى لحياة الفلاح المصرى فى عصر محمد على، ويعلق بوركهات على الأمثال الشعبية التى كانت تصور معاناة الفلاحين، فعن المثل المصرى «فدان يكرم بقصبة» يقول: هذه القصبة تغيرت غالبا، فقد تناقص طولها للاحتيال على الفلاحين، ويقتطع منها بوصة كل سنتين، والفلاح الفقير لا يدرك هذا الاقتطاع فى وقته، لكنه اكتشف الآن (١٨١٧م) ان القصبة المستعملة فى قياس الأرض أصبحت ثلاثة أرباع القصبة التى كانت تستخدم منذ اثنتى عشرة سنة تحت حكم المماليك، بالرغم من ان الفدان الذى يدفعون عنه الضرائب مازال يحتوى على نفس عدد القصبات.. وهذه واحدة من الحيل العديدة والقياسات السرية التى ينقص بها دخل الفلاح الضئيل أصلا، دون التعرض للوم أو المؤاخذة على النهب المكشوف. ومن الأمثلة التى سجلها بوركهارت «من لا يرضى بحكم موسى، رضى بحكم فرعون»، ويعلق عليه بقوله: هذا المثل يدل على هؤلاء الذين كانوا يكرهون المماليك، وهم الآن يخضعون لحكم محمد على الجائر، ومثل آخر: «يبنى قصر.. ويهدم مصر» ويعبر عن شدة السخط على محمد على الذى بنى القصور والفيلات.

اختبار فى صحة إسلامه

ويعلق الدكتور ابراهيم شعلان: وعلى الرغم من احتضان محمد على لهذا الرحالة الشاب، إلا أنه يرى ان محمد على قفز إلى دست الحكم عن طريق التآمر، ولم يكن محمد على يأمن بسذاجة لهذا الأوروبى الذى كان على صلة بانجلترا ـ خصمه اللدود ـ والتى كانت تحوم حول مصر للاستيلاء عليها، وكان محمد على على وعى بالأطماع الإنجليزية، ولهذا أراد أن يختبر صحة إسلام هذا الشاب الانجليزى، فدفع باثنين من أكبر علماء الحجاز ليمتحناه وليعرفا مدى علمه بالقرآن، ومبلغ فهمه للشريعة الاسلامية، وكانت

النتيجة اقتناع الممتحنين بصحة إسلامه.

وعندما سافر بوركهارت إلى الحجاز زار محمد على فى بيته فى الطائف، وعندما وصل إلى المدينة كانت جيوش محمد على تقاتل الوهابيين، ويقول «جان بولينى»: إن هذا الوضع قد أثار مخاطر جمة، حيث اهتم «بوركهارت» بثورة الوهابيين فى الصحراء.

مذبحة القلعة

ويعلق «بوركهارت» على مذبحة القلعة فيقول: لقد ذبح محمد على من المماليك فى القلعة ١٢٠٠ فرد مع انه أمنهم على حياتهم بأغلظ العهود والمواثيق، وان ابراهيم باشا أدار مذبحة أخرى للمماليك فى الصعيد وذلك بعد سنة من مذبحة القلعة، وذلك بعد أن غرر بهم.. وان مثل هذا النكث للعهود يقع بين الترك كل يوم، وأعجب من ذلك أنك لاتزال تجد من الناس من بلغت بهم الغفلة مبلغا يوقعهم فى فخاف كهذه.

ولاشك أن علاقة بوركهارت بمحمد على قد ألقت بظلالها على تحركه طوال ترحاله فى النوبة والسودان، حيث كانت الظروف تحتم عليه لقاء حكام الولايات، وعناصر المماليك الهاربين من وجه محمد على، وهى ظلال سلبية، فعندما وقع فى مشكلة مع «أغا» فى سواكن، وكان هذا الأغا يريد الاستيلاء على بضاعة لبوركهارت بحجة أنه جاسوس، أبرز بوركهارت فرمانات محمد على وابنه ابراهيم، وعندئذ تحول الأغا إلى الاستعطاف وطلب السماح.

لم يضعف أمام السلطان

يقول الدكتور شعلان: علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن هذه التقارير لم تنشر فى حياة بوركهارت، وبالتالى لم تصل إلى يد محمد على إلا بعد وفاته، كما أن هذه الوثائق فى مجملها، فضلا عما تحتويه من معلومات قيمة عن هذه الفترة: فإنها من ناحية أخرى تكشف عن معدن هذاالشاب الذى لم يضعف أمام حماية

أسبغها عليه محمد على، فلم يتنازل عن حياديته، ولم يترك مشاعره لكى تشوش على تفكيره، كما أنها تعطى إعجابا وثقة فيما سجله.. وهذه النصوص فى مجملها تكشف عن أن بوركهارت لم يكن راضيا عن سياسة محمد على، وهو بذلك يعكس رؤية جماهيرية، وهو عندما يتحدث عن هذه السياسة: يكاد يحس القارىء أنه فرد من الجماهير التى اضيرت من أفعال محمد على، ويهاجمه كما لو كان يدافع عن مصلحته الخاصة.. ولنتذكر تعبيرات: «النهب على المكشوف ـ نكث العهود ـ التغرير، الحكم الجائر.. الخ» وهو فى ذلك يعبر عن رأى عام سائد بين المصريين، رغم انه كان ينظر إلى علاقة الحاكم بالمحكوم من الخارج.

مؤلفات بوركهارت

لقد ترك لنا الرحالة بوركهارت مجموعة من الدراسات ظهرت فى كتب تضمنت مشاهداته فى الديار الاسلامية وهى: أسفار فى النوبة ـ أسفار فى سوريا والأراضى المقدسة ـ أسفار فى الجزيرة العربية ـ ملاحظات عن البدو الوهابيين. إلا أن ما يهمنا من هذه الكتب: كتابه عن العادات والتقاليد عن المصريين المحدثين مسجلة من أمثالهم فى القاهرة، بعد أن وقع فى يده كتاب من التراث المصرى لمؤلف من القرن الثامن الهجرى اسمه شرف الدين بن أسد. وجعل من هذا الكتاب أساسا لدراسته عن المجتمع المصرى..

رحلة «نيبور» إلى مصر فى القرن الثامن عشر

□ الدلتا قديماً كانت ضيف الدلتا الحالية.

□ حكاية «نقطة» السماء فى فيضان النيل!

بعد اكتشاف العالم الجديد. انفتحت شهية الرحالة الأوروبيين لاكتشاف العالم القديم، فجابوا أنحاء الشرق للتعرف على تضاريسه ومناخه وطرقه البرية والبحرية، واختلطوا بسكانه لرصد أخلاقهم وعاداتهم وظروف معيشتهم وجمع المعلومات عن نقاط ضعفهم، ولم يكن هذا النشاط خالصا لوجه العلم، إنما كان يخفى وراءه أهدافا استعمارية، والتمهيد للسيطرة على تلك البلاد الغنية ونهب ثرواتها، وفتح أسواقها أمام المنتجات الأوروبية، وتعتبر بعثة «كارستن نيبور» إلى البلاد العربية حلقة فى سلسلة الرحلات التى انطلقت من الدنمارك بغرض البحث عن تفسير واقعى لنصوص الكتاب المقدس، وتشكلت البعثة من خمسة علماء متخصصين فى الجغرافيا والطب والطبيعة والرسم. ورغم ان أربعة منهم لاقوا حتفهم أثناء الرحلة، فقد عاد نيبور إلى بلاده وسجل وقائع الرحلة فى كتاب ضخم ترجمه الدكتور مصطفى ماهر من الألمانية، وتضمن الكثير من المشاهدات والوقائع خلال تلك الرحلة التى استغرقت عامين فيما بين ١٧٦١ و١٧٦٢.

يقارن «نيبور» بين المدن والقرى المصرية التى زارها بالمقارنة مع مواقعها كما وردت فى كتب الجغرافية القديمة، ويرى ان أسماء غالبيتها تعرضت لتغيرات عظيمة حتى يستحيل تحديد موقعها

الآن، أو تحولت إلى كيمات خالية من السكان، وكما ان الاسكندرية زاحمت منف، ثم زاحمت الفسطاط الاسكندرية، وزاحمت القاهرة الفسطاط، وطردت الواحدة الأخرى، كذلك تعرضت بقية المدن المصرية القديمة الأخرى للموت، ونشأت مكانها مدن جديدة عاد النسيان فطوى الكثير منها.

ويعزو «نيبور» هذا التطور إلى التكوين السياسى للبلاد، أو إلى اتحاد الناس وتضامنهم أو نشاطهم وجهودهم، حتى الدلتا نفسها تغيرت، فهيرودوت يذكر أن «بوسيرس» (وهى أبوصير الحالية) تقع فى وسط الدلتا، ومعنى هذا ان ذلك الجزء من مصر الذى كاد يسمى فى العصور القديمة «الدلتا» كان فيما مضى أوسع بكثير من الآن، ولم يعد هناك من سبيل إلى مقارنة العدد الحالى للمدن فى مصر بعدد تلك التى كانت فى العصور القديمة، ولا ينبغى للانسان أن يدهش لذلك: فقد عمل الفرس والاغريق والرومان والعرب، وأخيرا الأتراك، وكلهم من الأمم الأجنبية التى حكمت مصر، عملوا على تخريب مصر، وسحبوا منها فى كل عام الأموال الكثيرة، وقطعوا على أهلها سبل الحياة، حتى انتهى أمر البلاد حتما إلى الانكماش شيئا فشيئا، وقل ما بها من الناس والمدائن.

وإذا كان من الصعب تحديد مواقع غالبية المدن المصرية القديمة، إلا انه من الممكن أن يعثر الباحث فى بعض الأقاليم على جميع السدود الكبيرة التى أقامها المصريون القدماء إتقاء لفيضان النيل، حتى ولو كانت قطعا صغيرة من الجرانيت، ذلك أننا لا نجد فى مصر السفلى سوى القليل من الآثار القديمة الرائعة، فقد غطى الطمى غالبية هذه الآثار، وقام الناس بالاستيلاء على المواد النافعة فوق الأرض أو فى باطنها، ولايزال المصريون إلى يومنا هذا (القرن الثامن عشر) يحفرون بحثا عن أحجار يستخدمونها فى بناء المساجد والبيوت ولايزال المصريون يبحثون عن الكنوز التى خلفها أجدادهم الأغنياء القدماء، ويغربلون التراب ليجدوا فيه قطع الفضة والذهب.

كيمان قمامة القاهرة

ويعد أن سرد «نيبور» أهم معالم القاهرة وأبوابها وقناطرها والمستنقعات التى تتخللها قال ان مدينة القاهرة - أو مصر - تبعد أقل من ميل عن ساحل بولاق. وتقع أغلب أجزائها فى سهل رملى عند أسفل جبل المقطم، وتحيط بالقاهرة تلال عالية تكونت تدريجيا من القمامة التى تحملها الحمير كل يوم إلى هناك، أما التلال الملاصقة للخليج - خارج المدينة - فقد تكونت من الطين الذى يستخرجونه عاما بعد عام من الخليج عند تطهيره، ولقد ارتفعت هذه التلال ارتفاعا كبيرا حتى لم يعد فى مقدور الواقف على هذه الناحية من النيل أن يرى أبراج القلعة.

والسائر فى العاصمة المصرية يجد فيها بركا كثيرة جدا عندما تمتلىء بالمياه فيشبه منظرها منظر بحيرات صغيرة، كذلك تشغل المساجد الكثيرة جدا حيزا كبيرا، ومن الجائز أن تكون هناك حدائق كبيرة، وساحات خالية من باب زويلة وطولون والحنفى وباب اللوق، وهى الأحياء التى رأيت شوارعها المزدحمة بالبيوت، وهى ليست بارتفاع البيوت الأوروبية، وأغلبها مبنى بالطوب اللبن من طابق واحد، وقد ذهب بعض الأوروبيين إلى القول بأن القاهرة مزدحمة بالسكان ازدحاما يفوق المألوف، ولكنهم لم يأخذوا فى اعتبارهم نظام الشوارع، فقد يقف جاران يسكنان فى حيين مختلفين. كل منهما فى مؤخرة بيته الحديث، أما ان أراد أن يذهب إلى بيت صاحبه فعليه أن يسير ربع ساعة حتى يصل إليه لأن لكل منهما مخرجا واحدا إلى الشارع الرئيسى، ولهذا تزدحم الشوارع نهارا خاصة أنها ضيقة، أما الشوارع المتطرفة فلا يعمل بها إلا القليل من الحرفيين فتبدو خاوية.

قافلة الحجاج

ويصف «نيبور» قافلة الحجاج المتجهة إلى الأراضى الحجازية، ويتجمع الحجيج عند «بركة الحاج» التى تقع على مسيرة أربع ساعات شرقى القاهرة، وهى بحيرة كبيرة نسبيا تستمد ماءها من

النيل، وعندها تقع قرى كبيرة وصغيرة وبيوت ريفية يمتلكها وجهاء القاهرة، وهناك يضرب الحجيج خيامهم، حيث يضرب كل واحد خيمته فى المكان الذى يعجبه، إلا أمير الحج الذى نصب لنفسه ولرجاله خياما ثمينة، ومن بينها خيمة الكسوة الشريفة التى يحملونها إلى مكة، وأمامها وضعت ثلاثة مدافع صغيرة، وأربعة مدافع أخرى، وجرت العادة أن ترحل قافلة الحجاج المغاربة مع الحجاج المصريين، أما أهل طرابلس وتونس والجزائر فيسافرون قبلهم أو بعدهم بيوم، ولا يدفعون ضرائب إلى الحكومة المصرية.

يوم كسر الخليج

ويحكى «نيبور» مشاهداته لعيد وفاء النيل، فيقام فى الخليج اتباعا لعادة قديمة، بين السد القائم عليه، ومجرى النيل، عمود من الطين بالارتفاع الذى يتوقع الناس أن يصل النيل إليه فى فيضان عند كسر السد وفتح المياه إلى الخليج، ويطلق المصريون على هذا العمود اسم «العروس». ويستعيد «نيبور» قراءاته التى تقول ان المصريين أيام الكفر كانوا يلقون فى النيل عذراء قربانا فى كل عام، أما هذه العروس التى يقيمها المسلمون فلا يمكن اعتبارها بحال من الأحوال إلا بمثابة مقياس شعبى للنيل، فالتيار فى هذا الموضع هادىء طالما ظل السد قائما لا يقوى على الاطاحة بالعروس، ويستطيع عامة الشعب أن يعرفوا بالنظر إليها مدى ارتفاع النيل، ومتى يكون فتح الخليج على وجه التقريب، فإذا تم فتح الخليج لم يعد للعروس نفع يرتجى، وينساب الماء على نحو شديد، وبخاصة فى الأيام الأولى، فيطيح بالعروس.

نقطة الفيضان

ويقول ان جبريل الصهيونى تعجب كل العجب فى تعليقاته على جغرافية الادريسى من المحاولات التى تقوم بها النساء المصريات، مسلمات ومسيحيات، للتنبؤ بحجم الفيضان، والشائع فى مصر ان النيل يبدأ ارتفاعه فى ليلة السابع عشر إلى الثامن عشر من يونيو فى الحبشة، وان «النقطة» التى تسبب الفيضان تسقط إذ ذاك،

وتضع النسوة فى الليلة المذكورة كمية معينة من العجين على أسطح بيوتهن، فإذا لم تزد وزنا فى اليوم التالى فمعنى ذلك أن «النقطة» سقطت، ويستطيع الناس أن يحسبوا بالأقدام الزيادة المتوقعة، والأسعار التى ستكون عليها المحاصيل فى العام التالى، ولما كان مناخ مصر منتظما غاية الانتظام، فربما كان ذلك الفصل من العام فصلا يسقط فيه ندى كثير يؤدى إلى زيادة وزن العجين المكشوف، ولقد اختلفت نساء القاهرة فى هذا العام على الليلة التى سقطت فيها النقطة، ولما كن جميعا يتبعن التقويم القبطى، فقد أخطأ بعضهن الليلة، واكتشفن النقطة على الرغم من ذلك، والمؤكد أن الناس فى مصر يقومون فى كل عام بمحاولات ليعلموا متى يبدأ النيل فيضانه، وليكتشفوا هل ستكون سنة غلاء أو رخاء، والعقلاء من المسلمين لا يحملون المسألة كلها إلا على محمل التسلية المحضة التى يتسلى بها النساء، وقال بعضهن ان المنجمين العرب يسمون اللحظة التى تدخل فيها الشمس برج السرطان «النقطة» وان هذا الاسم أغرى العامة بالقيام بهذه التجارب التى لا طائل وراءها.

نقطة من السماء

وأطلع نيبور على ما كتبه زميله «فورسكال» حول مسألة «النقطة» وان العامة فى مصر منذ أزمان سحيقة يعتقدون أن نقطة ماء تسقط من السماء إلى النيل فى تلك الليلة من شهر يونيو، فيهرعون إلى بيوتهم لاجراء تجارب استطلاعية ليعرفوا بها مستقبل الفيضان، ويضعون رطلا من الطين الجاف فى طست، ويصبون عليه ما يساوى وزنه من ماء النيل، ثم يترك الطست على هذه الحال فى ليلة انتظار النقطة، فإذا امتص الطين الماء كله كان ذلك نذيرا بعام جاف، ولقد قام الرحالة «فورسكال» بإجراء التجربة بنفسه فاكتشف ان الماء يبقى فى كل مرة ولا يمتصه الطين كله، ومعنى هذا ان التجربة مضمونة النجاح أصلا، وأنها تشير فى كل الأحوال إلى أن النيل يفيض، ويخرج كل واحد من هذه التجربة التى لا جدوى منها بما يشاء له تصوره من نبوءته.

هل تواطأ المقوقس مع العرب لتسليم مصر؟!

□ النقيوس تعاطف مع الروم ضد العرب.

□ لم يرغم المقوقس للتسليم إلا بانتصار العرب الساحق!

في تاريخه للفتح الإسلامي: لم يلتزم الأسقف يوحنا النقيوسي بالتتابع الزمني للأحداث منذ دخول العرب العريش وزحفهم إلى الدلتا وخوضهم المعارك ضد الروم من الفرما وبلبيس وهليوبوليس، وحصارهم حصن بابليون حتى دخولهم الاسكندرية. وإنما يبدأ المؤلف حديثه عن الفتح من الفيوم، حيث كانت الاستعدادات تجرى بين القوات الرومية لعرقلة تقدم «الاسماعيليين»، وهم العرب لأنهم من نسل النبي اسماعيل، فيقول إنهم قتلوا رئيس الجند البيزنطي وكل من معه دون رحمة، وفتحوا المدينة، ولم يرفقوا بأحد ولا شيخ ولا طفل ولا امرأة«!!»

وعلى هذه الوتيرة الحزينة يخيل للقارىء أن القتلى كانوا من المصريين، ثم يكتشف أنهم من الرومان الذين عذبوا المصريين على مدار ستة قرون، واعملوا السيف في رقابهم، وتلك من المتناقضات التي تؤخذ على الكاتب سواء كان المؤلف أو المترجم الحبشي.

وبنفس اللهجة المتعاطفة مع الروم، المبغضة للمسلمين يقول الكتاب ان عمرو بن العاص - عندما استولى على الفيوم وكل ضواحيها - أرسل إلى كيرس - يقصد المقوقس - ليبعث إليه بسفن لنقل «الاسماعيليين» من غرب النهر إلى شرقه، وأرسل إلى الوالي «جيورجيس» ليشيد له قنطرة عند النهر بمدينة قليوب ليستولى

على كل مدن مصر.. ولم يقنع عمرو بما صنع، بل قبض على حكام الروم، وكبل أيديهم وأرجلهم بأغلال الحديد والخشب، ونهب أموالا كثيرة بعنف، وضاعف الضرائب على العمال، وكان يسخرهم ليحملوا طعام خيولهم، وارتكب آثاما كثيرة لا تحصى«!!»

اتهام المقوقس بالتواطؤ

أما القول بأن عمرو أرسل إلى المقوقس يطلب منه سفنا لنقل الفاتحين العرب، فالغرض منها الايهام بأن المقوقس كان متواطئا مع عمرو، وانه خان سيده البيزنطى فباع مصر إلى العرب، فهى أقوال ينقضها الواقع، فقد بقى المقوقس مخلصا للدولة البيزنطية إلى آخر رمق، ولم يرغمه على التسليم سوى انتصارات العرب، وهزائم الروم المتتالية، وما دفعه إلى توقيع معاهدة التسليم سوى الرغبة فى حقن دماء الروم والمصريين والاعتراف بالواقع الجديد.

المسلمون يحرقون المدن

ثم تمضى المخطوطة المترجمة من العربية إلى الحبشية فى القرن السابع عشر، فتقول: وعندما وصل المسلمون مع المصريين الذين جحدوا المسيحية وانضموا إلى عقيدة هذا المفترس «اشارة إلى الأقباط الذين اعتنقوا الاسلام أثناء الفتح» احتاذ الاسلام «يقصد جيش المسلمين» كل أموال المسيحيين الذين فروا، وكانوا يدعون عبيد المسحيين أعداء الله وترك عمرو كثيرا من قومه فى حصن بابليون، وسار شرقا ليستولى على سمنود ـ ومكث عمرو رئيس المسلمين اثنى عشر شهرا يحارب المسيحيين الذين كانوا فى شمال مصر ولم يستطع فتح مدنهم، ولم ترض عنه دمياط وأراد أن يحرق زروعهم بالنار، وبدأ يسير نحو جنوده الذين كانوا فى حصن بابليون بمصر، وأعطاهم كل الغنائم التى أخذها من الاسكندرية وهدم بيوت أهلها الذين هربوا، وأخذ أخشابها وحديدها، وأمر ان يمهدوا طريقا من حصن بابليون حتى وصلوا به إلى المدينة ذات النهرين ليحرق هذه المدينة بالنار، وعندما سمع

أهل المدينة بذلك: أخذوا أموالهم وفروا وتركوا مدينتهم خاوية، وأحرق المسلمون هذه المدينة وسار المسلمون إلى مدن أخرى ليحاربوها، وسلبوا أموال المصريين.

المصريون يكرهون المقوقس

ثم يقول: غادر عمرو المدينة بحرى مصر، وسار إلى ريف ليحاربها، وأرسل قليلا من المسلمين إلى مدينة انصتا بالصعيد وعندما رأى المسلمون متاعب الروم وكراهيتهم للملك هرقل للنفى «يقصد للاضطهاد» الذى أحدثه فى كل مدينة مصرية للعقيدة الحقة «الأرثوذكسية» بفضل كيرسى البابا التابع للمذهب الخلقيدونى: تقووا وتشددوا فى الحرب. وتشدد أهل المدينة مع رئيسهم يوحنا فى أن يحاربوا المسلمين، فأبى، ونهض بسرعة مع جنوده وجمع كل مال الضرائب من المدينة، وسار إلى الاسكندرية، لأنه عرف انه لا يستطيع مقاومة المسلمين، وحتى لا يحدث له ما حدث لأهل الفيوم، فإن كل أهل المدينة خضعوا للاسلام، وقدموا له الضرائب وكل من وجدوهم من جنود الروم كانوا يقتلونهم.

● تعليق د. عمرو صابر: واضح ان النص يشير هنا إلى حقيقة تاريخية وهى اضطهاد البيزنطيين للأقباط بسبب العداء المذهبى، اذ المعروف ان المصريين هم الذين كرهوا هرقل والروم ممثلين فى المقوقس «كيرسى» بسبب الاضطهاد الخلقيدونى. وليس من المعقول أن يكون الروم هم الذين كرهوا هرقل لهذا السبب، ولكن الرغبة فى نصرة المذهب هى التى دفعت المؤلف أو «المترجم الحبشى» إلى صياغة الحديث بهذا الشكل.

نقمة إلهية

ولا يخفى المؤلف شماتته من هزيمة الروم واندحارهم أمام العرب، ويعزو ذلك إلى النقمة الإلهية، فيقول: ولكن الله الذى يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرؤهم عليه، وردهم إلى يد الاسماعيليين، ثم نهض المسلمون

وحازوا كل مدينة مصرية وبعد موت هرقل، وبعودة كيرسى لم يترك الغضب واضطهاد شعب الله، بل كان يزيد سوءا فوق سوء.

وهو يفسر تسليم الحصن إلى المسلمين فى اليوم الثانى من عيد القيامة، بأنه جزاء من الرب لأنهم لم يكرموا آلام الخلاص ليسوع المسيح الذى وهب الحياة لمن يؤمنون به، وفى يوم العيد هذا: أطلقوا المسجونين الأرثوذكس، ولم يترك أعداء المسيح هؤلاء دون أى أذى، بل أساءوا إليهم وقطعوا أيديهم.. الخ.

● تعليق المترجم د. عمر: الاشارة هنا إلى ما أنزله الروم بالقبط الذين سبق أن سجنوهم بالحصن، ويوضح مدى ما لاقاه القبط من اضطهاد على أيدى الروم. الأمر الذى جعل القبط يقدمون على مساعدة المسلمين دون تردد.

صراعات داخلية

ويعطينا يوحنا النقيوسى صورة تفصيلية عن الصراعات التى نشأت بين الفيالق البيزنطية فى مصر بعد موت هرقل، وأدى إلى حدوث الارتباك فى صفوفهم. فمالوا إلى الصلح مع المسلمين، ويقول لم يكن البطريرك البيزنطى كيرسى وحده الذى يحب الصلح مع المسلمين، بل كل الناس والبطارقة وبعض رجال البلاط، فاجتمعوا وتشاوروا مع كيرسى البابا ليعقدوا صلحا مع المسلمين.. فسار كيرسى إلى بابليون.. فرحب به عمرو، وقال له حسنا فعلت بخروجك إلينا، فأجاب كيرسى: منحكم الرب هذا البلد، من الآن لا يكون بينكم وبين الروم خصومة، وحددوا عبء الضرائب التى تؤدى، ولم يقل الاسماعيليون شيئا ما، ومكثوا منفردين أحد عشر شهرا «مدة الهدنة» ورحل الروم عن الاسكندرية وأخذوا أموالهم وخزائنهم، وساروا بحرا، وكف الروم عن حرب المسلمين، والمسلمون عن الاستيلاء على الكنائس، ولم يقربوا شيئا ما من عمل المسيحيين، وتركوا العبرانيين يقيمون بالاسكندرية.

ثم يقول المؤلف: ولما علم أهل الاسكندرية بالاتفاق ثاروا واستعدوا للحرب غير ان الجنود والقادة جلسوا للتشاور، وقالوا: لا

نستطيع حرب المسلمين، بل يكون كما قال كيرسى البابا، وأراد شعب المدينة أن يقذفوا كيرسى بالأحجار، وهو يقول لهم: إنما صنعت هذا لانقاذكم من أبنائكم، واستعطفهم بكثير من البكاء، فاستحيا منه السكندريون، وأعطوه ذهبا كثيرا ليؤديه إلى الاسماعيليين مع الضرائب التى حددوها.

أولاد العسال: رواد التشريع القبطى

□ كـتـاب «قـوانين الملوك» لابن الـعـسـال يضم المجموعة الشرعية للفقه المسيحى القبطى .

□ رفض ابن العسال التفرقة العنصرية والرق فى العهد القديم !

«أولاد العسال» أبناء أسرة قبطية اشتغلت بالعلم والأدب والتشريع، وشغل علماؤها مناصب مهمة فى الدولتين الأيوبية والمملوكية، وكما كانوا مقربين من الدولة، كانوا مقربين من الكنيسة ويبدو أنهم ورثوا هذه الاهتمامات الثقافية من جدهم أبى بشر يوحنا المعروف باسم «الكاتب المصرى» وان كان بعض المؤرخين المعاصرين لهم قد حاولوا نسبتهم إلى أصول شامية، ولكن القلقشندى فى «صبح الأعشى» نفى هذا الوهم، كما روى المقريزى فى الخطط، عن تاريخ الملك الصالح نجم الدين أيوب، انه طلب أحد كتاب الديوان ذات يوم جمعة، فلم يجد لأنه يوم عطلة، فأمر بتعيين كاتب قبطى لمواجهة أى طارىء، فوقع الاختيار على «الأمجد» ابن العسال.

أما أشهر أولاد العسال فهم الاخوة الثلاثة: «الصفى - أبوالفضاء» و«الأسعد - أبو الفرج هبة الله» و«المؤتمن - أبو اسحق»، ولكن لواء المجد انعقد لأولهم «الصفى» نظرا للجهد الخارق الذى بذله فى تنظيم وترتيب الشريعة المسيحية فى كتابه الضخم «المجموع الصفوى» الذى وضعه بتكليف من الكنيسة الارثوذكسية المصرية. وأطلقت عليه الكنيسة الحبشية اسم «قوانين الملوك».

وترجع دوافع جمع هذه التشريعات، إلى الظروف التى كانت

تمد بها الكنيسة على عهد البطريرك الخامس والسبعين «كيرلس بن اللقلق»، فرغم ما كان يتمتع به الرجل من علم وفضل، إلا أنه أدخل على تقاليد البطريركية أمورا أغضبت الأساقفة، مما دفعهم إلى عقد مجمع مقدسى حضره أربعة عشر أسقفا يمثلون الوجهين البحرى والقبلى لمعالجة هذه الارتباكات المؤسفة، وانعقد المجمع الأول فى كنيسية حارة باب زويلة بالقاهرة وانعقد المجمع الثانى بالقلعة وحضره الصاحب الوزير معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ، وفى هذين المجمعين وضعت نصوص القوانين والتشريعات، وكان «الصفى» بن العسال كاتم السر، فكلفه المجمع المقدسى بكتابة مسودة قوانين المجمع الأول بخطه، كما كلف الأنبا «يوساب» أسقف مدينة فوه بكتابة قوانين المجمع الثانى بخطه، وجمع ابن العسال كل ما أسفر عنه المجمعان من قوانين كنسية فى مجموعه المذكور، وتوجد بعض مخطوطات منه فى معهد الدراسات القبطية.. والمتحف القبطى، وصدر مطبوعا فى سنة ١٩٠٨ بجهد وتعليق العلامة جرجس فيلوتاوس، ثم نشره مرقص جرجس سنة ١٩٢٧، وفى سنة ١٩٦٥ قام الدكتور عبدالسميع محمد أحمد أستاذ اللغات الشرقية بجامعة القاهرة، بدراسة منهجية عن الكتاب مقارنة بترجمته الحبشية، وبذل فيه جهدا علميا ألقى فيه الضوء على هذه الصفحة من تراثنا القبطى.

مصادر التشريع المسيحى

ولأن كتاب «قوانين الملوك» يضم المجموعة الشرعية شبه الرسمية للفقه المسيحى القبطى، وخلاصة ما توصل إليه آباء الكنيسة الأوائل، والمقتبسات من التشريعات المحلية والأعراف والتقاليد والعادات، ولأن الكتاب وضع تحت سمع الكنيسة وبصرها: فقد كتبت إلى عموم الكنائس بالالتزام بأحكامه، ثم امتد صداه إلى الحبشة التى تنتسب إلى الكنيسة المصرية الأم وتستمد منها سلطانها الروحى، فتمت ترجمة الكتاب إلى اللغة الجعزية. ولقى عند الأحباش نفس المكانة التى يحظى بها فى مصر.

ولما كانت أبواب الكتاب الأصلى متداخلة، فقد قام الدكتور عبدالسميع بإعادة تقسيمه على نهج آخر تبعا للمصادر ذات التأثير القوى فيه. فبدأ بالمصادر المسيحية، ولما كان العهد القديم أسبق من حيث السياق التاريخى والتشريعى، فكان من الطبيعى أن يكون نقطة البداية، وباعتباره الناموس الذى أكمله المسيح عليه السلام، وفى كل باب من أبواب التشريع نرى «ابن العسال» يقتبس من شريعة الرسول موسى عليه السلام، ما يراه صالحا لوضع القانون الكنسى، ولكنه يعطى الأولوية لما هو موجود فى شريعة العهد الجديد، «الأناجيل» والأمثلة كثيرة: فقد وجد نظام الكهنة له أصول وسوابق فى شريعة العهد القديم، ولكنه تطور بعد ظهور المسيحية، ولذا لا يستقى نظام الكهنة من أسفار التوراة، وإنما يستقيه من آباء الكنيسة الذين طوروا هذا النظام، ووضعوا له تقاليد ورسوما خاصة.

الزكاة والعشور

وفى باب الزكاة والعشور والكفاءات والقرابين: فرضت شريعة موسى عليه السلام على قومه ضروبا من الأعباء المالية، تطهيرا لنفوسهم وتزكية لأموالهم، بخلاف أعباء مالية يفرضها الانسان على نفسه كالنذور والكفارة والقربان، ويوجد فى الشريعة المسيحية نظير هذه الأعباء، عدا الزكاة. وقد تأثر ابن العسال بما وجده فى شريعة العهد القديم، فكتب فى كل هذه الأبواب. أما الأعياد والاحتفالات الاسرائيلية فقد رفضتها المسيحية، واتخذت لها أعيادا تلائمها وتتفق مع الأيام المكرمة لديها وأوصت رعاياها بعدم تقليد اليهود فى عطلة السبت، واعتبرت من يصنع ذلك خارجا على التعاليم المسيحية.

أما تشريعات الزواج والطلاق الموسوية: فقد كان لها أثرها البارز فى القانون المسيحى الذى كتبه ابن العسال، غير انه سجل التطور الذى دعت إليه ظروف ونظم الحياة الجديدة استنادا إلى آراء أباء الكنيسة وتعاليم الرسل وتمشيا مع روح العهد الجديد من

الكتاب المقدس، وفى باب الميراث تحدث العهد الجديد عن عدم حرمان البنات من الميراث خلافا عن شريعة موسى عليه السلام، وقد رأى ابن العسال اعتمادا على تشريعات العهد الجديد أن تعطى النساء حقوقهن فى الميراث، وأن يسوى بين الأبناء والبنات فى الدرجة والتقدير مما لا يوجد نظيره فى تشريعات العهد القديم.

العبودية والحرية

وفى قضية الحرية والعبودية والعتق، يقول الدكتور عبدالسميع محمد أحمد أن روح التعصب والأنانية سيطرت على اليهود إلى حد استعباد الغير، وفى تشريعات العهد القديم فإن الأبناء يرثون الرق عن آبائهم، فإذا أعتق الأب بقى الأبناء على ملك سيدهم، وشىء آخر بالغ القسوة فى هذا المقام، فالعبد الذى يختار الرق «يخرز فى أنفه» ويبقى عبدا إلى الأبد. وقد رفض ابن العسال هذه التفرقة العنصرية التى نادت بها أسفار العهد القديم، واقتبس ما عداها من تشريعات الرق والحرية، وأضاف إليها كثيرا مما استوحاه من تشريعات أخرى غير تشريعات العهد القديم

الربا فى شريعة اليهود

وفى الأمور المدنية والمعاملات الشخصية التى تحتاج إلى تقنين، فإن ابن العسال لم يجد فى تشريعات العهد القديم سوى القليل الذى لا يكفى لإرساء القواعد والحدود. ولاحظ تضارب الأحكام كما هى فى موضوع «الربا».. فالتوراة المكتوبة تكيل بمكيالين، فحرمت الربا حين يقرض اليهودى أخاه اليهودى. وأباحته حين يقرض الأجنبى، وليس المقصود بالأخوة علاقة الرحم، ولكن أخوة الدم اليهودى، ولما كانت الأحكام المدنية التوراتية لا تفى للقضاء بين الناس، وبعضها لا يلائم الدعوة إلى الاخوة الانسانية، والمساواة فى الحقوق والواجبات، فقد اتجه ابن العسال إلى استمداد التشريعات المدنية من مصدر وجد فيه بغيته، وهى

تشريعات وأحكام الفقه الإسلامى.
وفى باب الجرائم والقصاص لوحظ أن شريعة العهد القديم تتسم بالتساوى فى القصاص: النفس بالنفس، والعين بالعين والسن بالسن، وان تجازى النفس بما كسبت، فلا تحمل اثم نفس أخرى «كل انسان بخطيئته يقتل» فالقصاص عقوبة القتل، والموت حرقا عقوبة الزنا، أما العذراء فتمهر مهر العذارى وتزوج إلى الجانى «لا يقدر أن يطلقها أبدا» والقتل عقوبة اللواط.. ويتضح من تتبع الجرائم أن الحدود كانت بدنية فى بعض الجرائم ، وأقصاه القتل رجما أو حرقا أو تعليقا على الخشبة، أو الجلد، وهناك العقوبات المالية كالدية والعوض، وقد استفاد ابن العسال أكبر استفادة من هذه التشريعات ونقل نصوصها بألفاظها، بالاضافة إلى ما استوحاه من تشريعات من مصادر أخرى عديدة.. ومن مجموع هذه المصادر وضع العالم القبطى «الصفى» ابن العسال كتابه «المجموع الصفوى» أو «قوانين الملوك» كما وصفته الكنيسة الحبشية. ولمن أراد التوسع فى الاطلاع على هذا النشاط الفقهى المسيحى، يمكن أنه يجده فى كتابى «من عيون التراث» الذى صدر فى سلسلة مكتبة الأسرة عام ١٩٩٨.

الوزراء اليهود والنصارى فى العهد الفاطمى

☐ فى الدولة الفاطمية .. كان تقلد الوزارة بالكفاءة بغض النظر عن الديانة.

☐ بهرام وزير مسيحى.. اطلقوا عليه لقب «سيف الاسلام تاج الملوك»!

رغم ان الدولة الفاطمية التى حكمت مصر زهاء قرنين، كانت مسلمة الديانة، إلا أنها لم تقيد نفسها بشرط الديانة أو الجنسية للوزراء الذين اعتمدت عليهم فى بناء الدولة، فمن بين ٦٥ وزيرا ـ شغلوا هذا المنصب الخطير كما أحصاهم الدكتور محمد حمدى المناوى ـ نجد ٥٥ مسلما، وستة من غير المسلمين، وأربعة أسلموا قبل أو أثناء تقلدهم منصب الوزارة، وكان منهم المصرى والعراقى والمغربى والرومى والأرمنى، ذلك ان الخلفاء الفاطميين جعلوا الأولوية لشرط الكفاءة الادارية، والخبرة العملية بصرف النظر عن الديانة والجنسية، ولما كانت الفاطمية تعتنق المذهب الاسماعيلى الشيعى، فقد كانوا فى أوائل عهدهم يشترطون فى الوزير أن يكون اسماعيليا شيعيا، وكان بعض الطامحين إلى هذا المنصب الخطير يعتنقون مذهب الدولة ولو ظاهريا، ولكن الفاطميين فى أواخر عهدهم، وبعد ان دب الانحلال فى الدولة، أهملوا هذا الشرط فقفز إلى منصب الوزارة أشخاص يعتنقون مذاهب غير الاسماعيلية، بل كان بعضهم من أتباع المذهب السنى، حتى أفضت الوزارة إلى القائد صلاح الدين الأيوبى، فأطاح بالدولة الفاطمية، وأعاد مصر إلى حظيرة السنة.

وأول ما يطالعنا فى قائمة الوزراء غير المسلمين فى العهد

الفـاطمى أوالفـرج يعـقـوب بن كلس، وهو عـراقى يهـودى هرب من بغداد ولجأ إلى بلاط الأخشيد فاستوزره «كافور» وعهد إليه بأعمال جسيمة فى شئون المال، ولما سمع كافورا يمتدحه، ويتمنى عليه لو كان مسلما، بادر بإعلان إسلامه بين يدى كافور، فلما دخلت الدولة الأخشيدية مرحلة الاحتضار بعد وفاة كافور، هرع ابن كلس إلى المغرب، ووضع نفسه فى خدمة المعز لدين الله الفاطمى وهو يرسم خطة فتح مصر، فشجعه على تنفيذ حلمه، ووضع بين يديه صورة واقعية عن الحال السيئة التى يعيشها المصريون، وكيف انهم يحلمون بقدومه ليملأ الأرض عدلا ويقضى على ما تعانيه من فساد، ومن المؤكد ان ابن كلس كان أثناء وجوده فى مصر يقوم بدور الدعاية للدعوة الفاطمية ويشارك العملاء الاسماعيليين نشاطهم فى تدمير الجبهة الداخلية لحساب الفاطميين.

فى ركاب المعز

وتحقق للفاطميين ما خططوا له.. وجاء يعقوب بن كلس فى ركاب المعز لدين الله، فعهد إليه بخطيرات الأمور، حتى ليقول المقريزى ان المعز قلده الخراج ووجوه الأموال جميعها والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين فى الوجهين القبلى والبحرى، وجميع ما ينضاف إلى ذلك وما يطوى فى مصروسائر الأعمال.

فلما مات المعز لدين الله: ازدادت مسئوليات ابن كلس فى عهد الخليفة «العزيز». وخلع عليه لقب «الوزير الأجل» ونهض بكل أمور الدولة سياسيا، كما كان نصيرا للعلوم والفنون والآداب، ومكث فى منصب الوزارة ست سنوات وتسعة شهور دبر خلالها أمور مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب، وعظمت مكانته حتى وصفه المؤرخون بأنه كان من أعظم الرجال الذين أدوا للبلاد أجل الخدمات، ووضع الأسس التى قام عليها نظام الوزارة الفاطمية.

وزير من مصر

ويطالعنا بعد يعقوب بن كلس فى سجل الوزراء غير المسلمين:

عـيـسـى بن نـسـطوروس وهـو نصـرانـى مـصـرى من أتبـاع المذهب الملكانى. وتزوج الخليفة «العزيز» أخته وأنجب منها «ست الملك» التى كانت اختا غير شقيقة للحاكم بأمر الله، وجعله العزيز وزيرا ولكنه لم يحسن العدالة بين مصالح المسلمين وغير المسلمين، وانساق وراء محاباة أبناء ديانته مما جعل المسلمين يضجون بالشكوى إلى الخليفة فعزله إلى أن تشفعت له ابنة اخته ست الملك، فرده العزيز إلى منصبه وبقى فيه إلى ان عزله الحاكم بأمر الله تحت ضغط المغاربة الذين انحازوا إلى زعيمهم الحسن بن عمار.

وتوارثت أسرة نسطوروس منصب الوزارة، فشغله اثنان من أولاده، أحدهما «الشافى» زرعة بن عيسى، وهو من القلائل الذين أفلتوا من سيف الحكم بأمر الله، اذ مات ميتة طبيعية أثارت غيظ الحاكم، واشتهر بأنه كان محبوبا من الجند والكتاب، أما الابن الثانى فيحمل تقليد تعيينه وزيرا انه «الأمير الظهير شرف الملك تاج المعالى ذو الجدين «صاعد» بن عيسى بن نسطوروس» وظل يتولى الأمور حتى قتل فى عهد الحاكم.

مصطفى أمير المؤمنين

ومن الوزراء اليهود الذين برزوا فى العهد الفاطمى: الوزير الأجل تاج الرياسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين أبونصر «صدقة» بن يوسف الفلاحى. وتولى الوزارة فيما بين عامى ٤٣٦ و٤٣٩، وكان يهوديا وأسلم وكان مثل أبيه بارعا فى ضروب الكتابة والبلاغة، ولى أولا نظر الشام، ولكنه هرب من أمير الجيوش الأرمنى «أنوشتكين» وقدم إلى القاهرة ولاذ بالوزير «الجرجرانى» الذى قدر له انفصاله عن عدوه أنوشتكين، فوضعه تحت رعايته ورقاه وأشار أن يستوزر من بعده، فاستوزره الخليفة المستنصر، ولم يكن للفلاحى نفوذ إلى جانب الوزير الخطير «النسترى» الذى هيمن على كل شئون الدولة، وكان هو رئيس ديوان أم المستنصر، ولم يكن للفلاحى وجود فعلى فعمل على التخلص من النسترى فأغرى به الأتراك حتى قتلوه فى الطريق، وظن الفلاحى ان الدنيا

قد صفت له، ولكن أم المستنصر - التى كانت تدير شئون الحكم - لم تغفر له ما فعله برجلها القوى، فمازالت تكيد له حتى اعتقلته فى خزانة البنود.

ولا نعرف جنسية «الفلاحى» اذ لم يكن مصريا، ولم يعرف له جنسية.

مجموعة الوزراء الأرمن

وقد توالى على مصر كثير من الأرمن الذين شغلوا منصب الوزارة، لعل أبرزهم، السيد الأجل أمير الجيوش، سيف الاسلام. ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين. وهادى دعاة المؤمنين أبوالنجم بدر المستنصرى.

وهو حاكم عكا القوى الذى استدعاه الخليفة المستنصر للقضاء على فتنة الفيالق المتناحرة، فأعاد الاستقرار للبلاد. وهو صاحب الآثار التى لاتزال تحمل اسمه فى حى «الجمالية» وأبرزها.البوابات الحجرية، النصر وأبوالفتوح وباب زويلة، وبه بدأ عهد الوزراء العظام الذين أصبح الخلفاء فى أيديهم مجرد ألعوبة، وورثه فى منصبه ابنه الملك الأفضل شاهنشاه ثم حفيده أحمد المشهور باسم «كتيفان».

أما أغرب وزير أرمنى فى الدولة الفاطمية فهو «بهرام» وقد ظل محافظا على ديانته المسيحية ومع ذلك كانت ألقابه: «سيف الاسلام تاج الملوك بهرام الأرمنى». قدم إلى القاهرة والتحق بخدمة الدولة، وكان عاقلا مقدما فى الحرب، حسن السياسة، جيد التدبير فترقى فى الخدم حتى ولى «المحلة» وخرج منها إلى القاهرة فأمسكه الجند وأدخلوه على الخليفة «الحافظ» فولاه الوزارة ونعت «بسيف الاسلام تاج الخلافة».. فغضب المسلمون، ولكنه كان حسن السياسة، وأدى الطاعة للخليفة، وأنفق الأموال على الجند فاستقامت له الأحوال، وراسله الملوك، ولم يذكر عليه أحد انه نصرانى، وظل بهرام فى الوزارة حتى طرده منها رضوان بن الولخشى وحل مكانه ولما مات بهرام حزن عليه الخليفة وأمر

بإغلاق الدواوين ثلاثة أيام.

تطورات الوزارة الفاطمية

من أهم المراجع التى رصدت تاريخ الوزارات الفاطمية كتاب «الوزارة والوزراء فى العهد الفاطمى» للدكتور محمد حمد المناوى. وقدم فيه تحليلا للظروف التى مرت بها الوزارة الفاطمية ومنها:

أولا: ان الفاطميين برغم انهم فى أول الدولة ألزموا جميع الموظفين على اعتناق المذهب الاسماعيلى، فإنهم فى أغلب الفترات كانت سياستهم مبنية على التسامح الدينى، حتى ان الوزراء وهم أكبر موظفى الدولة لم يكونوا كلهم مسلمون، فكان منهم الذميون حتى بين وزراء السيوف، كما لم يكن كل المسلمين اسماعيلى المذهب، فكان منهم السنيون، أو من الشيعة الإمامية خصوصا بين وزراء السيوف الذين أصبحوا المتصرفين الحقيقيين فى شئون الدولة.

ثانيا: كان معظم الوزراء الذميين، وهم من المسيحيين يتعصبون لأبناء دينهم فيعينوهم فى مختلف الوظائف التى يبعدون المسلمين عنها، وقد أدت هذه السياسة إلى شكوى المسلمين وقيام كثير من الأحداث التى أدت إلى تدخل الخلفاء أو قيام حروب أهلية، وكان لهذه السياسة أثر مضاد، فكثيرا ما كان الوزراء المسلمون يتخذون اجراءات مضادة ضد النصارى.

ثالثا: وكما ان الفاطميين لم يتقيدوا كثيرا بديانة وزرائهم، فإنهم لم يتقيدوا كذلك بجنسياتهم، فكان من بين وزراء الأقلام ستة عشر وزيرا من المصريين، والباقون من جنسيات مختلفة، وكان كثير من وزراء السيوف من الأرمن، وليس من بين وزراء السيوف أى وزير مصرى.

رابعا: ان فترات الاستقرار السياسى والاقتصادى هى الفترات التى ظل فيها الوزير فى الحكم مدة طويلة بخلاف الفترات الأخرى التى تعرضت فيها البلاد لهزات سياسية أو حروب أهلية ومجاعات فنجد ان الوزراء لم يمكثوا إلا مددا قصيرة جدا.

ابن المقفع مؤرخ الكنيسة فى العصر الإسلامى

□ ساويرس مؤرخ قبطى.. نقل واقع التسامح الاسلامى مع القبطى بحياد.

□ مخطوطة ساويرس تغطى جزء كبير من التاريخ المصرى.

أثمرت الثقافة الإسلامية فى مصر نهضة فى العلوم والمعارف ومنها علم التاريخ، وعرفت مصر كوكبة هائلة من المؤرخين تفخر بهم مصر بما قدموه من مؤلفات وآثار لاتزال مرجعا لمن يبحث فى تاريخ مصر، ونشأ علم التاريخ فى خط متواز مع العلوم الإسلامية مثل علم الحديث وعلم الفقه. وقد بدأت الدراسات التاريخية معتمدة على الروايات الشفهية التى تناقلها الاخباريون الأوائل، ولم يبدأ التدوين إلا على يد عبدالرحمن بن عبدالحكم، ويعد كتابه (فتوح مصر والمغرب) المرجع الأول لتاريخ مصر الإسلامية، وتوالى من بعده ظهور فحول المؤرخين وفى مقدمتهم أبوعمر محمد بن يوسف الكندى صاحب كتاب (الولاة والقضاة) وكان حجة فى معرفة أحوال مصر وأهلها وعمرانها، ونقل عنه كل المؤرخين الذين جاءوا من بعده.

ولم تكن النهضة التاريخية التى شهدتها مصر بعد الفتح الإسلامى، مقصورة على المؤرخين المسلمين، ولكن ظهر معهم عدد من المؤرخين المسيحيين أسهموا فى الحركة الفكرية التى سادت البلاد، ومنها الدراسات التاريخية، ويتصدرهم المؤرخ القبطى (ساويرس بن المقفع) الذى عاصر الخليفة الفاطمى المعز لدين الله، واشتهر بكتابه «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية»، وكان أسقفا

للأشمونين التى تقع بين المنيا وأسيوط، وألف كثيرا فى الشئون الدينية، مثل كتاب (طب الغم وشفا الحزن) وكتاب «التبليغ» فى الرد على اليهود، وكتاب الرد على سعى بن البطريق المؤرخ الملكانى، وكتاب «التوحيد» وكتاب «الاتحاد»، وكتاب «اختلاف الفرق» وكتاب «السير».

أما أشهر كتبه «تاريخ الآباء البطاركة»: فقد نشر المستشرق «إيفتس» عدة أجزاء منه فى باريس سنة ١٩٠٧ ثم تولت جمعية الآثار القبطية بمصر نشر الأجزاء الباقية من هذا الكتاب بمعاونة الأستاذ يسى عبدالمسيح، والأستاذ برمستر، والدكتور عزيز سوريال عطية، وكان عنوانه: «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة» وهو يروى تاريخ البطاركة فى مصر من أيام ظهور المسيحية على عهد الامبراطور الرومانى أوكتافيوس أغسطس، إلى عهد الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله سنة ١٠٩٢م (٤٩٦هـ).

تاريخ العصر الإسلامى

فى كتاب (تراث القاهرة العلمى والفنى فى العصر الإسلامى) عقد الدكتور عبدالرحمن زكى فصلا عن كتاب ساويرس، وقال انه يتعرض من خلال سرد سير البطاركة لتاريخ العصر الإسلامى خلال فترة تقترب من خمسة قرون، وهى الفترة التى شهدت ميلاد أمة، وإتساع فتوحات، وتوحيد شعوب، وقيام حضارة زاهرة خلقت للإنسانية تراثا مجيدا، فهو يبين لنا كيف تم فتح مصر على يد العرب، ثم كيف كانت معاملتهم للأقباط من النواحى الدينية والاجتماعية والادارية والمالية، فيفصل الكلام على الأحداث السياسية والدينية والاقتصادية المهمة التى حدثت فى عصر الولاة العرب، وفى أيام الطولونيين والأخشيديين، ثم قيام الخلافة الفاطمية فى مصر، كذلك يبين لنا علاقة هؤلاء البطاركة بولاة مصر وأمرائها وخلفائها من ناحية، ثم علاقة هؤلاء البطاركة بالنوبة والحبشة وشمال افريقيا والشام من ناحية أخرى.

كيف انتشر الإسلام؟

وحين يتحدث ساويرس عن علاقة المسلمين فى مصر بإخوانهم المسيحيين: فيقول انها كانت قائمة على التسامح، وليس أدل على ذلك من الكنائس التى بنيت أو جددت فى العصر الإسلامى، وان هذه العلاقة شهدت بعض التشدد من جانب بعض الولاة والأمراء.

ويفيض ساويرس فى حديثه عن انتشار الإسلام فى مصر، كما يعطينا فى بعض الأحيان أرقاما بعدد الذين تحولوا إلى الاسلام فى ظروف معينة، وأكد ان الحكومة الاسلامية منذ البداية انتصرت للأقباط الأرثوذكس على أعدائهم فى المذهب، وهم الملكانيين أتباع الملك البيزنطى، وذكر ان الملكانيين فى العصر الاسلامى فى مصر: لم يتمتعوا بالحرية الدينية إلا فى فترات، وتحت ظروف معينة، ويبين لنا ساويرس ان الأقباط شغلوا كثيرا من الوظائف فى العصر الإسلامى وخاصة الوظائف المالية، وأورد لنا أسماء كثير من كبار الموظفين القبط، وأكد ان الدين لم يفرق بين المصريين فى الشعور بأنهم أبناء وطن واحد.

الصليبيون أعداء وغزاة

ولم يفت الأسقف ساويرس أن يتكلم عن تعمير مدينة الاسكندرية بعد كل غارة رومانية كان تستهدف الاسكندرية وغيرها من الثغور مثل دمياط وسواحل مصر.

وحين يحدثنا ساويرس عن الحملات الصليبية، فإنه لا يعتبر هذه الحروب حربا بين الإسلام والمسيحية، وإنما ينظر إلى الصليبيين كغزاة أعداء، ويعلق على امتلاكهم لبيت المقدس بأن الأقباط لن يستطيعوا الحج، لاختلافهم عن مذهب الصليبيين.

مخطوطة ساويرس

وقد ظهرت حديثا دراسة عن مخطوطة الأسقف ساويرس بن المقفع، قام على تحقيقها الأستاذ عبدالعزيز جمال الدين. وقد مهد لها بفصل عن حكم البطالمة فى مصر، ثم تبدأ المخطوطة

بمقدمة تاريخية عن «قصة السيد المسيح»، وسيرة القديس مرقص واستشهاده، وتراجم للبطاركة الأوائل حتى البطرك رقم (٣٨) وهو بنيامين الذى عاصر الفتح الاسلامى لمصر، ويبدو من التراجم التى وضعها ساويرس أنها كانت بمثابة حوليات للكنيسة المصرية. ودفاعا عنها ضد المذاهب المخالفة داخليا وخارجيا.

وقد أشار ساويرس إلى الرخاء فى مصر، كما فصل الكلام عن القحط والمجاعات والأوبئة فى بعض السنين، وينفرد ساويرس عن غيره من المؤرخين بذكر بعض المجاعات التى لم يرد ذكرها عند غيره، ويشترك مع بقية المؤرخين فى ذكر جميع الأحداث المهمة على غرار المؤرخين المصريين مسلمين كانوا أو مسيحيين. ويمتاز عنهم جميعا بأن كتابه له قيمة الحوليات والمذكرات والمصادر المعاصرة، فى وقت نتلمس فيه المصادر التى عاصرت الفتح العربى لمصر، وما بعده بحوالى قرنين ونصف، فلا نكاد نجدها إلا فى بعض البرديات، وكتاب «التاريخ» لأسقف نقيوس المؤرخ يوحنا.

الحرية الدينية

ويقول محقق المخطوطة ان من أهم الأمور التى انفرد بها ساويرس ما كتبه عن وضع الأقباط فى ظل السلطة الإسلامية، ومدى تمتعهم بالحرية الدينية، وقيامهم بشعائرهم، والاحتفال بأعيادهم، وهو يبين أن كثيرا من المسيحيين أسلموا ليتخلصوا من الجزية والضرائب، والذين بقوا على دينهم قاموا بمقاومة سلبية ضد الحكومة، تنطوى على الهروب من مكان إلى مكان، وهجر الأراضى الزراعية، وهو المؤرخ الوحيد الذى فصل الكلام على حركة الهروب بعدما أصبح الالتجاء إلى الأديرة، لا يعفيهم من الالتزامات المالية منذ خلافة عبدالملك بن مروان، وولاية أخيه عبدالعزيز، على مصر.

ثورات المصريين

وتحدثت المخطوطة عن الثورات التى قام بها المصريون،

وأضخمها ثورة البشمور التى انتهت بحضور الخليفة المأمون وإخماد الثورة، ونعرف مما كتبه ساويرس أنه كانت هناك مساجلات دينية فى بلاط الخليفة الفاطمى المعز لدين الله للمناظرة والتحدث فى الأديان السماوية الثلاثة، والمفاضلة بينها، وكان ساويرس نفسه ممن جادل شيوخ المسلمين وأحبار اليهود فى بلاط المعز.

ويصف عبدالعزيز جمال الدين مخطوطة ابن المقفع بأنها أكبر المخطوطات من حيث الفترة التاريخية التى تغطيها، ومع ذلك فإن معظم مؤرخى مصر يتجاهلونها بسبب ندرتها بين يدى الباحثين، وبسبب ظن من يسمعون عنها بأنها تاريخ للكنيسة المصرية فقط. غير مدركين للرصد التاريخى المهم لوقائع مصر العديدة التى ترصدها هذه المخطوطة المهمة، كما يذكر أنها صححت بعض المعلومات التى أوردها المؤرخون عن المجاعات التى تعرضت لها مصر، فقد ذكروا عن الشدة التى وقعت فى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ان سببها يرجع إلى انخفاض النيل، ولكن ساويرس يعزوها إلى الفوضى التى اندلعت فى القاهرة بين الجند السودانية والأتراك والمغاربة، ونتج عنها خضوع الاسكندرية للجند الترك تساعدهم قبائل المغاربة، حتى انهم ملكوا الدلتا، وأصبحوا يستولون على خراج الأرض وانفردوا بالزراعة، بينما أهملت الترع والمصارف وامتنعوا عن بيع الغلات إلى الناس، فحدثت المجاعة.

يزيد بن أبى حبيب

رائد العلم والافتاء فى مصر الإسلامية

☐ أول من تولى الأفتاء فى مصر.

☐ كرامة العلم.. منعت يزيد بن حبيب من التردد على الحكام.

☐ أول من غرس علم الحديث فى مصر.

احفظ هذا الاسم جيدا: يزيد بن أبى حبيب أول من تولى الافتاء فى مصر الإسلامية، ومن أقدم العلماء الذين حملوا لواء التيَار السنى وحافظوا عليه فى معترك المذاهب والتيارات التى حاولت أن تشق لنفسها طريقا فى مصر. وقاد هذا التيار السنى جماعة المسلمين قيادة حكيمة تتمشى ومبدأهم، وتحمى حركتهم من القضايا الفكرية المتطرفة التى نشأت وليدة النزاع الطارىء بين فئات متعددة الثقافات والنزعات فى داخل المحيط العربى الإسلامى. وأدرك التيار السنى، كلما واصل سيره، أن الموقف الوسط أدعى إلى جمع الكلمة، وضم الصفوف، بل هو روح الاسلام كما يتجلى فى آيات قرآنية عديدة.

وكان يزيد بن أبى حبيب أحد الأركان المهمة فى تأسيس هذا التيار، وهو أحد ثلاثة عهد إليهم الخليفة عمر بن عبدالعزيز بتولى مسئولية الافتاء فى مصر، وهو أول من أظهر العلم بمصر والمسائل والحلال والحرام والفقه. وأجمع على ذلك أكابر المؤرخين. ولكن ـ للأسف الشديد ـ لن تجد له ذكرا فى المدونات التاريخية الحديثة. ولم أجد من ألقى عليه الضوء فى حدود علمى سوى المرحوم الدكتور عبدالمجيد عابدين الأستاذ بجامعة

القاهرة. فى كتابه (لمحات من تاريخ الحياة الفكرية قبل الفتح العربى وبعده) الصادر فى عام ١٩٦٤.

نوبى من دنقلة

ونعرف من المؤلف أن يزيد بن أبى حبيب من أبناء دنقلة، شمالى السودان، وكان أبوه ضمن الأسرى الذين عاد بهم عبدالله بن سعد بن أبى السرح، من غزوته على بلاد النوبة فى سنة ٣١هـ أى بعد عشر سنوات من فتح مصر، وعاش الأب فى الفسطاط واعتنق الإسلام وتزوج من فتاة عربية تنتمى إلى قبيلة «تجيب»، وعاش الابن (يزيد) فى المناخ العلمى والفقهى الذى تبلور فى مسجد عمرو، وتربى على أيدى أواخر الصحابة الذين عاشوا فى مصر، واختلط بكثير من التابعين، وتلقى عنهم أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم رحل إلى الحجاز، وأدى فريضة الحج، وروى عن آخر صحابى التقاه بمكة، وهو الطفيل عامر بن وائلة، ولقى من التابعين عطاء بن رباح، وعراك بن مالك الغفارى، وروى عنهما، ثم عاد إلى مصر حوالى سنة ٩٨هـ وعمره حينئذ خمسة وأربعون عاما، وكانت تلك فترة حاسمة فى حياة يزيد، وهى التى قدمت له المكونات الأولى من ثقافته، وجعلته أهلا ليكون من أئمة التابعين، وحجة فى رواية الحديث، وفقيها ومؤرخا.

عهد بالافتاء

وتبدأ الفترة الثانية من حياة يزيد مع خلافة عمر بن عبدالعزيز سنة ٩٩هـ. وقد بعث الخليفة إلى مصر «نافع» مولى عبدالله بن عمر ليعلم الناس السنن، فأقام بها مدة، وأخذ عنه يزيد وروى عنه. وعلم عمر قدر يزيد فعهد إليه بالافتاء، فذاع صيته، وفاضت شهرته وتجاوزت حدود مصر. ووفد عليه بالاسكندرية عالم المدينة محمد بن اسحق أول كتاب السيرة، وأخذ عن يزيد عددا من الأحاديث، ووجد عند يزيد كتابا فيه ذكر من بعثهم الرسول إلى

ملوك الدول، وما قاله لأصحابه حين بعثهم.

كرامة العلم

كان يزيد على درجة عالية من سمو الأخلاق، واحترام الذات، والحفاظ على كرامة العلم، بعث إليه «زبان» بن عبدالعزيز (أخو الخليفة) أن يذهب إليه ليسأله فى بعض الأمور، فأبى العالم الجليل وبعث إليه يقول: بل أنت فأتنى.. فإن مجيئك إلىَّ زين لك، ومجيئى شين عليك.

عاش يزيد ولاءه السياسى للعثمانية، فكان ولاؤه هذا من العوامل القوية التى خدمت قضية العثمانية ثم الأموية فى مصر، ومع هذا لم يتردد فى إسداء النصح ونقد سياسة الولاة إذا اقتضى الأمر، وكان يتجنب التردد على الحكام الظالمين. مثل قرة بن شريك الذى تولى مصر ما بين ٩٠ و٩٦هـ. وفى عهده قامت فتنة الخوارج، وتآمروا عند منارة الاسكندرية لقتل الوالى، وبايعوا أحدهم رئيسا لهم، فوشى بهم رجل يسمى أبو سليمان، فكان يزيد إذا أراد أن يتكلم بشىء فيه تقية من السلطان. قال لأصحابه: احذروا أبا سليمان.. ثم يقول الناس كلهم من ذلك اليوم أبوسليمان.

وفى أواخر حياة يزيد وفد على مصر وال جديد اسمه الحوثرة بن سهيل وكان متعطشا للدماء، فلما مرض يزيد ذهب إليه الحوثرة لعيادته على غير رغبة من المفتى، وأراد الوالى أن يتقرب منه فسأله: ما تقول فى الصلاة فى الثوب وفيه دم البراغيث. فكان المفتى يشيح بوجهه عنه ضجرا منه، والوالى يلح فى السؤال، فما كان من يزيد إلا أن التفت إليه وقال له على سبيل التبكيت: تقتل يوم خلقا.. وتسأل عن دم البراغيث(!!)

دعابات ابن أبى حبيب

فإذا انتقل الشيخ إلى محيط تلاميذه وأنداده، رأيناه رجلا متواضعا حليما رقيق الدعابة. قالوا له: يا أبا رجاء.. ليت الناس

كلهم مثلك، فكان جوابه: إذن لكانوا كلهم سودانا. وهو جواب ينم عن التواضع يوحى للسامعين بأنه لا يملك من الصفات الحميدة إلا سواد البشرة. فلو صار الناس مثله فى صفة يتميز بها، لكانوا جميعا مثله سودا.

ويؤثر عنه قوله: إنما غضبى فى نعلىّ، فإذا سمعت ما أكره.. أخذتهما ومضيت، وقوله: لا أدع أخا يغضب علىَّ مرتين، بل أنظر الأمر الذى يكره فأدعه، ويحدثنا الرواة عن تبسطه فى مجلس تلاميذه، وتشجيعه إياهم، وقال فيه أحدهم، وهو الليث بن سعد إمام مصر العظيم: يزيد سيدنا وعالمنا.

مدرسة يزيد فى الحديث

وليزيد بن أبى حبيب مدرسة أفرزت طبقات من العلماء المصريين وغير المصريين، تناقلت من خلالها أجيال كثيرة رواياتها، وبدأ بتدوينها بعد وفاة يزيد سنة ١٢٨هـ.

ويصنف الدكتور عبدالمجيد عابدين مدرسة يزيد فى الحديث، والفقه، والتاريخ، وليس من اليسير إحصاء طبقات هذه المدرسة وحسبنا أن نشير إلى الأسماء اللامعة فى الطبقة الأولى وهم:

- الليث بن سعد المتوفى عام ١٧٥هـ.
- عمرو بن الحارث المتوفى عام ١٤٨هـ.
- حيوة بن شريح التجيبى المتوفى عام ١٥٨هـ.
- محمد بن اسحق المتوفى عام ١٥٠هـ.

وعن هؤلاء الرواد ظهر باقى الطبقات التى تخرجت من مدرسة يزيد.

أول من غرس دراسة الحديث

كان يزيد - كما وصفه المستشرق جولد تسيهر - أول من غرس دراسة الحديث فى مصر، فقد دقق روايته، ونبه تلاميذه إلى تمحيص السند، ومعرفة رواته، وكان قد شاع حينئذ كثير من

الأحاديث على ألسنة القصاص وأصحاب الأهواء لم تكن موثقة ولا صحيحة، وتحدث تلامذة يزيد عن بعض ما كشفوه من تلك الأحاديث الموضوعة وحذروا منها، ووقف يزيد فى وجه القصاص، فأعلن أن القاص ينتظر المقتة، وأفتى الليث - تلميذ يزيد - بأن القصص العام مكروه لمن فعله ولمن استمعه.

يقول الدكتور عابدين: ومهما يكن من أثر الجهود التى بذلها يزيد والليث فحسبهما أنهما مهدا لتلك الحركة النقدية الواسعة التى حمل لواءها البخارى ومسلم فيما بعد، والتى أنتجت شروطهما المعروفة لتنقية الحديث من الدخيل والموضوع.

على أن أفراد مدرسة يزيد لم يكونوا جميعا فينظر نقاد الحديث على درجة واحدة من الضبط والعدالة، كان منهم الثقة صحيح الحديث، ومنهم من تردد النقاد فى الاحتجاج بحديثه، وتجاوز أثر مدرسة يزيد حدود مصر فيما رواه الغرباء عن مدرسة يزيد، وما صنفوه فى كتبهم.

حوادث الفتح الإسلامى

ولا ننسى دور يزيد فى تأسيس الدراسات التاريخية، فهو أول من حفظ روايات المعاصرين للفتح، وحفظت مدرسته أخبار فتح مصر على يد عمرو بن العاص، وما تلاه من أحداث، وعنيت هذه المدرسة بتفاصيل الفتح حتى وصلت إلى عبدالرحمن بن الحكم فضمنها كتابه (فتوح مصر والمغرب) فهو ثمرة من ثمار المدرسة اليزيدية التى تناقلت الأخبار رواية عن شهودها الأوائل. وبذلك يكون يزيد قد وضع اللبنة الأولى فى الدراسات المصرية التاريخية.

محتويات الكتاب

الصفحة

أخبار اليوم

حلم العمر

HELM AL OMR

2007

- اول كتالوج يقدم التفاصيل الكاملة لبناء عش سعيد
- رحلة كل عروسين من الخطوبة الى شهر العسل
- أحدث أساليب تصميم البيت العصر وأفكار مبتكرة لفستان الفرح والشبكة وتسريحات الشعر والماكيا
- حوارات مع أشهر مصممى الفسا والكوشه والمتخصصين فى التخطيط لحفلات الخطوبة والز
- نختار معك أجمل الأما لقضاء شهر عسل أسطورى

٢٨٠ صفحة (٦٠ جنيه)

رئيس مجلس الإدارة
محمد عهدى فضلى

رئيس التحرير
نوال مصطفى



كتاب اليوم

عن مسابقة صيف ٢٠٠٧

لجميع قراء كتاب اليوم الأعزاء

اختر أحد كتبنا الثقافية الصادرة من سلسلة «كتاب اليوم» وأرسل لنا بعرض نقدى شامل له، بحيث يشتمل العرض على نقاط محددة تبين الفكرة الرئيسية والنقاط التى يدور حولها الكتاب وتحليل لأسلوب العرض فى الكتاب.

وسيحصل الفائز على اشتراك سنوى فى كتاب اليوم الثقافى

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

يعتز «كتاب اليوم» بثقة قرائه الأعزاء فى أنحاء الوطن العربى، ومن أجل وصوله إليكم فى ميعاده المحدد فى أول كل شهر حسب قيمة الاشتراكات الموضحة فى الجدول التالى:

الاشتراك السنوى

داخل مصر	٧٢ جنيها
الدول العربية	٣٣ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا	٤١ دولاراً أمريكياً
أمريكا وكندا	٤٧ دولاراً أمريكياً
باقى دول العالم	٦٢ دولاراً أمريكياً

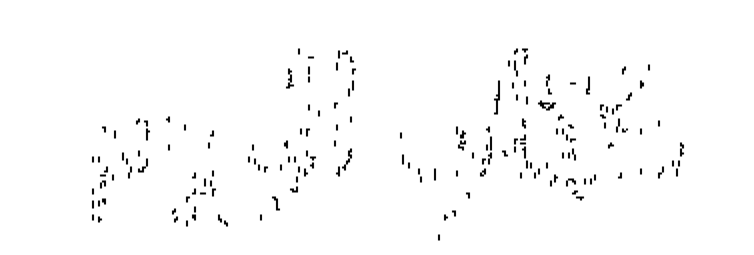
يتم السداد نقداً أو بشيك أو حوالة بريدية أهلية لأمر:

اشتراكات أخبار اليوم

٣ أ شارع الصحافة بالجلاء القاهرة

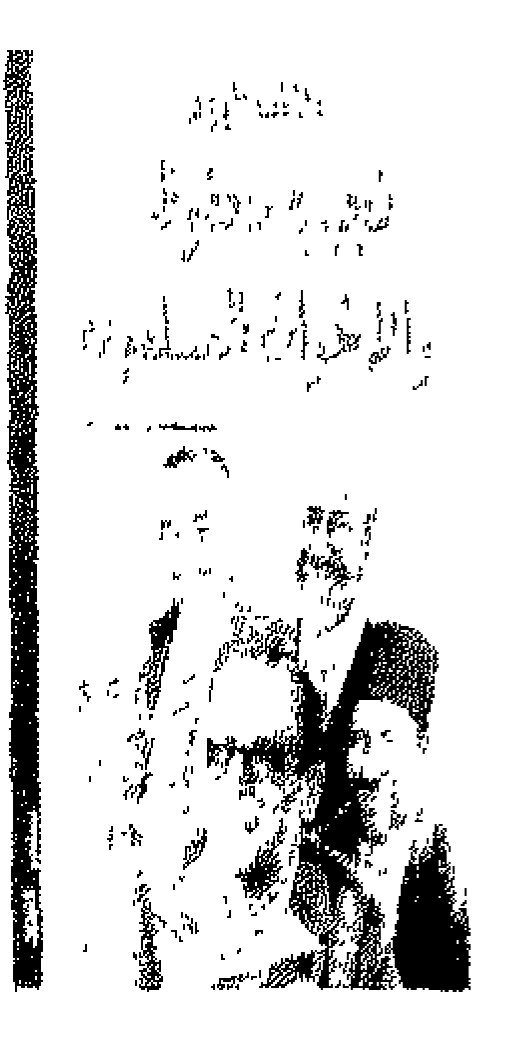
جمهورية مصر العربية

صدر من

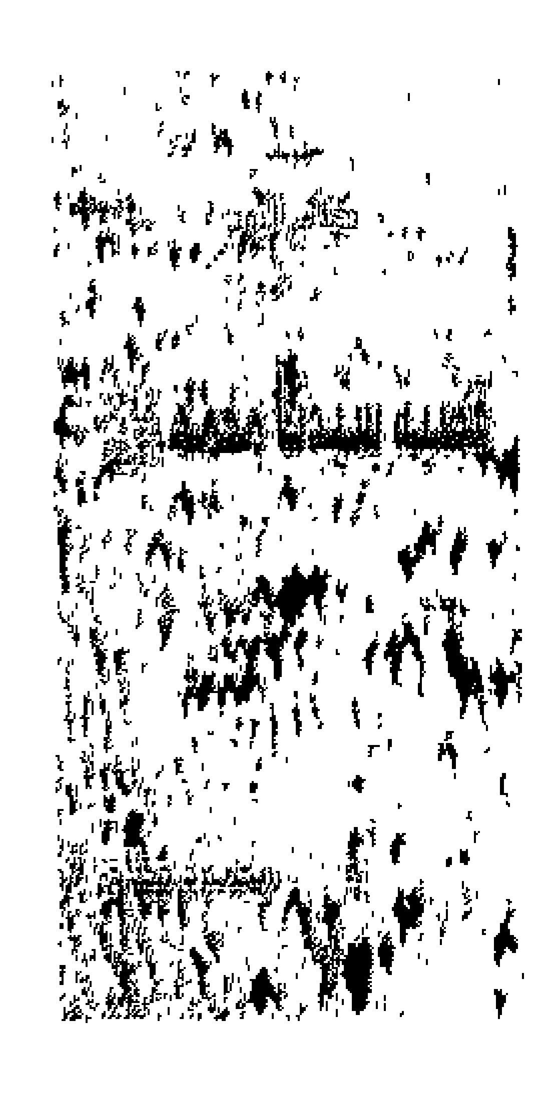


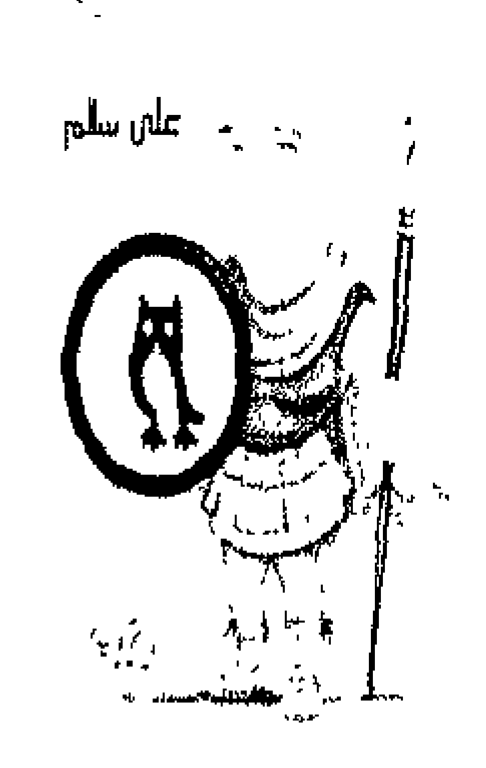

كتاب اليوم
الحب.. والضحك.. والصداقة

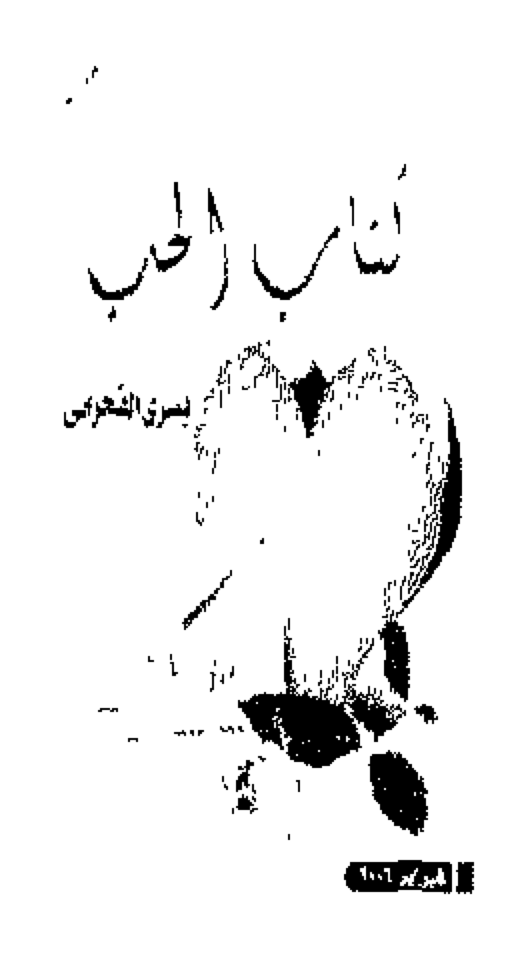

كتاب اليوم
ملكة تبحث عن عريس

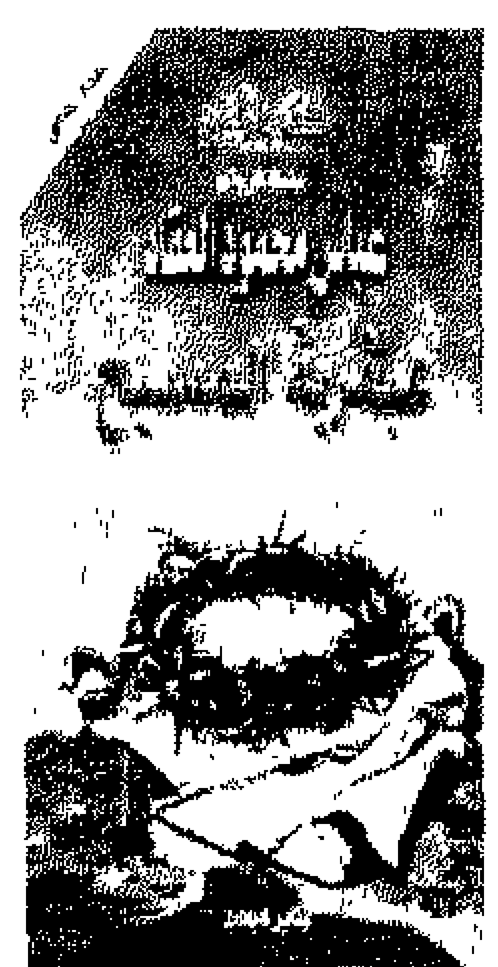


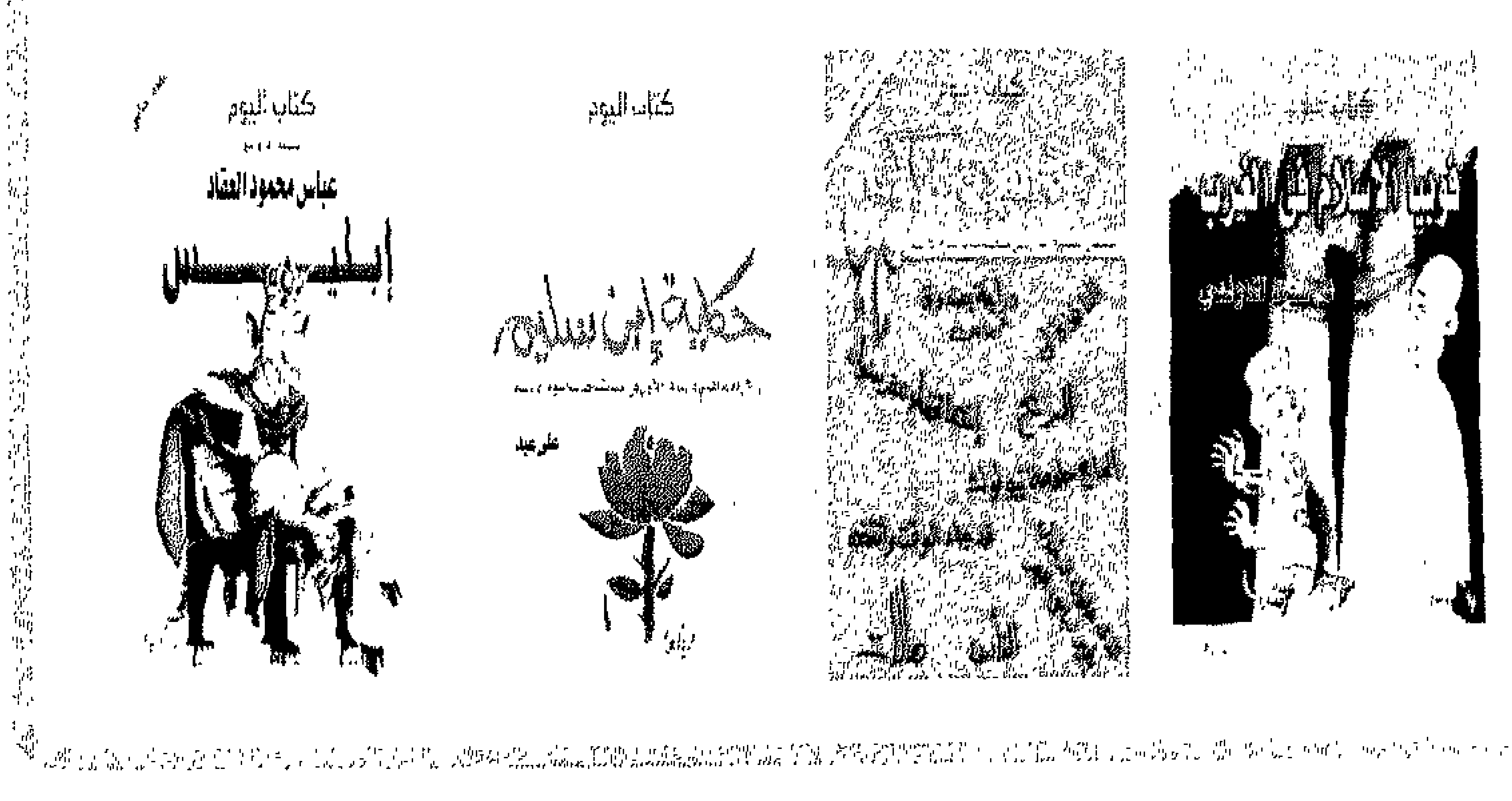

كتاب اليوم
الحريم والسلطة




على سالم


كتاب الحب






كتاب اليوم
عباس محمود العقاد
إبليس

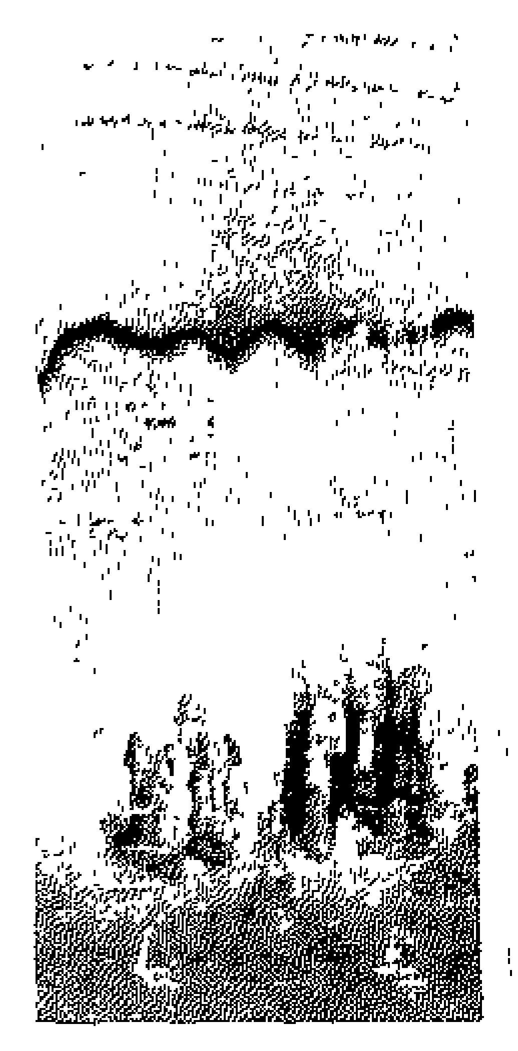
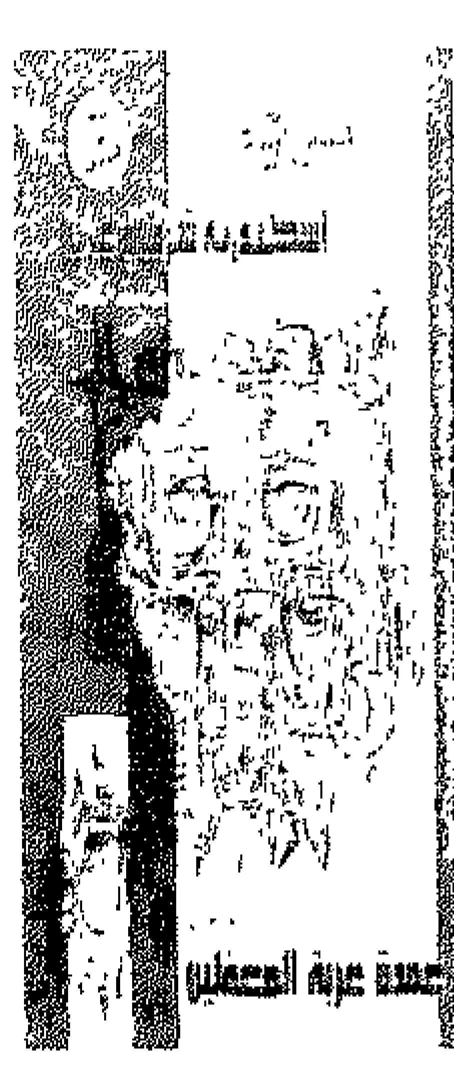

كتاب اليوم



صدر من كتاب اليوم

كتاب اليوم
مصطفى أمين
فكرة !

فؤاد قنديل

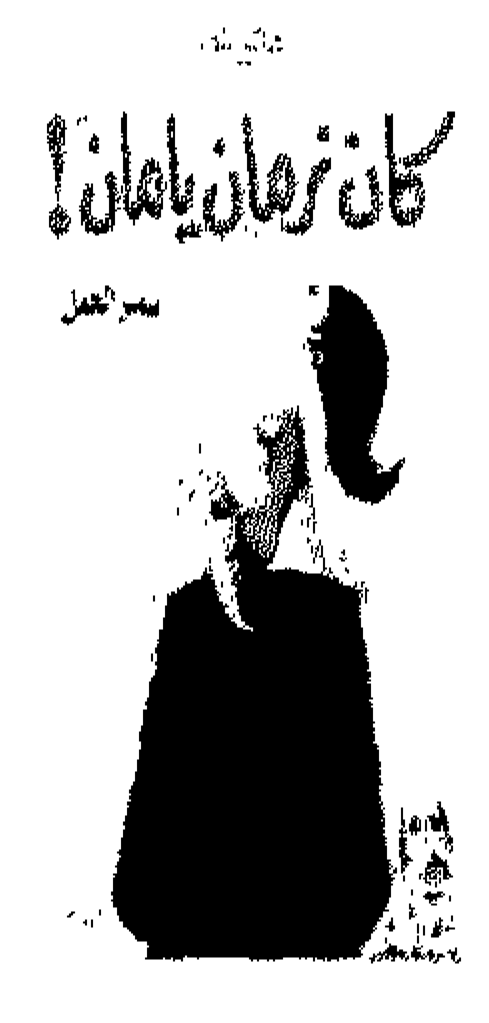



كتاب اليوم
الراقصون على النار

تأملات في العقل المصري

دفاعا عن المرأة

كان زمان يامان !

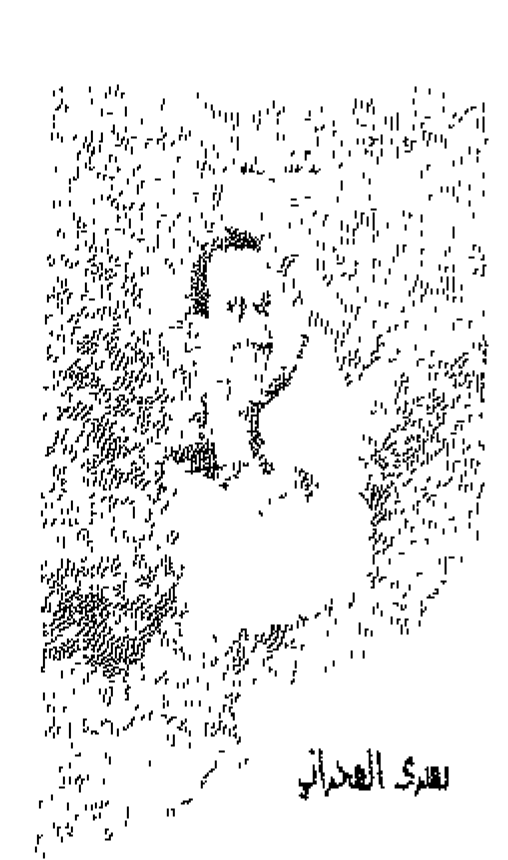


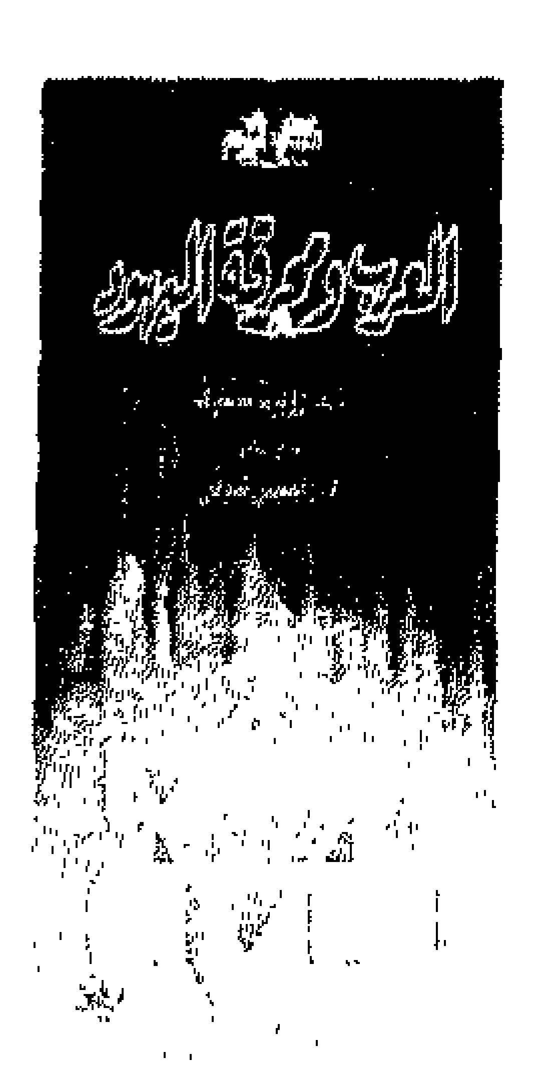




عماد مغنية

العرب ومحرقة اليهود






صدر عن كتاب اليوم السلسلة الطبية

اسم الكتاب	المؤلف	تاريخ النشر
حياتى مع السكر	د. مغازى محجوب	منتصف إبريل ٢٠٠٦
الرضا النفسى	د. أحمد عكاشة	منتصف مايو ٢٠٠٦
١٠٠ وجبة شهية	إسماعيل هاشم	منتصف يونيو ٢٠٠٦
ساعة لقلبك	د. محمد خيرى عبد الدايم	منتصف يوليو ٢٠٠٦
الجلد عنوان الجمال	د. خالد حسن الحوشى	منتصف أغسطس ٢٠٠٦
أغذية تحمى من مرض العصر	د. مصطفى عبد الرزاق نوفل	منتصف سبتمبر ٢٠٠٦
وجبات رمضانية	إسماعيل هاشم	منتصف أكتوبر ٢٠٠٦
شتاء بلا أمراض	نخبة من الأطباء	منتصف نوفمبر ٢٠٠٦
الجنس وصحتنا النفسية	د. يسرى عبد المحسن	منتصف ديسمبر ٢٠٠٦
دع المرض وابدأ الحياة	د. جمال العطار	منتصف يناير ٢٠٠٧
صحة الأبدان فى سلامة الأسنان	د. عبد التواب خلف	منتصف فبراير ٢٠٠٧
عش سعيداً مع السكر	أ. د. إيناس شلتوت	منتصف مارس ٢٠٠٧
النجاح والتفوق من الحضانة إلى الجامعة	د. يسرى عبد المحسن	منتصف أبريل ٢٠٠٧

بطاقة فهرسه فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية

بدوى، جمال.

مصر القديمة فى عيون حديثة/

جمال بدوى. ط ٠١ - القاهرة: دار أخبار

اليوم، ٢٠٠٧.

٢٤٨ ص، ٢٠ سم. - (سلسلة كتاب اليوم).

تدمك ١ ١٣٣١ ٠٨ ٩٧٧

١- مصر القديمة - تاريخ

أ- العنوان

٩٣٢

رقم الايداع ١٩٣٥٦ / ٢٠٠٧

I.S.B.N.977-08-1331-1

كوبون اشتراك

الاســــــم: ....

العنـــــوان: ....

رقم التليفــون: ....

مدة الاشتراك: ....

السداد/ نقدا شيك مصرفى

برجاء قبول اشتراكى فى كتاب اليوم.. ومرفق طيه شيك مصرفى لأمر اشتراكات أخبار اليوم على ان يبدأ الاشتراك اعتبارا من / / ٢٠٠

مطابع أخبار اليوم ٦ أكتوبر

Sinai

قرية نويبع

Nuweiba Village Resort

على البحر مباشرة

عرض خاص جداً

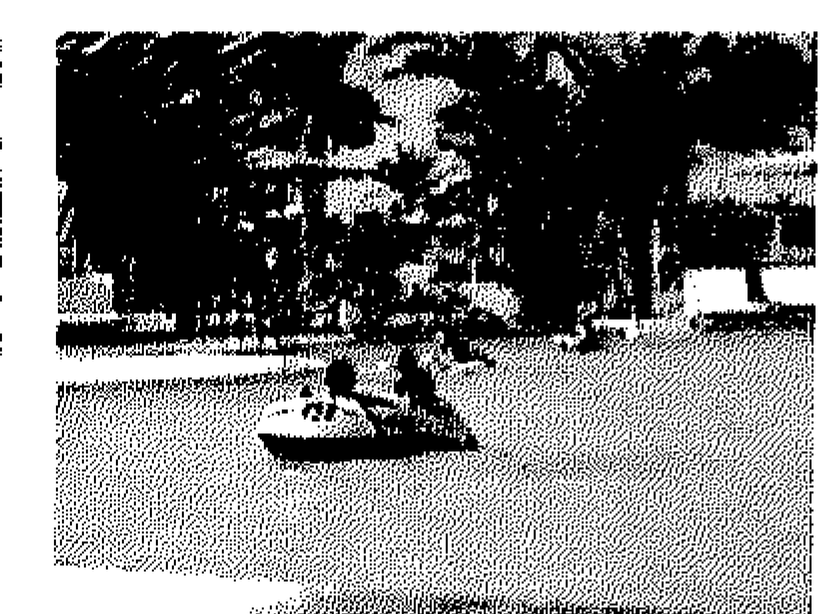


٣ ليالي ٤ أيام (نصف إقامة إفطار، عشاء بوفيه مفتوح)

فقط **٣٣٠ جـ** للفرد في غرفة مزدوجة

بدلا من ~~٥٤٠~~ ج







شاطئ خاص - حمامات سباحة - ملاعب تنس

ملاعب كرة قدم - ملاعب كرة طائرة - حدائق

ديسكو - مطاعم متعددة - خدمة مميزة جدا

العدد محدود جداً وبأولوية الحجز



عرض خاص للشركات والنقابات والمجموعات

للحجز والاستعلام

قرية نويبع السياحية: ٠٦٩٣٥٠٠٤٠١ - ٠٦٩٣٥٠٠٤٠٢ - ٠٦٩٣٥٠٠٤٠٣ - ٠١٠٥١٧١٧٦٨

www.nuweibavillageresort.com

res@nuweibavillageresort.com



PETROLEUM ARROWS.CO

دعوة للقيد في سجل المقاولين والموردين

تعلـــــن

شركة السهام البترولية

ش.م.م

إحدى شركات قطاع البترول

والمتخصصة فى نقل المنتجات البترولية بأنواعها داخل الجمهورية

عن فتح باب القيد فى سجل المقاولين / الموردين

على الأخص فى مجالات

النقل والأعمال المدنية والميكانيكية وخلافه وموردى قطع غيار السيارات بأنواعها

طبقاً لما هو وارد بكراسة الشروط تفصيلا

على السادة الراغبين فى القيد أن يتقدموا بطلب مدموغ باسم السيد / مدير المهمات

خلال الفترة من ١/٩/٢٠٠٧ الى ٣١/١٠/٢٠٠٧

سحب استمارة وشروط القيد نظير مبلغ ٢٥ جنيها بخلاف ضريبة المبيعات على العنوان التالى:

شارع فاروق عامر - مربع ١١٤٢ - مساكن الشيراتون - القاهرة تليفون / فاكس : ٢٢٦٩٠٨٠٨


بلندي
سوكرالوز
Blendy
Sucralose
No Calorie Sweetener
One tablet (0.3 Calorie)
Equivalent to teaspoonful
of sugar in taste
100 Tablets
www.borg-pharma.com
المحلي الأول فى العالم
الآن فى مصر
الوحيد المصنوع من
السكر الطبيعي
للاستعلام : ٥٨٤٧٠١٩(٢٠٣+) - ٣٥٩٨٥٤٨
www.borg-pharma.com
BORG
رقم التسجيل بوزارة الصحة: ٢٠٠٧/٤٢٤٩
Bibliotheca Alexandrina
0635135
الثمن 8 جنيهات
طبع بمطابع أخبار اليوم
6 222007 800085
08